سيتي سنتر

"سوق البسطة"

سيتي سنتر

"سوق البسطة"

روايـة

أسامة كوكش

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: كانون الثاني/ديسمبر 2017م – 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2129-4

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

هذه الرواية بكل ما فيها محض خيال.

إلى كل الذين رحلوا

أقدم اعتذاري من أرواحهم

أعترف.. لا شيء يشفع لي.. لنا

أسامة

كلمة شكر

أتوجه بالشكر العميق للدار العربية للعلوم ناشرون لتبنيها هـــذه الرواية والعمل على نشرها.

أشكر كل من ساهم في إغناء المخطوط باقتراحاتـــه وأفكـــاره، زوجتي عبير هلال الشريك الدائم، أخويَّ علاء الدين ورشاد، حنان مصطفى، الأستاذ معن حيدر، صديقي بشار الراعي الذي يعود إليـــه الفضل في تدقيق المخطوط لغوياً.

أخيراً لا بد من الاعتراف بامتناني العميق لكل شخوص ســـوق البسطة، أولئك الذين أغنوا حياتي عندما كنت ذات يوم واحداً منهم.

1... مركز المدينة

تتقدم شاحنة قسم الشرطة ببطء يتزامن مع خطوات العناصر المنتشرين حولها، يلتقطون ما تطاله أيديهم من معروضات البسطات المنتشرة بكثافة على الأرض، يلقون في صندوق الشاحنة ما لم يستطع صاحب البسطة حمله هرباً من وجه الدورية، لم تكن عملية المصادرة جدية تماماً، الفرصة سانحة لتهريب معظم المعروضات الملقاة فوق أقمشة مهترئة بسطت فوق سخام الأرض، خبر سير الدورية ينتشر في السوق بأضعاف السرعة التي تتحرك بها الشاحنة، لكن ما من مكان آخر يلجأ إليه أصحاب البسطات، جُلّ ما يقومون به هو التراجع بضعة أمتار عن خط سير الشاحنة والدورية المرافقة لها، يتابعون تحركها بنظرات ذليلة متهربة تظهر الخوف منها دون أن يكون هذا الخوف حقيقياً بكل ما في الكلمة من معنى، الدليل على ذلك عودة أصحاب البسطات لفرد معروضاتهم على الأرض ومزاولة أعمالهم كأن شيئاً لم يكن، يقومون بذلك بمجرد ابتعاد الشاحنة بضعة أمتار عن مواقعهم، فهم واثقون تمام الثقة بأن أحداً لن يلتفت إلى الوراء أو يهتم لعودتهم لمزاولة أعمالهم، حتى أنهم يتقصدون أحياناً ترك ما يمكن لعناصر الدورية أن يلتقطوه، إنها مسرحية هزلية تجري مرات عدة في

الأسبوع، مسرحية هزلية لكنها حقيقية جداً تشبه الحياة بكذبها قبل صدقها.

يترأس الدورية المساعد أول أبو غسان من قسم شرطة مركز المدينة، أو من يُطلق عليه اسم "الملك"، علماً بأن تلك الصفة لا تمت لاسم الرجل بشيء، إنها دليل الاحترام، وللدقة هي دليل الخوف المفرط.

المساعد أول أبو غسان "الملك" كان يسير على رأس دوريته ينظر إلى الأمام بترفع وثبات كأنه غير معني بما يحدث حوله، لم يكن يتخلى عن نظرته إلا إذا أحس بحدوث شيء غاية في الأهمية يستدعي منه التفاتة، عناصر الدورية تعودوا توزيع نظراتهم بين معلمهم بالدرجة الأولى وبين الهاربين من وجههم أو بالأحرى الهاربين من خط سير "الملك"، العناصر ينتظرون من الأخير إيماءة صغيرة باتجاه شخص ما لينقضوا عليه بكل حزم وجدية ويحضروه مخفوراً للمثول بين يدي "الملك"، الويل لمن يتلقى هذه النظرة، الويل الأكبر إذا كانت النظرة تعني ضعوه في صندوق الشاحنة، ما ينتظر من تلقى إيماءة أبي غسان لا يسعد عدواً ولا صديقاً إذ إن المسرحية الهزلية تتحول إلى منتهى الجدية إذا تدخل فيها "الملك".

تسير الدورية إلى نهاية السوق في حركة شبه عشوائية، المكان عبارة عن ساحة واسعة مفتوحة، تصل الشاحنة إلى أطرافها ومن ثم تلتف عائدة، ما إن تنتهي هذه الجولة حتى يتوجه السائق بشاحنته نحو ملجأ أيتام قريب حاملة المصادرات، تفرغ حمولتها هناك ثم تعود باتجاه مرأب قسم شرطة مركز المدينة الذي يتصدر السوق، هذا لا يعني أن كل المصادرات يتم تسليمها لموظفي الملجأ، بمجرد دخول

أبـــي غسان إلى قسم الشرطة، يتحلق العناصر حول الشاحنة قبل أن تغادر ليختاروا من مصادراتها ما يمكن أن يستخدموه لإعداد وجبـــة طعام تسد الرمق أو ما يمكن أن يصلح لباساً ليرتدوه.

المصادفة وحدها جعلت عناصر قسم الشـــرطة يقفـــون علـــى الطرف المقابل لأهل السوق، لا يوجد فرق بين من يعمل على أرض السوق وبين من ينتمي إلى عناصر قسم الشرطة، الفارق الوحيد هـــو ذلك اللباس الرسمي الذي ينقصه الكثير حتى يجعـــل ذلـــك الفـــارق المفترض حقيقياً.

هذه هي بعض المجريات اليومية لما يحدث في مركز المدينة أو ما يسمى "سوق البسطة".

قبل عقود عدة خلت، كان المكان يحوي أبنية متوسطة الارتفاع لا تشكو من علة ظاهرة رغم قدمها، بُنيت من أحجار كلسية بيض متناسقة، ترك الزمن وتبدلات الطقس وتكاثر مصادر التلوث آثـــاره عليها، حقيقة كان ينقص تلك الأبنية بعـــض الحداثـــة والتغـــيير في كسوتها الخارجية والداخلية، لكن لا أحد يدري الأسباب التي جعلت المنطقة تصل إلى الحالة المعاصرة التي هي عليها الآن، المنطقـــة الـــتي نتحدث عنها – مركز المدينة – أوشكت أن تحمل صفة التاريخية، ربما كانت بعض الإصلاحات كافية لجعلها أكثر تنظيماً ونظافة ليليق بهـــا أن تحمل تلك الصفة المبجلة في كل العالم؛ "التاريخية".

تمت عملية استملاك وهدم مركز المدينة لإقامة منطقة حديثـــة متطورة تواكب ما هو مقام في مدن العالم المتقدم، أبـــراج زجاجيـــة تحوي فنادق، مطاعم، مراكز تسوق كبيرة، مكاتب شركات تجارية ضخمة، مصارف عالمية، مقاهي رصيف، مواقف سيارات طابقيـــة

وأخيراً إنشاء بنية تحتية لمحطة مترو أنفاق مركزية تحت سطح الأرض تمهيداً لإطلاق هذا المشروع الأضخم في المدينة.

اختلفت مواقف سلطات المدينة باختلاف أهواء أجنحتها، منها من رأى أن المدينة "العصرية" هي الأكثر إبهاراً، جناح آخر يعتقد أن المدينة "التاريخية" أكثر أهمية لندرتها بين مدن العالم، العصرنة بحاجة إلى إمكانيات مادية غير متوفرة إلا لتغطية مناطق صغيرة محددة من خارطة المدينة، أما التاريخ فهو موروث الأجداد متوفر بطبيعة الحال، أكثر الأجنحة توازناً هو ذاك الذي جاء بشعار: "مدينة العصر التاريخية"، مشروع المخطط العمراني الجديد لمركز المدينة انضوى تحت هذا الشعار، لتنفيذ هذا المشروع كان لا بد من غض النظر عن التضحية ببعض المعالم التاريخية الواقعة في ذلك المكان.

عندما صدر قرار استملاك الأرض والأبنية المشادة عليها، تعالت أصوات الاعتراضات هنا وهناك، لم يبالِ أحد بها: شاغلو الأبنية، الفنادق، المحلات والمكاتب، أصوات خجولة لبعض وسائل الإعلام في المدينة، أصوات أكثر حماسة وأقل خوفاً صدرت من خارج المدينة، كل ذلك لم يجدِ نفعاً، القرار صدر والاستملاك تمّ، هيبة السلطة في المدينة مسألة تمنع التراجع عن قرار اتخذته وما ينتظر هذه المنطقة الحيوية شبه "التاريخية" من المدينة هو الهدم، من لم يقبل من أولئك الناس أن يحضر لاستلام البدل النقدي الزهيد الذي خصص كتعويض عن عقاره المستملك قامت مديرية الاستملاكات العامة الجهة الناظمة لعملية الاستملاك بوضع هذا البدل في حساب مصرفي خاص يمكّن الممتنع عن قبض مستحقاته أن يحصل عليها إذا ما غيّر رأيه في أي وقت يشاء.

تمت إزالة تلك الأبنية بسرعة فائقة في غضون بضعة أسابيع بعد أن أخليت من شاغليها، البعض تمنّع عن الإخلاء محاولاً إثارة القضية لدى المستويات العليا من سلطات المدينة، استعانت مديرية الاستملاكات العامة بمفارز الشرطة لتنفيذ القرار، بالنهاية من تمنّع خرج مضطهداً ذليلاً من عقار كان يشغله حتى وقت قريب، شغله بقوة القانون بعد أن سدد كامل ثمنه وخرج منه بقوة القانون بعد أن سلبه القانون نفسه حقه فيه مقابل مبلغ تافه!!

دارت عجلة تنظيم المنطقة بسرعة، في الوقت ذاته الذي كانت المعدات الثقيلة تهدم وترحّل بقايا الأبنية، كانت هناك معدات أخرى تؤسس وتبني، البناء الأول الذي ظهر للوجود في المنطقة هو قسم كبير ومهم لشرطة المدينة، أنشئ بسرعة عجائبية في مدينة بات البطء والترهل طريقة حياة فيها، أطلق على القسم تسمية: "قسم شرطة مركز المدينة" تلاه بناء ملاصق للأول احتلته مديرية الاستملاكات العامة، الجهة نفسها التي أصدرت قرارات الاستملاكات والهدم، أراد مديرها العام في ذلك الوقت أن يشرف على المشروع عن قرب، كذلك أراد أن يحجز مبكراً موقعاً لمديريته في أرض الأحلام الموعودة، البناءان حديثا الطراز تجاورا متصدرَيْن تلك المنطقة، باتا يطلان على كل الأعمال الضخمة الجارية على قدم وساق.

فجأة ومن دون سابق إنذار توقفت عملية الإزالة عند أحد الأبنية القديمة، وقف هذا البناء قبالة البنائين الحكوميين مترنحاً بعد أن تمت إزالة الطوابق العليا منه، ليتبقى منه الطابق الأرضي والطابق الأول فقط، علماً بأنه لو أزيل هذا البناء لتحولت المنطقة إلى ساحة مكشوفة تماماً جاهزة لإنشاء مخطط عمراني مثير تمّ وضع مجسم عنه ضمن

صندوق زجاجي في بهو مديرية الاستملاكات العامة، تزامن توقف العمل في المشروع مع وصول عبد الله المأمون إلى المنصب المهم والحساس في المدينة، منصب مدير عام مديرية الاستملاكات العامة.

لم يعلن أحد عن الأسباب الحقيقية لتوقف هذا المشروع الحيوي، ولا سبب ترك طابقين من البناء الأخير على قيد الحياة، خلفت عملية الإزالة تلك ساحة واسعة شكّلت ما بات يعرف باسم "**سوق البسطة**"، السوق الأهم في المدينة رغم أنه لم يكن أكثر من مجموعة كبيرة من البسطات تزاحمت فيما بينها حتى ضاقت الساحة بها، وبالمارين بينها، السوق الأهم على صعيد الفقر إذا ما أردنا أن نعطي للفقر أهمية.

أما بالنسبة إلى البناء القديم أو ما تبقى منه فلم يستغرق عودة الناس لإشغاله وقتاً طويلاً بعد توقف عمليات الهدم، وإن كان جميع من جاء ليستفيد من المكان هو غير من كان يشغله قبل أشهر قليلة، لا أحد يعرف الكيفية التي دخل بها هؤلاء المستثمرون إلى المكان، من سمح لهم؟! من يتقاضى منهم بدل الاستثمار؟! تضيع الأجوبة عن هذين السؤالين في متاهة غامضة متناقضة من الآراء لكن ليس من الصعب الإدراك أن هؤلاء المستثمرين هم بعض ضحايا توقف مشروع مركز المدينة وإن كان ظاهر الحال يوحي بعكس ذلك.

الطابق الأرضي من البناء القديم حوى سوقاً مغلقة عدا طرفين مفتوحين على الساحة "**عبّارة**"، يتألف هذا الطابق من عشرين دكاناً متقابلة، قلة منها مارست نوعية الأعمال نفسها التي كانت جارية فيها قبل قرار الاستملاك مع تخفيض في السوية، على سبيل المثال

استبدلت مهنة بيع الألبسة الفاخرة لأحد الدكاكين بمهنة بيع الألبسة المستعملة، بعض الدكاكين افتتحت أعمالها بمهن جديدة لم تكن موجودة في المكان مثل مطعم أبو الخير الذي يبدو وصف "الشعبي" فضفاضاً عليه.

عرض السوق المغلقة "العبّارة" كان مقبولاً، أرضها مرصوفة ببلاط فرنسي جميل، لكنها تضيق وتتسع بحسب هجوم أصحاب الدكاكين بمعروضاتهم أمام محلاتهم، عندما يستفحل الهجوم يضيق الطريق على المارة فيتحاشون المرور من سوق العبّارة، مما يضر بمصالح المستثمرين الذين يتراجعون مباشرة عن هجومهم متبادلين الاتهامات والصيحات دون أن يتجاوز الأمر هذا الحد.

الطابق الأول من البناء القديم تحول إلى فندق لا نجوم له، اتخذ لنفسه اسم فندق الرحاب، قُسّم الفندق إلى فندقين: الرحاب "العام" والرحاب "الخاص"، وصف عام وخاص لم يكن معلناً، يتداول بين أهل السوق مشافهة: الفندق العمومي والفندق الخصوصي، هذا الطابق كان بأكمله شركة تجارية مرموقة عابرة للحدود ولها سمعتها الحسنة، الشركة التي كان يمتلكها المرحوم ماجد الصارم، جد السيد هيثم الصارم الذي وقعت كارثة الاستملاك عليه، السيد هيثم الصارم ورث عن المرحوم أبيه شركة جده والبناء بأكمله، صحيح أن الأجور التي كان يتقاضاها من المستأجرين لبقية مرافق البناء زهيدة والقانون السائد في المدينة آنذاك يمنعه من إخلائهم إلا بالتراضي أي بعد دفع ما يعادل قيمة الدكان للمستأجر هذا إن وافق الأخير على الإخلاء، لكنه في النهاية كان سعيداً بملكه وشركته التي كانت تزاول أعمالها بازدهار قبل الاستملاك.

على يسار مبنى قسم شرطة مركز المدينة، في الفراغ الحاصل بين هذا البناء وبين الشارع العام، تمّ استغلال مساحة لا بأس بها لتصبح مرأباً لركن السيارات تمّ تقسيمه إلى قسمين: الأول (المجاور تماماً لبناء قسم الشرطة) مخصص للسيارات الرسمية الخاصة بالقسم وبمديرية الاستملاكات العامة، القسم الثاني (المجاور للشارع العام) أصبح موقفاً مأجوراً للعموم يكاد يكون حلماً الحصول على مكان لركن السيارة فيه أثناء أوقات الدوام الرسمي، في حين يصبح مبيت السيارات فيه شبه مجاني ليلاً لندرتها.

حول الأبنية الثلاثة المذكورة، لم يتبقَّ سوى تلك الساحة الواسعة "سوق البسطة" التي تكتظ نهاراً بكل شيء يمكن أن يُباع، وقد يكون وصف كل شيء غير كافٍ ليعبر عما تحويه وتقدمه هذه البسطات: أطعمة متنوعة، معلّبات، خضار وفواكه، أجبان وألبان ومربيات، لحوم وأسماك، عربات سندويش وحلويات، تبوغ وسجائر مهربة، بخور وعطور مصنعة محلياً بعضها وضع في علب لا بأس بأناقتها، ملابس مستعملة وجديدة، أدوات كهربائية ومنزلية ومفروشات، ألعاب ومعدات إلكترونية، أنقاض منازل وفنادق ومطاعم ومكاتب، مواد زراعية وحيوانات حية، أجهزة تحولت بفعل الزمن والإصلاحات المتكررة، حتى بات صانعها نفسه لا يمكنه التعرف إليها، مسروقات وممنوعات، الغريب في الأمر أنك تجد حول كل بساط مفروش على الأرض من يتفرج أو يساوم على الشراء مهما كانت المواد المعروضة بالية أو غريبة، فلا تستغرب أن تجد من يساوم على شراء علبة شريط كاسيت فارغة وشبه محطمة في زمن الأقراص الليزرية!

يرتاد السوق بشر من كل الأصناف؛ نساء ورجال، كبار وصغار، باعة ومشترون وحمالون، حلاقون وضعوا معداتهم البسيطة على طاولة صغيرة قرب كرسي واطئ، مصلحو أحذية، "أطباء" يعالجون كل الأمراض، يدّعون العلاج بالأعشاب والحيوانات المجففة من سحالٍ وجراد ودم أفاعٍ متخثر، خياطون يصلحون الألبسة ويرتون المهترئ منها، متسولون ومتسكعون، نصابون، قوّادون وعاهرات من أدنى الطبقات يتنقلن شبه متخفيات ليس فيهن من سمات العهر سوى فقرهن المدقع.. كل تلك الأوصاف غيض من فيض لآلاف البشر المتزاحمين على أرضه.

تتغير خارطة الخيم والغرف القماشية وبسطات المبيع النهارية بشكل دائم تبعاً لظروف أصحابها والأماكن الشاغرة، لكن عموماً هناك كثير من الغموض يكتنف علاقات السوق وخارطة الشواغر فيها، إذ لم يستطع أحد على الإطلاق تحديد الماهية الدقيقة لتوزيع هذه الخارطة، وإن كان هناك بعض الثوابت التي تنظم أعمال السوق ويتمّ الحديث عنها همساً.

لم تكن الفوضى العارمة التي تظهر بها السوق سوى مظهر خادع، فالقوانين الصارمة كانت موجودة، ربما أكثر من أي مكان آخر في المدينة، قوانين كانت مكتوبة في عقول ونفوس أهلها وروادها.

تقفر السوق ليلاً على بضعة خيام وغرف قماشية يقطنها السكان الدائمون للسوق، تمكن بعضهم من استجرار الكهرباء بطرق غير مشروعة ليكسر عتمة مأواه وحياته ببصيص ضوء خافت.

الليل يكشف أن السوق عالم تغلبه الذكورة، باستثناء ما يحدث في فندق الرحاب الخاص وبعض العجائز المتسولات والمتشـــردات في زواياه، قلما نجد امرأة تغامر بعبوره منفردة.

في السوق غالباً لا أحد يختار اسمه، عمله أو موقعه، مـــرّ علـــى المكان عبر عشر سنوات مئات الألوف من البشر، الرحيل كان السمة الدائمة لكل هؤلاء.

طال الزمن أم قصر، كانت الوجوه والأسماء تتبدل، رغم أن من يجد مكاناً فيها يعتقد أنه سيعيش الأبدية على أسفلت ساحتها المشبع بالحفر المليئة بوحل الحياة نفسها.

أفضل ما في علاقات السوق أن التاريخ لم يكن شيئاً ذا أهميـــة على الإطلاق، فلا أحد يهتم أو يسأل الآخر لماذا وكيف انتهت بـــه دروب الحياة إلى سوق البسطة، أما المستقبل فهو فكرة غامضـــة لا تعني شيئاً، كل ما يهم هو اللحظة في زمن العبور هذا.

أحد الذين مروا على هذه السوق وطرد منها كما يطرد كلـــب ضارٍ، قال صائحاً في وجه من طردوه من أبناء السوق زملاء الأمـــس القريب في حين دمه المنساب قد أخفى معظم معالم وجهه واخـــتلط بدمعه ومخاطه:

– هادا السوق متل المرا العاطلة وأنتوا كلكن ولادها...

الغريب في الأمر أن هذه المعادلة لم ترحم أحداً، عندما بـــدأت الأحداث تجري في السوق، المساعد أول أبا غسان "الملـــك" نفســـه تعرض لهذا الإذلال وخرج من السوق مكبل اليدين نازف الوجه!

2... أبو داغر، سجية وزيرو

تحرك أبو داغر بضع خطوات يمنة ويسرة ليجـــدد النشـــاط في جسده، نظر إلى ساعة هاتفه الجوال البالي.. قاربت الثالثة صـــباحاً، البرد هذه الليلة قارس والهواء جاف كالعادة، إنه شتاء المدينة الـــذي نادراً ما يحمل المطر، جلس على صندوق خشبـــي قرب النار المشتعلة في تنكة الحطب، قرّبها إلى ساقيه بالكاد تدفئ ما واجهها من أطرافـــه ووجهه.

نظر باتجاه الشرطي الذي يحرس باب قسم شرطة مركز المدينة، حسده على الغرفة الزجاجية التي يجلس في داخلها، النور المنبعث من سخان الكهرباء كان كافياً ليتبين أبو داغر مـــن موقعـــه أن ذلـــك الشرطي يغط في نوم عميق وهو يحتضن بندقيته.

في مواقع أخرى من السوق انتشرت تنكات تشتعل فيهـــا نـــار أوقدت بمخلفات النهار من ورق، مزق كرتونية، حطام أخشـــاب، أكياس نايلون بالية، بقايا صناديق بلاستيكية، كل ما يمكن أن يشتعل ليدرأ برداً نخر عظاماً أذلها الجوع قبل البرد، حول تلـــك التنكـــات المتفرقة تجمّع أعداد قليلة ممن بات السوق مرتع حياتهم ليل نهار، حتى إن المكان لم يخلُ من بعض الأطفال الذين غيبت القذارة وجـــوههم ولون بشرتهم.

فكّر أبو داغر بالتوجه للجلوس مع أحد هذه التجمعات، هو يعرف معظم هؤلاء المتشردين، عدل عن الفكرة، الوقت لم يفت بعد على زبون عابر قد يستطيع أن يقدم له خدماته.

استدار بجذعه إلى الخلف حيث تنتصب خيمته، مدّ يده ورفع قليلاً شادر النايلون الأزرق الباهت الذي يشكل باباً للخيمة المبنية على شكل غرفة مربعة، هيكل الغرفة عبارة عن قضبان حديدية كانت فيما مضى سوراً لإحدى الحدائق وأجزاء من حواجز طرقية قام أبو داغر بجمعها، كسا الرجل الهيكل بقطع نايلون متصلة ببقايا لافتات قماشية كانت قبل عدة شهور معلقة في سماء المدينة تعلن عن أسماء المرشحين للمجلس البلدي ومشاريعهم المستقبلية للإدارة، قماش اللافتات تصبّغ بمزيج من الألوان بعد أن تحللت أسماء المرشحين ومشاريعهم بفعل الأمطار، صحيح أن بعض هؤلاء المرشحين قد تمكن من الوصول إلى كرسي في ذلك المجلس الهام، لكن ذلك لم يمنع من أن تتحول اللافتة التي تحمل اسمه إلى جدار كالح لا يقي من برد ولا من حر، المهم أن قطع النايلون وبقايا تلك اللافتات بالأسماء والمشاريع التي تحملها كانت تؤمن حجباً يكفي لمنع أي فضولي من رؤية ما بداخل الخيمة.

غرفة أبي داغر تتوسط غرفتين أخريين: على يساره في الجهة الأقرب إلى قسم الشرطة تقبع خيمة أبي الوفا المشادة بالطريقة الفوضوية نفسها والتي يصور فيها مستندات ويبيع طوابع للمواطنين الذي لديهم معاملات في قسم الشرطة أو في مديرية الاستملاكات العامة، أما على يمين الغرفة فقد قبعت غرفة غازي التي يُباع فيها أرخص وأقوى ما يمكن للجسد البشري أن يتحمله من المشروبات

الكحولية، الغرف الثلاث كانت تتكئ على الجدار الخارجي لبقايا البناء القديم.

بدت الغرف القماشية الثلاث كالحصن في تموضعها، دعّم من قوتها العلاقة الطيبة التي تجمع أصحابها الثلاثة، خاصة وأن هذه الغرف الثلاث تكاد أن تكون أحد ثوابت سوق البسطة.

رفع أبو داغر بيده شادر النايلون الأزرق، لمح وجه زيرو على ضوء جواله الذي وصله إلى أذنيه بواسطة السماعات وتركه بجواره على الوسادة يبث أغاني الشجن واللوعة.

زيرو كان مستلقياً على ظهره ويغط بالنوم، على الطرف المقابل كانت سجية زوجة أبي داغر قد دفنت نفسها تحت أغطية سميكة فاحت منها كل الروائح البشرية وغير البشرية.

زيرو وسجية سلعة عمل أبي داغر الليلية فيما كان بيع الأقراص المدمجة المسجل عليها الأفلام الإباحية هي سلعته النهارية، يضع الأقراص بين صندوق خشبي موضوع على الأرض ارتفاعه قرابة المتر وبين صندوق كرتوني قص معظمه ليصبح مفتوحاً من الأعلى، قام الرجل بصف علب السجائر المهربة بداخله، فتح بعض العلب الرخيصة منها ليبيع السجائر بالمفرد، علب السجائر المهربة يزوده بها المساعد أول أبو غسان من المصادرات التي يحصل عليها في دورياته ويتقاضى منه ثمنها أولاً بأول، نهار أبي داغر وليله لا يخلوان من بيع بعض السجائر الملغومة بحشيشة الكيف، يبيعها بعد أن يحشوها بنفسه لتكون جاهزة لإطلاق من يدخنها إلى عالم غير عالم المدينة هذا.

كل ما في أبي داغر يوحي بالشر، سمار بشرته الذي يشتد حول عينيه حتى يكاد أن يصل إلى السواد المائل إلى الأزرق، شفتاه

الغليظتان غير المكتملتين اللتان تحتاجان إلى جهد إرادي لتغلق على أسنانه الصفراء، نظراته الحادة، شعر ذقنه الأشعث، يداه الكبيرتان، أظافره الطويلة المتسخ تحتها دوماً، صوته الأجش الذي أورثه إياه التدخين المستمر لأردأ أنواع التبوغ التي لا تخلو بين لفافة تبغ وأخرى من حشيشة الكيف من أنواع رخيصة أقل شأناً من تلك التي يبيعها لزبائنه، أكثر ما يرعب فيه رغبة حاضرة لافتعال المشاكل لم تكن لتخفى على أحد، هو على استعداد دائم للذهاب بمشاجراته أبعد ما يكون.

الأعوام الأربعون التي عاشها الرجل حتى الآن لم تخلُ من بضع سنوات سجن قضاها متفرقة.

ولد أبو داغر في أسرة لا يذكر تعداد أبنائها أو على الأقل لا يذكر عدد القاطنين في منزلهم من إخوة وأبناء عم وأقرباء، هذا لا يعني أن منزل الأسرة كان كبيراً، ثلاث غرف متداخلة مبنية من أحجار إسمنتية رقيقة، الحمام والمطبخ ودورة المياه شكّلت الغرفة الرابعة، أرض المنزل صُبّت من الإسمنت، سماكة السقف لا تتجاوز بضعة سنتيمترات يبث قيظ الشمس صيفاً ويدلف ماء المطر شتاءً، ستائر بالية تفصل الغرف بعضها عن بعض، لا يغير شيئاً إسدالها أو رفعها، يمكن للمرء أن يطلق خياله ليشكل صورة عن العفن، الرطوبة، القذارة والروائح، "المنزل" هذا كان يقع في أحد تجمعات السكن العشوائي حول المدينة.

يفيض المنزل بسكانه فيطلقون أكبر أولادهم سناً لتدبر أمورهم في الحياة من جهة ولتخفيف الازدحام من جهة أخرى، الأكبر سناً قد لا يتجاوز العشر سنوات، عرف ناجي (أبو داغر لاحقاً) التسول،

السرقة، النشل، لم تخل طفولته من لحظات وجد فيها نفسه تحت رجل ما، ناجي يحاول الهرب فيما الرجل يحتضنه من الخلف لاهثاً ولسانه يلعق نقرة وأذن ذاك الطفل على قذارتهما.

عملت والدة ناجي في تنظيف المنازل، تقضي أسبوعها متنقلة من بيت إلى بيت وفق برنامج رتبته مع شقيقة زوجها، تتناوب المرأتان في تغطية مهام لا تنتهي من تنظيف وإعداد طعام، المرأتان كانتا تتقاسمان الأجر والأعطيات التي يمنحها أصحاب المنازل لهما من ملابس قديمة وطعام زائد وأوانٍ لا حاجة لها، أشياء كثيرة تتقاسمانها بالعدل قدر الإمكان، أحياناً تتقاسمان جنساً سريعاً يطلبه صاحب المنزل خلسة عن زوجته ولا يبخل بالدفع، ما كان هذا الجنس السريع من وجهة نظرهما يدرج تحت مسمى المتعة أو الرذيلة، مهمة أخرى من مهام المنزل لا فرق كبير بينها وبين حوض مليء بأوانٍ متسخة تحتاج إلى تنظيف!

يحصل والد ناجي على العمل بشكل متقطع، ورشة بناء، حارس ليلي في موقع قيد الإنشاء، تنظيف بعض الحدائق وتعشيبها، لم يكن دخله يعادل ربع دخل زوجته في أحسن الأحوال، المهم لا شيء يختلف عليه الزوجان، ولدا في الشقاء واقتنعا به طريقاً للحياة.

ناجي منذ يفاعته كان شرساً لا يهادن، يدخل شجاراً بخفة قط، يضرب بقوة غير متوقعة من شاب بحجمه، أطلق عليه والده اسم "أبو داغر"(*)، أخذ يتباهى به، يمتدح براعته في استخدام السكين، بات الشاب الأقرب إلى قلب والده، خاصة عندما يحمل له بطحة عرق استولى عليها من هنا أو هناك.

(*) داغر: مهاجم.

انقلب حب الأب لابنه وأولاده جميعاً إلى بغض شديد عندما وشت له شقيقته بزوجته إذ ادعت أنها اكتشفت مؤخراً أفعال الزوجة المشينة مع أصحاب المنازل وأنها تخبره لتبرئة ذمتها.

اختفت والدة ناجي بعد ضرب مبرح تلقته المرأة من زوجها مشفوعاً بأقذع العبارات، عائلة الزوجة (وهي على صلة قربى بعائلة والد ناجي) وقفت متفرجة، لم تتدخل لوقف ما يحدث، الجوار هم من سحبوا المرأة من بين يديه وحالوا دون أن يجهز عليها تماماً، هربت المرأة بثيابها الممزقة ودماء سخية أخذت تنزف من أماكن عدة في وجهها وجسدها.

كل محاولات العمة اللاحقة لإصلاح ما فعلته وشايتها لم تجد نفعاً، نهشها الندم لم تكن الخلافات المتراكمة بين المرأتين تستحق هذه الوشاية، إن هي إلا خلافات على بضعة أشياء من الأعطيات استأثرت بها والدة ناجي لنفسها رغماً عن العمة، حتى الخلاف الأخير حول معطف فراء شبه مهترئ لم يكن يستحق هذه الوشاية، ما عذب ضمير العمة أكثر أن والدة ناجي لم ترد الكيد لها، صمتت عن شراكتهما في الرذيلة المفترضة رغم أن العمة كانت قد جهزت الرد فيما لو باحت والدة ناجي بالأسرار، كل ما ستطلقه المرأة من اتهامات ضد العمة ما هو إلا من باب الكيدية الكاذبة التي لا تؤخذ بعين الاعتبار في موقف كهذا.

اختفت المرأة، لم يعد لها ذكر، على الأقل ناجي لم يعد يعرف عنها شيئاً، بعد أيام عدة من اختفاء أمه بدأ رفاقه وأبناء الجوار يتهامسون باسمه الجديد "أبو داغر ابن العاطلة"، أدرك أن الأمر لن يطول حتى يتحول الهمس إلى صراخ ونكات لاذعة، كما أنه علم

تماماً أن هذا الاسم سيلازمه طيلة حياته إن هو بقي في الجوار، هرب من تجمع المسكن العشوائي الذي كان يكرهه أصلاً، انقطع عن أسرته وذاك العالم برمته.

انطلق أبو داغر يهيم في مدينة مترامية الأطراف فيها من التجمعات العشوائية أضعاف ما تحوي من التجمعات السكنية النظامية، لم يكن من الصعب عليه إيجاد المأوى ولا حتى جمع المال طالما أن القليل الذي كان يردعه عن ارتكاب الفواحش ما عاد موجوداً.

عندما حط رحاله في سوق البسطة أدرك أن في المساحة الواقعة بين قسم شرطة لا محدود الصلاحيات وآخر بسطة على أطراف السوق يقع العالم الأقسى، الأكثر توحشاً.

بعد أول عراك خاضه أبو داغر مع ثلاثة شبان اجتمعوا عليه، وقف أمام المساعد أول أبي غسان "الملك" دامي الوجه لاهثاً ينظر بتحدٍّ وجرأة بلغت حدّ الوقاحة:

- ما شبعت حبوس؟!.. قال أبو غسان فيما يتصفح السجل العدلي لأبي داغر على شاشة الحاسب الموضوعة أمامه على المكتب.

أدرك أبو غسان بنظره الثاقب أن من يقف أمامه رجل من الخسارة كسر شوكته بسنين أخرى يقضيها في السجن، أجبر الشبان الثلاثة على أن يتنازلوا عن شكواهم إذ كانوا هم الأكثر تضرراً من الشجار لدرجة أن اثنين منهم سيخرجان من المشفى بندوب دائمة، دهش أبو غسان بانتصار أبي داغر رغم أن سكينه فقط هي من آزرته في معركته، أُعجب بهذا الرجل مربوع القامة شبه ضعيف

البنية، من يدخل في شجار مع ثلاثة شبان مواجهةً ويخرج منتصراً بالتأكيد يمتلك عزيمة شرّ أكثر فعلاً من العضلات المفتولة، يمكن الاستفادة منها خارج السجن أكثر بكثير من وجودها داخله.

أتقن أبو غسان كيف يطوع أبا داغر لمصلحته، بات الأخير مهيأً لتنفيذ مهمات خاصة من النوع الذي لا يمكن لعناصر الشرطة أن ينفذوها، على الأقل طالما هم يرتدون الزي الرسمي، على سبيل المثال افتعال شجار يورط أحد الأشخاص ليقع تحت قبضة قسم الشرطة، الأهم من ذلك تحضيره لمهمات أكثر سرية وخطورة قد تمس أمن المدينة بأكملها.

بالمقابل حصل أبو داغر على غض الطرف من قبل قسم شرطة مركز المدينة: خيمة ثابتة في السوق، دعارة فقر، بيع أفلام إباحية، دخان مهرب، بيع وتعاطي سجائر حشيشة الكيف.

تجارة أبي داغر كلها لم تكن تبقي له في نهاية الشهر سوى عدة ألوف من الليرات علمه أبو غسان كيف يحتفظ بها في حساب مصرفي متواضع.

ربما كان هذا الحساب المصرفي على تواضعه نشوة حياة أبي داغر وفرحة عمره، يجمع المال بين طيات ثيابه يوماً إثر يوم منتظراً أول كل شهر، يحلق لحيته وشعره، يستحم ويتطيب بعطور مركبة على بسطات السوق، يرتدي اللباس الوحيد الذي يدخره لهذه المناسبة وهو عبارة عن بنطال جينز ضيق تعلوه كنزة قطنية سكرية اللون مشدودة على جذعه، حذاء أسود مقدمته متطاولة أكثر من اللزوم. شتاءً يضع سترة قطنية سوداء اللون فوق لباسه هذا، أحياناً يرتدي هذه السترة في أيام الحر الشديد ليخفي بقع العرق التي يعرف بأنها

سرعان ما ستظهر على الكنزة تحت إبطيه، يقوم بكل ذلك قبل أن تبدأ الحركة في السوق، يتوجه في تمام الساعة التاسعة صباحاً سيراً على الأقدام إلى أحد المصارف القريبة التي أودع مدخراته فيها، يقتطع بطاقة دور، يجلس منتظراً، هو يعلم أن قدومه في بداية الشهر سيجعله ينتظر وقتاً أطول فيما لو حضر بعد أسبوع مثلاً، انتظاره أطول مدة ممكنة كان غاية مراده، لم يكن يعبأ بالزبائن المنتظرين مثله رغم أنه يوجد بينهم بعض الفتيات الجميلات أحياناً، ما كان يثير اهتمامه الموظفات العاملات خلف المكاتب وخلف الواجهات الزجاجية لصناديق التداول المالي، يراقبهن في لباسهن الموحد، يسعد لحركاتهن بين الزبائن والمكاتب، يدعو في سره أن يذاع رقمه إلى صندوق تديره إحدى تلك الفتيات، يقدم المال لها منتظراً إنهاء عملية إدخاله إلى الحساب متأملاً نضارة بشرتها، حركة يديها، الأصابع النظيفة ذات الأظافر المقلمة المطلية بألوان زاهية، تسعده ابتسامتها وعبارات المجاملة على قلّتها، في كل مرة يسأل عن رصيده رغم أنه يعرفه بدقة ليكسب مزيداً من الوقت أمام الصندوق أو بالأحرى أمام الفتاة التي تديره، فكّر عدة مرات أن يتوجه إلى المصرف مرتين في الشهر بدل المرة الواحدة لكن صغر المبلغ الشهري يجعله خجلاً أمام فتيات الصندوق فكيف إذا قسمه إلى نصفين وهو يرى بأم عينه أكياساً مليئة برزم نقدية ينوء حاملها بها تدخل إلى المصرف متوجهة إلى الصندوق مباشرة دون انتظار، الزيارة الشهرية إلى المصرف هي الفعالية الوحيدة التي تذكره باسمه بعد أن تتسلم فتاة الصندوق منه طلب الإيداع:

- سيد ناجي؟... مشفوعة بابتسامة عذبة، يكرر في سره الكلمة مرات عديدة "سيد ناجي".

عدد المرات التي ألصقت صفة السيد باسمه هي عدد المرات التي توجه فيها إلى المصرف، لا أكثر ولا أقل، الزيارة الشهرية للمصرف هي سر حياة أبي داغر، لا يعرف عنه أحد إلا أبو غسان بدون أدنى معرفة بتلك التفاصيل، علماً أنه لو قضى يوماً في شجار من الشجارات أو لسبب آخر فإن حسابه المصرفي سيدفن معه، لن يستفيد منه أحد، أساساً ليس لديه أحد يهمه أن يؤول الحساب إليه.

يعود أبو داغر من المصرف إلى السوق، يطلب من زيرو الذي يجلس أمام الصندوق الخشبي ليبيع الدخان المهرب أو الأقراص الليزرية بأفلامها الإباحية أن لا يسمح لأحد أن يوقظه، يدخل خيمته، يسدل شادر النايلون الأزرق، يعود لارتداء ثيابه المعتادة، يلقي نفسه على الفراش، يستمني مرة أو أكثر متخيلاً أن أصابع فتاة الصندوق في المصرف هي من تقوم بالعملية، يغرق في كآبة شديدة، يشعل سيجارة حشيش يعب منها إلى أعماق رئتيه، ينام حتى غياب الشمس، يخرج من الخيمة متمطياً وقد استعاد مزاجه وهيئته المعتادة.

تزوج أبو داغر من سجية قبل بضع سنوات، لا يدري سبباً لزواجه منها، راقبها عندما بدأت تتردد على السوق تهيم فيه متسولة وقد كست نفسها بالسواد، تنطوي على نفسها ليلاً في إحدى الزوايا لتنام، شك بأنها أحد رجال أبي غسان متخفياً في لباس امرأة، لمح وجهها ذات مرة عندما رفعت الغلالة السوداء عن وجهها لتأكل بعد أن أظلم السوق، اقترب منها، فزعت لقدومه، تراجع عنها تاركاً إياها لشأنها، ندمت في سرها على رد الفعل المتسرع هذا.

باتت سجية تراقب أبا داغر عبر غلالتها السوداء نهاراً ومن زاويتها المظلمة ليلاً، لم يفت الرجل أن المرأة قد وضعته تحت ناظريها،

الغلالة السوداء لا يمكن لها أن تحجب إحساس أبـــي داغر بأن المرأة تراقبه، هبطت ليلة صقيع زاد من برودتها ريح تنخر العظام، شاهد أبو داغر سجية تحشر ورق الجرائد تحت ثيابها، كثير من المتشردين يتقون البرد بهذه الطريقة، زاد من اشتعال نار تنكة الحطب ببضـــع قطـــع خشب سميكة وسحبها إلى قربها، ابتعد عنها عائداً إلى خيمته دون أن ينبس بحرف واحد، أسدل الشادر عليه واندس في الفـــراش تحـــت الأغطية.

- فيني نام هون؟.. رح موت من بردي.. سمع صوت سجية يرتجف بعد أن أصبحت داخل الخيمة فعلاً.

غادر أبو داغر خيمته إلى خيمة غازي تاركاً لها الفراش.

سجية التي تجاوزت الأربعين من عمرها لم تكن جميلة لكنها لم تكن قبيحة كذلك، حنطية البشرة، عيناها صغيرتان والمسافة ما بينهما ضيقة، أنفها وفمها صغيران، بضعة أسنان ملبسة بالذهب تجاور بقية الأسنان المصفرة بفعل التدخين، مربوعة القامة، ليس فيها معالم بارزة، ممتلئة من الأعلى إلى الأسفل دون سُمنة مفرطة كأن لحم جســـدها مسكوب في أسطوانة، تسولت مذ كانت رضيعة، اعتاد والـــدها أن ينشر زوجته وأولاده في أحد شوارع المدينة ليتسولوا تحت ناظريـــه ليس من حرص عليهم إنما ليمنعهم من اقتطاع أي مبلغ مما يحصـــلون عليه، اعتادت والدتها أن تضع آخر مواليدها في حضنها مكررة بضع كلمات تدّعي فيها يُتم أولادها وجوعهم ومرضهم، هكـــذا بـــدأت سجية تسولها منذ أسابيعها الأولى في الحياة وما زالـــت مســـتمرة في "مهنتها"، دخلت السجن مرات عديدة بتهمة التسول والتشرد وهي جنحة لا يتعدى الحكم فيها أكثر من بضعة أشهر، أحياناً كان يُطلق

سراحها بعد بضعة أسابيع ودون محاكمة بسبب اكتظاظ السجن بأعداد وفيرة من الموقوفين.

عهدها الأول بممارسة الجنس يرجع إلى الثانية عشرة من عمرها أو أكثر بقليل عندما أجبرها آمر السجن في إحدى مرات توقيفها على منحه متعته من خلال الجنس الفموي، تكررت الحادثة مرات عدة في كل مرة أوقفت فيها، مع آمر السجن أو غيره من القائمين على العمل هناك.

زوّجها والدها في الخامسة عشرة، أحسن الزوج معاملتها في الأشهر القليلة التي قضتها معه قبل أن يرتحل إلى ديار الحق، ولِمَ لا يفعل وهو الذي يكبرها بأكثر من أربعين عاماً.

عادت سجية إلى دار والدها خالية الوفاض فالمتوفى ما كان بحال يسمح له أن يورّث لأحد شيئاً، سجية مجرد رقم بين أفراد أسرته الكبيرة، عادت لعملها الأساسي "التسول"، دخلت السجن لكن هذه المرة كامرأة ناضجة، تداولها آمر السجن وغيره في أسرّتهم خلال ليالي مناوباتهم.

قامت شرطة المدينة بحملة جادة وحازمة على المتسولين في المناطق الراقية من المدينة، خرجت سجية من السجن هذه المرة ومقصدها سوق البسطة بعد أن سمعت عنه في سجنها بأنه مكان لا تحكمه قوانين المدينة أو قوانين المناطق الراقية فيها على الأقل، وبالفعل وجدت من أمثالها الكثير لا أحد يعبأ بهم، مشكلة التسول في هكذا سوق أن دخله متدنٍ قياساً إلى بقية مناطق المدينة، من يبيع ويشتري هنا ليس أكثر من متسول تحت مسميات وظيفية أخرى، سجية كغيرها ممن وُجد على أرض السوق كانت من المسيّرين ضمن قطيع المدينة.

- كل يوم بدك تروح تنام عند غازي؟!.... قالت سجية لأبي داغر.
- بتخليني نام هون؟.. رد أبو داغر مشيراً إلى الطرف الآخر من الخيمة.
- كتوب كتابك عليّ ونام وين ما بدك.. ردت سجية وصوتها يرتجف من الرجاء.

وهذا ما كان.

سجية امرأة بليدة، كسولة في كل شيء؛ المشاعر، الكلام، العمل، نظافتها الشخصية، لباسها الرث الذي لا يتعدى بنطالاً فضفاضاً يصل إلى ما تحت ركبتيها بقليل حال لونه الأبيض إلى الأصفر فوقه عباءة مخملية خمرية اللون تكسو كل جسدها وبطبيعة الحال تضع فوقهم رداءها الأسود الذي يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها، التسول منذ الصغر وتبعاته من سجن وغيره جعل منها امرأة قاحلة لا تحمل بين جوانحها أي اهتمام، زاد من لامبالاتها إدراكها أن حياتها الجديدة مع أبي داغر في خيمته ستجعل منها زوجة لا يطلب منها القيام بشيء، عادة ما يكون طعامهما البطاطا المقلية، ولع أبو داغر بها لا حدود له، يضعها ساخنة على رغيف خبز ويكثر من رش الملح، يتناول هذه الوجبة ببضعة لقم كبيرة وينتهي الأمر، أحياناً يحصل الرجل على أرخص أحشاء الذبائح بسعر بخس، تقوم سجية بقليها على النار دون الحاجة إلى وضعها في زيت القلي المكلف، دهون تلك الأحشاء كانت كافية لتكون مقلى دسم لهذه الوجبة.

عدد المرات التي بات فيها أبو داغر في فراش زوجته سجية لم يتعد العشر مرات اكتشف خلالها أن يده وخيالاته عن فتيات

المصرف أكثر متعة، فقد اهتمامه بها بعد شهرين من الزواج:

- ليش لتطلقها؟!.. انتفع منها... قال له كسار حارس فندق الرحاب الخاص.

فهم أبو داغر ما يقصده كسار بالمنفعة، لم يكن من الصعب إقناع سجية بالأمر لولا خوفها من دخول السجن بتهمة البغاء.

- فوتة الحبس لا تخافي منها.. ما رح تصير... عندي وعلى مسؤوليتي... قال أبو داغر.

بالطبع لم يعرض أبو داغر على زوجته هذا العمل قبل أن يستشير المساعد أول أبا غسان:

- كم شغلة عاطلة عم تساويها بدك ياني غض نظر عنها؟... سأله أبو غسان.

لم يكن غض النظر من طرف الأخير على أفعال أبي داغر سوى مزيد من الشباك التي نصبها حوله حتى بات الرجل بكل الشر المخزون في داخله عجينة طيعة في يده.

زيرو بدأ عمله في السوق في السادسة من عمره، ارتأى والده أن مقارعة الحياة في سوق البسطة أكثر نفعاً من تعليمه، يصطحب الرجل ابنه إلى السوق في كل صباح فيما هو ذاهب إلى عمله الوظيفي، يتركه هناك وهو يحمل كيساً قماشياً كان فيما مضى كيس طحين قبل أن يضعه الأب في يد زيرو، مهمة الطفل تقتضي التجول في السوق، مراقبة من يحمل مشتريات، من ينقل بضائع، من يفرغها على بسطات أرض السوق، يقتنص أي شيء يسقط بعيداً عن عين صاحبه، يلتقطه بخفة ليضعه في كيسه قبل أن تصل إليه الأيادي الأخرى التي تمارس نفس عمله، الشجار حول حبة

بندورة سقطت من سيارة تنقل البضائع وتهتز بسبب حفر أرض السوق كان وارد الحدوث في كل لحظة، عمل زيرو يمارسه نساء ورجال وأطفال آخرون، قد يصل الشجار إلى تبادل الضرب، أسوأ ما تؤول إليه الأمور هو تعرض حبة البندورة تلك للتلف بين الأيدي المتنازعة.

كيس زيرو في نهاية النهار حينما يأتي والده عائداً من عمله ليصحبه إلى المنزل كان يحوي العجائب، يقلبه الأب على أرض الغرفة التي يعيشون فيها متفحصاً ما جمعه ابنه ليفرز الصالح منه عمّا يعتبر زبالة لا تستحق أن تحتفظ بها حتى أسرة فقيرة كأسرة زيرو.

فردة حذاء نسائي كعبه مفقود، حبة كوسا بحال جيدة، بضع علب معدنية فارغة لمشروبات غازية تجمع جانباً ليتم بيعها لاحقاً، حبة بندورة كانت بحال جيدة قبل أن يضعها زيرو في أسفل الكيس ويضع فوقها ما سبب تلفها، يتلقى على إثرها صفعة عقوبة على هذا الإهمال، صنبور ماء مستعمل، تفاحة نصفها تالف بسبب رداءة النوعية تقطع إلى نصفين، الجزء التالف يوضع في مرطبان تتخمر بداخله فواكه متنوعة تالفة لتصبح خلاً في وقت لاحق فيما النصف السليم من التفاحة يقسم بين اثنين من الأبناء يتناولانه حسب الدور، ريموت كنترول مكسور لجهاز تلفاز يوضع مع قطع بلاستيكية جمعت سابقاً لتباع لاحقاً بالكيلو، بضع قرون من الفاصولياء بحالة ممتازة، لا تنتهي محتويات الكيس، أحياناً قد يحمل مفاجآت غير متوقعة مثل رغيف خبز أفرنجي طازج أو برتقالتين ريانتين.

قلما استأثر زيرو لنفسه بشيء قبل أن يأتي والده ليصحبه، عندما يدركه جوع شديد كان يأكل أقل ما في كيسه جودة.

إذا شحت السوق عليه بما يلتقطه لجأ إلى أكوام القمامة التي هي فقيرة أصلاً ليس بكمها إنما بما تجود به كمواد يُنتفع منها، من الضروري بالنسبة إلى زيرو أن يملأ كيسه حتى لو كان يعرف أن ما يضعه فيه غير صالح:

- أنا ناقصني زبالة يا ابن الكلب؟!... كان والده يقول له.

العودة بكيسه هزيلاً يعني بضع صفعات تهوي على جسده كيفما اتفق، غضب والده كان حاضراً دوماً ولأتفه الأسباب.

عندما بلغ زيرو سن العاشرة بدأ يعود إلى غرفة سكن أهله منفرداً، لا ينتظر والده، أحياناً يتأخر في العودة حتى وقت متأخر من الليل، والده يستقبله بالشتائم بعد أن بات من الصعب عليه أن يطال زيرو بالضرب فالولد يقفز هارباً منه ولا يعود إلا بعد أيام، عندما يُسأل أين كان يجيب:

- ليش في غير السوق روح عليه؟
- رح تقضي كل عمرك فيه يا ابن الواطيه...

صدقت نبوءة والده، فرّ زيرو من منزله وبات يقضي جلّ نهاره وليله في السوق، صادف والده غير مرة، تجاهل الرجل ابنه ماضياً في طريقه!!

اكتسب زيرو اسمه إثر ذهابه في إحدى المرات إلى السينما لمشاهدة فيلم بطل المكسيك الأسطوري "زورو"، تأثر الفتى كثيراً بالفارس الثائر على الظلم، أعجب ببراعته في مقارعة أعداء قومه مستخدماً السيف تارة ومطلقاً النار من مسدسيه تارة أخرى، خرج الفتى من السينما منتشياً بما رأى، توجه على الفور نحو سوق البسطة، اشترى جزمة بلاستيكية من أرخص الأنواع، كذلك اشترى قبعة قش

بالية، أطلق على نفسه اسم "زورو"، لم يطل الوقت حتى تحول هـذا الاسم المرتبط بالشجاعة والتضحية والحب إلى زيرو، منذ ذلك اليوم لم يعرف الفتى لنفسه اسماً غير هذا.

رصدت عينا أبـي داغر زيرو، لم يفته أن الفتى إن اعتنى بنفسه سيكون له راغبون، عُرض على أبـي داغر مبالغ وفيرة من قبل بعض زوار السوق الليليين إن هو تمكن من تأمين فتى لائق ليرافـق بعـض الزبائن المتلهفين.

هرب زيرو من يد أبـي داغر مراراً حتى اضطره الأمر أن يضع سكيناً على رقبة الفتى قبل أن يلقي به داخل سـيارة فيهـا رجلـين مهتاجين، عاد زيرو إلى أبـي داغر في الصباح الباكر وهو يعرج:

- يلعن أبوك.. يلعن أمك.. يلعن أبوك.. يلعن أمك.. أخـذ زيرو يصيح في وجه أبـي داغر على بعد أمتار قليلة منه.

أبو داغر تقبل شتائم زيرو لأن الحركة في السوق لم تبدأ بعـد ومن سمعه لم يهتم، أصلاً تبادل الشتائم في سوق البسطة يجري بكـم أكبر من تبادل المجاملات، حاصر الفتى الذي ما كان قادراً على الهرب أصلاً، تدبر الأمر مع كسار حارس فندق الرحاب الخاص ليسـتحم زيرو في الفندق خلسة عن أبـي السرور مستثمر الفندق الذي يكون قد آوى إلى فراشه في مثل هذا الوقت.

في الحمام تخلص زيرو من الدماء والبراز الذي لـوث مؤخرتـه وساقيه وبنطاله، عاد إلى أبـي داغر، وضع الرجل في يـده عشـرة آلاف ليرة، مبلغ يعادل جزيرة أحلام بالنسبة إلى فتى يعـيش هـذه الحياة، ترك أبو داغر زيرو يرتاح بضعة أيام في خيمته رتب أثناء ذلك شؤون الفتى مع المساعد أول أبـي غسان "الملك"، أغدق عليه الطعام

واللباس بما يناسب عمله الجديد، الفتى لاقى القبول لدى المهتمين من الزبائن، لم يُخف وضعه على أحد من أهل السوق، زيرو لم يكترث لنظراتهم وتعليقاتهم، صادف أباه أكثر من مرة، دُهش الوالد لنمط لباس ابنه وقصة شعره، سمع من يناديه زيرو، سمع طريقة ابنه في الرد التي بالغ زيرو في ميوعتها على مسمع والده، تقصّى الوالد هنا وهناك حول حقيقة ما يجري، لم يطل الوقت حتى أدرك ما آلت إليه الأحوال.

تناهى إلى سمع زيرو أن والده قَضى برصاصة انطلقت من مسدسه فيما كان يتعامل معه، لم يُعرف إن كانت الرصاصة قد انطلقت بطريق الخطأ أم أنّ الرجل قد أطلق النار على نفسه عامداً.

زيرو لم ييئس للأمر:

- ليش أبوك شو بيشتغل حتى معه مسدس؟!... سأل أبو داغر.
- موظف جربان.. ضل سنة ما يطعمينا الخبز مشان يشتري المسدس.. رد زيرو.

بعد حوالي الثلاث سنوات ما عاد زيرو الفتى المرغوب، أصبح اليافع الذي لا يخلو من بعض الخشونة، اقتصر زبائنه على من يبحثون عن جنس سريع رخيص في خيمة أبي داغر.

توقف على بعد بضعة أمتار من الخيمة شاب يكاد يبلغ الخامسة والعشرين من العمر وأخذ ينظر باتجاه أبي داغر بنظرات مواربة، لم يخف على الأخير أن من يقف قبالته زبون يبحث عن صيد ليلي، أشار للشاب بأن يقترب..

- شو لازمك؟... قال أبو داغر بصوته المتسلط.

ازداد ارتباك الشاب، أنقذه الرجل بأن أزاح الشادر الأزرق عن الخيمة ونقّل ضوءاً خافتاً ينبعث من أسفل قداحته البلاستيكية بين زيرو وسجية:

- هاد ولا هي؟...
- بقديش؟... قال الشاب مشيراً إلى سجية.
- خمسميت ليرة...

هز الشاب رأسه موافقاً وناول أبا داغر المبلغ المطلوب.

- استفتاحة... فوت لجوا ولا تطلع صوت...
- أمان؟!...
- تحت الأنظار.... قال أبو داغر مشيراً إلى الشرطي النائم داخل غرفته الزجاجية.
- وهاد؟!... قال الشاب مشيراً لزيرو.
- شو بدك فيه؟... قومي حركي حالك... قال أبو داغر فيما ينكز سجية.

غادر أبو داغر الخيمة وهو يوصي الشاب بالإسراع، يكره الرجل هدر الوقت فيما قد يقدم الشاب عليه من محاولات لمداعبة سجية أو التعامل معها على أنها أنثى حقيقية ترقد تحته في حين لا يمكن اعتبار الحالة أكثر من لحظات قليلة لتفريغ طاقات الشاب ضمن مستوعب بشري.

3... غازي

دخل أبو داغر خيمة غازي الملاصقة لخيمته فيما يفرك كفيه ببعضهما من شدة البرد:

- شو هالبرد الليلة؟!...
- مسيك دفي حالك.. رد غازي وهو يقدم لأبي داغر كأساً من خلطة الكحول التي يعمل على تركيبها فيما هو يجلس القرفصاء بين مجموعة عبوات بلاستيكية انتشرت حوله على الأرض بطريقة فوضوية.

ارتشف أبو داغر من الكأس جرعة كبيرة وأعادها إلى غازي:

- شغل الليلة زفت... قال أبو داغر.
- متل أيامنا كلها... رد غازي.

خرج غازي من السجن منبوذاً، أسرته شديدة التدين لم تتقبل عمله كساق في المطاعم والبارات، ساءت علاقته معها أكثر عندما بدأ يعمل في أحط ملاهي المدينة الليلية، انتهت العلاقة بين الشاب والأسرة تماماً عندما دخل السجن إثر قتله لأحد زبائن الملهى السكارى بطريق الخطأ في أحد الشجارات الروتينية التي تزخر بها ليالي السهر في الملاهي.

فشل غازي في الحصول على عمل مجدداً، ليس بسبب توقف أصحاب المطاعم والملاهي عند تاريخه الجنائي، إنما بسبب إدمانه الكحول الذي كان يفضي إلى إلقائه خارج أي مكان يحصل فيه على عمل بعد أيام قليلة من مباشرته لمهنته كساق، المهنة التي برع فيها حقاً، احتضنه سوق البسطة، لم يكن سهلاً الحصول على غطاء يسمح له ببيع المشروبات الروحية في مكان كهذا، المدينة محافظة عموماً ومركز المدينة له خصوصيته، المساعد أول أبو غسان اتخذ إجراءاته إثر توسط أبي داغر للشاب الذي تعرف إليه حديثاً، منحه خمسة أمتار مربعة أقام عليها خيمته قرب خيمة عرابه أبي داغر، أخذ يحضر فيها كحوله مازجاً النكهات والألوان بأردأ أنواع المسكرات، يقدمها رخيصة لزبائنه بعد أن يعبئها بعبوات بلاستيكية شفافة، شهد عمله رواجاً مفاجئاً لما تقدمه جرعة الكحول هذه من مفعول سريع بسعر بخس، فأقبل يبيع منها ليل نهار، رغم رواج عمل غازي فإنه لم يستطع أن يجمع أي مال، علاقات السوق كانت كفيلة بسحب ماله ليبقى هو حبيس خيمته وكحوله وعبواته البلاستيكية.

يصل إلى غرفة غازي عبر الجدار القماشي المشترك مع غرفة أبي داغر صوت فحيح مكتوم صادر عن زبون سجية:

- إنالك لا تطلع صوت.... قال أبو داغر موجهاً صوته عبر الجدار القماشي.
- جوعان.. تروح ناكللنا لقمة؟... قال غازي موجهاً كلامه إلى أبي داغر بعد أن ابتلع جرعة كحول.
- دقيقتين ليخلص الشب منمشي... قال أبو داغر مشيراً إلى غرفته المجاورة.

- ما في مطرح ناكل فيه غير عند طيزي أبـــو الخـــير؟... رد غازي.

إدخال غازي لمؤخرته في معظم كلامه وتعليقاته كان عادة أصيلة اكتسبها أثناء سنوات سجنه، جرت العادة هناك أن يكتسب السجين اسماً آخر غير اسمه مستوحى من شكله أو من بعض تصرفاته، علـــى غرار ما يجري في سوق البسطة تماماً، وبما أن غازياً يعاني أساساً مـــن متاعب في القولون جاء سجنه ليفاقم الحالة لديه، أخذت مؤخرته تطلق الغازات ليل نهار حتى اكتسب اسم "غاز الطيز"، بعد خروجه مـــن السجن لازمه اسم غازي بطبيعة الحال ولازمت الطيز معظم كلامه.

عاش غازي حياة ليلية زاخرة، بدأ عمله في مطعم متوسط مـــن مطاعم المدينة بعد أن تخرج من معهد للدراسات الفندقية، سرعان ما لمع نجمه بين أبناء المهنة كساقٍ موهوب، تنقل بين أفخـــم مطـــاعم المدينة وباراتها، بدأت أحواله تنحدر عندما أخذ يبـــالغ في تعـــاطي الكحول، تسوء الأمور أكثر عندما يكتشف مدير المكان أن ما يشربه غازي ليس إلا كحولاً فاخراً مسروقاً من عهدته يسجل ثمنـــه علـــى حساب الزبائن خلسة، أخذت تتدنى مستويات المطاعم الـــتي تقبـــل توظيفه، باتت العلاقة مطردة بين زيادة تعاطيه للكحـــول وانحـــدار مستوى المكان الذي يعمل به، بضع سنوات من التردي المطرد وصل بعدها إلى الملاهي الليلية بأدنى مستوياتها، هناك لم تكن تخلُ ليلة مـــن لياليه من شجار بين السكارى قد يكون هو طرفاً فيه أو لا يكـــون وذلك بحسب أطراف الصراع، المبالغة في إزعاج إحدى فتيات الملهى من قبل بعض الزبائن قد يدخله الشجار إذا صادف أن تكون تلـــك الفتاة معشوقته حينها، تعرض أحد زملائه في العمل للإهانة ســـبب

قوي لدخوله معترك تبادل الضربات والشتائم حتى لو كان على غير ودٍ مع هذا الزميل، عموماً الشجارات في تلك الأماكن كانت تنشأ برمشة عين، من دون سبب غالباً، الكحول يفجر الكثير من كبت نهارات المدينة الطويلة، يصل الرجال إلى كرسي الملهى الليلي عطشى، مستهلكي الروح والنفس وفي الوقت ذاته متحفزين.

من أحد تلك الأماكن انتهى به الأمر بالسجن، ما يثير السخرية، أن الجريمة غير المقصودة التي ارتكبها في تلك المرة لم يكن هو نفسه طرفاً في الشجار فيها، حاول أن يفض الاشتباك بين المتشاجرين قبل أن يحطموا المكان فانتهى به الأمر قاتلاً.

إدمان الكحول أورثه جسداً نحيلاً، عروق يديه ورقبته بارزة مشدودة، نادراً ما يأكل، رغم ذلك لديه قوة بدنية ناجمة عن طول قامته وساعدين بالغا في الامتداد أكثر من اللازم، أعصابه المتوترة دوماً جعلت إطباق كفيه محكماً، يكاد يسحق زجاجة كحول إذا صادف أن كانت أصابعه الطويلة ملتفة حول عنقها.

مرّ أمام ناظري غازي الكثير، رجال، نساء، علاقات، مال، مؤامرات صغيرة كان له دور الوسيط فيها أحياناً كاصطياد شاب لفتاة أو العكس اصطياد فتاة لرجل، المؤامرات الكبيرة لم يشركه أحد فيها ولم يكن يعرف أنها كانت تجري تحت ناظريه على الطاولات المنزوية في الأركان القصية من المطاعم التي كان يعمل فيها، أدرك أن ثمة أموراً خطيرة تجري على تلك الطاولات عندما استدعته شرطة أحد أقسام المدينة لتسأله عن مجريات إحدى الليالي الفائتة في المطعم الذي كان يعمل فيه حينها، بالنسبة إليه كانت ليلة عادية لا فرق بينها وبين ليالٍ أخرى كثيرة، لم يحدث فيها ما يسوء أو ما يثير الريبة.

سأله الضابط الذي استقبله عن أحد الزبائن بعد أن عرض عليه صورة شخصية له، لم يكن غازي متأكداً تماماً إن كان قد شاهده، فعمله خلف البار لا يمكّنه من التجول بين الطاولات، الزبائن الذين يجلسون إلى البار هم أكثر من يثرثر معهم أو يتعرف إليهم.

تكرر استدعاء قسم الشرطة لغازي وتكررت الأسئلة، عرضوا عليه ذات مرة صورة لرجل ما، أخبروه أن هذا الرجل سيكون أحد الساهرين في البار الذي يعمل فيه غازي، طلبوا منه تصوير الرجل وضيوفه بكاميرة جواله دون لفت نظر، لم تكن المهمة صعبة، تكررت الطلبات والمهمات وكانت تشمل كثيرين، رجالاً، نساءً، وجوهاً معروفة في المدينة من مسؤولين، رجال أعمال، فنانين، نساء من الطبقة المخملية، أناساً لا يعرف عنهم شيئاً، استغرب كل هذا الاهتمام من قبل الشرطة بالكثير من أهل المدينة.

وجد غازي نفسه بعد فترة وجيزة غارقاً في مهمات قسم الشرطة، حار فيما وصلت إليه الأمور وهي التي بدأت ببضع أسئلة بريئة تمس أمن المدينة كما أخبروه لتنتهي بأسئلة ومهمات لا تنتهي، شددوا عليه إبقاءها طي الكتمان حتى لا يعرّض نفسه للمساءلة.

في المرة الأولى أبدى فيها غازي اعتراضه على تلك المهمات وهو يرتجف خوفاً من رد فعل الضابط الجالس قبالته، قوبل بابتسامة عريضة، أنبأه الضابط أن قسم الشرطة ممتن لخدماته والدليل على امتنانهم هذا أنهم خصصوا له راتباً شهرياً ثابتاً يتقاضاه من الضابط شخصياً دون أن يوقع إيصالاً أو ما شابه بالمبلغ المقبوض.

أدرك غازي أن وراء تلك الابتسامة العريضة التي تقابله والعرض السخي الذي قُدم إليه سداً يمنعه من الرفض، العلاقة مع قسم الشرطة

رافقت غازي طيلة سنوات عمله، المرتب الشهري لم يتأخر يوماً، اختلفت المهام بين مكان وآخر، عندما بلغ غازي الدرك الأسفل في عمله لم يعد عمله مع القسم يتعدى نقل ما يطلقه السكارى من نكات، عبارات... مهمات تافهة لكن المرتب بقي مستمراً، حاول غازي أن يستعين بصلات الضابط الذي يلتقيه عادة ليقوم بإعادة توظيفه في أحد الأماكن الراقية التي كان يعمل بها، وعده الضابط بالقيام بما يلزم، لم يحدث شيئاً، ذكّره غازي مراراً، وتكررت الوعود، جريمة غازي غير المقصودة سبقت وساطة الضابط المؤجلة والتي اعتقد غازي أنها لو حصلت لما وقعت جريمته، اتصل غازي من قسم الشرطة الذي اعتقله بعد ارتكابه الجريمة مباشرة وشرح لذلك الضابط الذي يرعاه مجريات ما حدث راجياً منه مؤازرته، أبدى الرجل حماسه لمساعدة غازي، لم يطل الأمر حتى حضر إلى قسم الشرطة رجل له مظهر السطوة بوجه ذي ملامح قاسية ونظرة باردة يرتدي اللباس المدني، انفرد الرجل بغازي وأبلغه بطريقة لا تحتمل النقاش أن أي ذكر لعلاقته السابقة مع قسم الشرطة أو حتى تلفظه بأدنى تلميح لما كان يُطلب منه سيؤدي حتماً إلى شجار من تلك الشجارات التي تحصل كثيراً في السجون وتؤدي إلى مقتل أحد الأطراف المتشاجرة، لم يكن غازي يحتاج أن يسأل من هو الطرف الذي سيودي الشجار بحياته.

تناسى غازي حياته السابقة برمتها، في السجن ووجد ملاذه في حبوب مخدرة تباع هناك كأفضل وسيلة لتسجية وقت، حبوب من النوع الذي يُفقد دورة الزمن قيمتها، وضعه المادي داخل السجن لم يكن يسمح له بإطعام نفسه فاختار أرخص أنواع تلك الحبوب المعروضة بوفرة وتنوع، قدم خدمات السخرة بدلاً عن السجناء

الميسورين مقابل حبتي "البنزكسول" لكل يوم سخرة في تنظيف المراحيض وشطف سخام أرض مطبخ السجن.

بعد سنوات خرج غازي من السجن ليعوض الحرمان الذي عاناه من عدم شرب الكحول، كذلك كان بحاجة لأن يتغلب على إدمان حبوب "البنزكسول"، أخذ يتناول جرعات كبيرة من الكحول، خيمته في السوق أمّنت له كل ما يطمح إليه، المأوى، العمل والجرعات المضاعفة التي كان يحتاج إليها.

في خيمة أبي داغر سجية لم يستيقظ من حواسها عندما هبط الشاب فوقها سوى عينين لم تتمكن من فتح جفونهما تماماً، تململ زيرو في فراشه وأدار ظهره معرضاً عن سجية وزائرها.

بسبب العتم وكثرة الأسمال التي ترتديها سجية لم يتمكن الشاب من الدخول فيها فمدت يدها تساعده لإنهاء ما حاول بدأه، لم يطل الأمر، غادر الشاب على عجل، عادت سجية لتغط في نوم عميق بعد أن دفنت نفسها تحت الأغطية مجدداً.

لم يكن الحذر من الأمراض مدرجاً ضمن قائمة سجية في الحرص على نفسها، ببساطة كان الأمر لا يعنيها وإن كانت قد سمعت عن الأمر قليلاً فيما مضى، لزوارها الحرية في إحضار الواقي الذكري واستخدامه إن أرادوا، كان أكثر ما يزعج أبا داغر أن يجد في الصباح واقياً مستخدماً ملقى في إحدى زوايا الخيمة.

- ما عرفتي تحطيه بتمه قبل ما يروح؟.. هي مقولة أبي داغر المعتادة عندما يجد الواقي على أرض خيمته فيما الغيظ ينهشه.

4... أبو الوفا

ينتهي عمله بمجرد انتهاء الدوام الرسمي لمديرية الاستملاكات العامة بالتزامن مع انتهاء مواعيد المراجعات في قسم الشرطة، غرفته القماشية لم تكن تحوي سوى فراشه الذي وضعه فوق صفين من الطوب الإسمنتي، آلة تصوير مستندات غالباً ما تكون معطلة، مصنف يحوي مجموعة متنوعة من الطوابع المالية، العمل المطلوب منه محصور تقريباً بالمناداة على المراجعين الذين يحملون أضابيرهم وينوون مراجعة قسم الشرطة أو مديرية الاستملاكات العامة، ما إن يتمكن من التقاط أحد الزبائن حتى يقوده إلى داخل مكتب تسيير المعاملات المسمى "مكتب الثقة العقاري" لصاحبه أبي نافذ والذي تتكئ خيمة أبي الوفا نفسها إلى جزء من جداره الخارجي فهو إحدى الدكاكين العشرين التي بقيت من البناء القديم، هناك في داخل المكتب تقدم شتى الخدمات للمراجعين، من ثم يعود أبو الوفا إلى خيمته باحثاً عن صيد جديد، كثرٌ من يترصدون المراجعين لتقديم خدمات مماثلة إن كان لصالح مكتب الثقة أو لغيره، يؤدون عملهم بحيوية ونشاط وصوت مرتفع بطريقة مشابهة تماماً للبائعين على بسطات أرض السوق، أبو الوفا يصعب عليه تأدية العمل المطلوب منه، تقريباً هو لا يتصيد أحداً ولا حتى يصدر عنه أي صوت، ينتظر

واقفاً خلف آلة التصوير ساهماً في الفراغ، من يقترب منه من تلقاء نفسه ليسأله أو يطلب منه تصوير ورقة ما يشير له بالتوجه إلى مكتب الثقة العقاري، إن تحمس كثيراً يسير مع الزبون إلى باب المكتب، المنافسة لم تكن تعنيه بشيء فهو موظف لدى أبي نافذ بمرتب شهري ثابت مهما قلّ عدد المراجعين الذين يتمكن من التقاطهم.

لم يكن أبو الوفا سوى موظف سابق في مديرية الاستملاكات العامة وذلك قبل أن تنتقل المديرية إلى المبنى الجديد الذي تشغله حالياً على أرض سوق البسطة.

وظّف أبو نافذ الرجل لديه ملزماً إثر توسط أحد رؤساء لجان التخمين في مديرية الاستملاكات العامة له، اعتقد أبو نافذ أن توظيف أبي الوفا للعمل لديه قد يحقق له فائدة تتجلى في الاستفادة من خبراته وعلاقاته داخل المديرية كونه عمل فيها لسنوات طويلة كما شرح له رئيس لجنة التخمين، لم يطل الوقت حتى أدرك أبو نافذ أن الرجل فاقد الصلاحية في الحياة عموماً وداخل المديرية خصوصاً، شاهد بأم عينه كيف يتحاشاه جميع الموظفين ممن كانوا زملاءه مبتعدين عنه بعد أن سُرّح تعسفياً إثر قضية فساد كبيرة كان أبو الوفا الحلقة الأضعف فيها.

مع ذلك احتفظ أبو نافذ بأبي الوفا للعمل لديه رغم أن ما يقوم به الرجل لا يستأهل ربع المرتب الذي يدفعه له أبو نافذ، لم يكن من الحكمة أن يُغضب مستثمر مكتب الثقة العقاري أحد رؤساء لجان التخمين من أجل بضعة آلاف يدفعها كل شهر كمرتب لهذا الرجل عديم الفائدة.

يوزع أبو الوفا وقته بعد انتهاء عمله بين تعاطي حبوب "الكبتاغون" المخدرة وبين أدوية معالجة أمراضه النفسية، داخل عالمه هذا لم يكن يشعر بالحاجة إلى أن يرفع باب خيمته في أي وقت من النهار أو الليل، حتى أيام العطل والتي أحياناً ما تكون طويلة ممتدة لم يكن يشعر بها، ليس بحاجة إلى الحديث مع أحد أو للبحث عن أي أسلوب للتسلية من الأساليب الموجودة في السوق.

مالك أبو الوفا هو سليل عائلة عملت في تركيب العطور لسنوات طويلة، لم يجد في نفسه الميل للعمل مع والده في دكانه الصغيرة رغم أن العمل كان مزدهراً ويدر الكثير من الأرباح، خاصة وأن اثنين من أشقائه سبقاه إلى العمل هناك بعد أن تخليا عن متابعة تحصيلهما العلمي، كاد مالك أن يتخرج من كلية إدارة الأعمال، رغبة منه بالاعتماد على نفسه مادياً وفي حمّى الاندماج بالعمل الوظيفي التي أصابت المدينة قبل سنوات، وجد نفسه موظفاً في مديرية الاستملاكات العامة، لم يطل به الوقت حتى غرق في علاقة حب مع إحدى زميلاته في العمل، واجه بعض المعارضة من عائلته عندما أعلمهم برغبته في الزواج منها، الفتاة لا تمثل بمظهرها ولباسها ما ينسجم مع عادات وتقاليد أسرته، تفاصيل صغيرة لم يكن من العسير التغلب عليها، استكان لوظيفته وزوجته ونسي التحصيل العلمي خاصة وأن العمل في مديرية الاستملاكات العامة بات يحمل إليه الوفير من المال.

اعتاد مالك أبو الوفا التأنق، مجموعة عوامل كرست لديه هذه العادة: عمل العائلة في تركيب العطور، العمل الوظيفي، جريان المال

بين يديه، الهدايا التي كان يتلقاها، اهتمامه بأناقته شجّعه على الاهتمام برشاقة قوامه، خاصة وأن قسمات وجهه تحمل وسامة واضحة، كل ذلك تغير عندما تغير اتجاه دوران المطحنة إلى غير صالحه في مديرية الاستملاكات العامة.

الرشاوى هي القاعدة الأساس المتبعة في علاقات العمل داخل المدينة في مختلف الدوائر العامة وحتى الخاصة منها أحياناً، وعلى كافة المستويات، لم يخلُ الأمر أحياناً من حديث عن مكافحة الفساد، حملات مفاجئة، الجميع يعرف أنها تمثيليات دعائية لأغراض انتخابية أو لتصفية حسابات مع مسؤول ما وإنهاء دوره من الحياة العامة، فورة عابرة سرعان ما تنتهي وتعود المياه العكرة إلى مجاريها، مالك وقع ضحية إحدى هذه الفورات، اتضح أن المسؤول الهدف من فورة مكافحة الفساد هذه أقوى من أن تطيح به فورة عابرة أو حتى غير عابرة، السبب لا يكمن فقط في أن هذا المسؤول ذو صلات قوية بمختلف مراكز القوى في المدينة، إنما ما سيستتبع سقوطه من انهيارات تشبه إلى حدٍّ بعيد متتالية من أحجار الدومينو، لم يكن بالإمكان إخماد صوت هذا المسؤول لأنه لا يحتاج إلى الكلام أصلاً لتبدأ أحجار الدومينو بالتساقط الواحد تلو الآخر وبسرعة، أدركت جميع الأطراف المحرِّض منها والمتضرر أن الأنسب للجميع هو تحويل مسار فورة النزاهة التي ظهرت فجأة إلى حلقة أضعف يمكن الاستغناء عنها دون متاعب تذكر، لم يطل الأمر حتى أُقرّ بالإجماع أن مالك أبا الوفا هو الموظف الأنسب لتحمل القضية، صحيح أن مالكاً كان شريكاً لكنه شريك بالفتات لا أكثر، تعرض مالك للترغيب والترهيب ممن دفعوا بالقضية لتصبح مسؤوليته لوحده.

حتى الذين أرادوا النيل من ذلك المسؤول مارسوا ضغوطهم عليه للخروج من المأزق، وقع وسط تجاذبات تشدّ به كل واحدة إلى جانبها، شهور طويلة من التحقيق المستمر والضغوط الشديدة، وعود معسولة، تهديد بفضائح ما اقترف من ذنوبها شيئاً، أخيراً وجد نفسه خارج العمل الوظيفي ذليلاً مهاناً محطم النفس.

وقفت زوجته إلى جانبه لكن ما كان بيدها أن تقدم سوى المواساة، باتت تنتابه نوبات من الهيستريا يصرخ فيها حتى يخرج الزبد من فمه:

- ما استقويتوا غير عليّ يا ولادين الحرام؟.. صفيت أنا الحرامي الوحيد؟.. عيب عليّ إذا ما بخرب بيتكن.

بالطبع تهديدات مالك لم تكن تتجاوز شباك منزله، هام على وجهه في المدينة يحدث نفسه بصوت مرتفع، أجبرته أسرته على مراجعة طبيب مختص بالأمراض العصبية والنفسية، بات مالك حبيس أدويته المهدئة، ما إن يتوقف عن تعاطيها حتى تعاوده الحالة بأشد مما كانت عليه، أصبح يشكّل خطراً على زوجته وأطفاله، زجت الأسرة به داخل مشفى مختص بالأمراض النفسية والعصبية لشهور طويلة، ساعات نوم طويلة تحت تأثير المهدئات، جلسات معالجة بالصدمات الكهربائية، حقن وحبوب بكميات كبيرة، خرج من المشفى غارقاً في عالم خاص منفصل عن الواقع، تقريباً غير مدرك لما يدور حوله، بعد خروجه من المشفى بعدة أيام غاب مالك عن منزله بشكل نهائي و لم يعد إليه أبداً، هام على وجهه في شوارع المدينة مجدداً إنما كان ملتزماً الصمت هذه المرة، شاهده كثيرون يسير ويسير، ينام على الأرصفة، شكله مزرٍ ولباسه رث، ما عاد مالك أبو الوفا الرجل المتأنق، انتفخ

جسده رغم قلة طعامه، التأثيرات الجانبية للأدوية التي يتناولها جعلته أشبه ما يكون بوسادة هوائية ضخ في داخلها الهواء أكثر مما يلزم بكثير حتى باتت معرضة للانفجار عند تلقيها أرق وخزة من رأس مدبب.

الأهل، المعارف، الأصدقاء، حاول كثيرون خلق حالة من التواصل معه، فشلوا مراراً، استسلم الجميع لليأس تباعاً، اعتادوا الحالة، مالك ليس الشخص الوحيد الذي يهيم على وجهه في شوارع المدينة وهو يهذي، هؤلاء يزدادون يوماً بعد يوم، الاستثناء الوحيد الذي لم يفقد الأمل من مالك هما والده وزوجته، إذ كانت والدته قد توفيت أثناء إقامته الطويلة في المشفى للعلاج:

- إذا مو مشانه.. مشان ولادي لازم أعمل يلي عليّ... قالت زوجة أبي الوفا.

بات لمالك أماكن محددة يتردد عليها، واظب والده وزوجته على ملاحقته إليها، الوالد يترجى ويتوسل إليه أن يعود إلى رشده، يدعو له بالشفاء، الزوجة تزوده بأدويته كل بضعة أيام، يتناولها منها باستسلام، يضع في فمه بضع لقيمات مما تحمله له من طعام ويعيد الباقي إليها، تتحدث إليه، تنقل إليه أخبار أولاده وأسرته، نصحها البعض أن تصطحب أولادها للقاء والدهم، علّهم يؤثرون فيه ويعيدونه إلى جادة الصواب رفضت النصيحة، كانت تريد لأولادها أن يحتفظوا بالصورة الحسنة عن والدهم، أعلمته بأنها سعت بشكل حثيث حتى انتقلت إلى عمل وظيفي آخر في المدينة، ما عادت تحتمل عيون الموظفين في مديرية الاستملاكات العامة وأسئلتهم عنه.

مرّ مالك بالسوق في إحدى جولاته في الفترة التي كانت أبنيته قيد الإزالة ومبنى مديرية الاستملاكات العامة قيد الإنشاء، وقف

طويلاً أمام لافتة كتب عليها اسم المشروع، مدة تنفيذه، اسم المتعهد، تأمل طويلاً عبارة "مديرية الاستملاكات العامة"، كتبت بخط واضح عريض، استوطن المكان ليشاهد بناء مديرية الاستملاكات العامة الجديد وهو يرتفع رويداً.. رويداً، شاهد عمليات إكسائه، تأثيثه، نقل الملفات والأضابير إليه من المبنى القديم، توافد الموظفين، تخيل مديرية الاستملاكات العامة ماردا ضخماً يقف هو أمامه صغيراً تافهاً خانعاً، تخيل نوافذ بنائها عبارة عن عيون تنظر إليه من الأعلى بقسوة وبرود متشفية شامتة.

أحد زملاء مالك السابقين في العمل الوظيفي شاهد مالك في وقفته الصموتة كتمثال قبالة المديرية، الرجل كان طرفاً في قضية الفساد التي راح ضحيتها مالك، شاءت الأقدار أن يكون في الجانب المنتصر، بات رئيساً للجنة تخمين في المديرية وهو منصب مهم يسعى الجميع إليه، يصبح رضى من يحوز هذا الشرف مطلب كثير من أهل المدينة على مختلف مستوياتهم، راقب رئيس لجنة التخمين هذا مالكاً أثناء دخوله وخروجه من المبنى، شكّل ذلك بالنسبة إليه هاجساً، أصبح يراقبه من خلف زجاج نافذة مكتبه المطل على السوق، مالك يقف بصمت، يتعب أحياناً فيجلس على أقرب ما يمكنه الجلوس عليه، نادراً ما شاهده يأكل، توجس من وقفته شراً، ثم ما لبث أن اقتنع بأن الرجل غائب عما حوله وما وقفته تلك إلا ضرب من جنونه الذي سمع عنه مراراً، رقّ لحاله، حاول التحدث إليه مراراً، أجوبة مالك كانت مرتبطة بمواعيد الدواء، يبدو أفضل حالاً بعد تناول حبوبه بمدة وجيزة وتسوء أحواله كلما قلّ تركيز العقار في جسده.

رئيس لجنة التخمين تحدث إلى أبـــي نافذ بشـــأن مالـــك، لم يستدع الأمر أكثر من بضع دقائق ليصبح مالك أبو الوفا موظفاً لدى أبـــي نافذ.

تأخرت زوجة أبـــي الوفا ذات مرة عن موعد إحضار الأدوية إثر مرض شديد ألم بها، مرت بضعة أيام وحالة مالك تتدهور، أخـــذ يرتجف، يهلوس، يتعرق، يصرخ، لم يدرك المحيطون به حقيقـــة مـــا يجري، أحد العارفين بهذه الأحوال وهو موزع لأنواع متعددة مـــن المخدرات في سوق البسطة قدّم له حبة "كبتاغون" قامـــت بمفعـــول السحر، غابت كل أعراض المرض عنه. تبادل غازي وأبـــو داغـــر نظرات التعجب:

- يعني مو باينه.. أبو الوفا بيحبحب... قال الموزع.

عادت زوجة مالك لإحضار الدواء في مواعيده لكن أبا الوفا ما عاد يستغني عن حبوب "الكبتاغون"، بات يلتبس عليه أحيانـــاً نوع الحب الذي يتوجب عليه ابتلاعه فيتناول جميع الأنواع دفعـــة واحدة.

توفي والده، ما عاد أولاده في عمر يقبلـــون فيـــه التســـويف والأجوبة المبهمة، رافقتهم أمهم للقاء والدهم أخيراً، أذهلهم المشهد، الرجل ينظر إليهم وهو في حالة غياب، لم يعودوا إلى طلـــب لقائـــه مجدداً.

دخل أبو داغر خيمة أبـــي الوفا محاولاً إيقاظه ليرافقه وغـــازي لتناول الطعام، هزه مراراً:

- أبو الوفا... أبو الوفا قوم كلك لقمة معنا عند أبو الخـــير... قال أبو داغر.

انقلب أبو الوفا على ظهره وأطلق لشخيره العنان، سحب أبو داغر الغطاء الصوفي الذي انحسر عنه أثناء تقلبه وألقى به فوق الرجل قبل أن يغادر الخيمة.

ينسى الرجل الطعام أياماً إذا لم يسعَ أحد لتذكيره به، يناديه أبو داغر دوماً ليشاركه مع سجية وزيرو البطاطا المقلية الساخنة مع الخبز.

اعتبر أبو داغر وغازي نفسيهما مسؤولين عن مالك أبي الوفا، لا تفارقه عيونهما، يجهدان لأن لا يتأذى بشكل أو بآخر، تلقى أحد أصحاب البسطات ضرباً مبرحاً عندما ألقى عبارات ساخرة تطال الغيبوبة التي يعيشها مالك أبو الوفا فيما يقف خلف آلة تصوير معطلة.

5... مطعم أبو الخير

يجلس أبو داغر وغازي إلى إحدى الطاولات:

- طعمينا أبو الخير بدنا نروح ننام.... قال أبو داغر.

تمتم أبو الخير لنفسه ببعض الأدعية مظهراً امتعاضه من زبائن آخر الليل.

- كل يوم نفس النغمة.. إذا بتستغفر ربك للصبح ما رح يرد عليك.... قال أبو داغر مناكفاً.

يضع أبو الخير الخبز وصحن بصل ومخللاً بين غازي وأبي داغر:

- الفول الجاهز بارد والغازات كلها مشغولة، بتمشّوا حالكن ولا بتتيسروا أحسن؟

رد أبو الخير على مناكفة أبي داغر.

لم يكن باستطاعة أبي داغر أن يمارس سطوته على شخص مثل أبي الخير، ليس خوفاً من البنية القوية للرجل، ببساطة كلا الرجلين يدركان انتماءهما المشترك للسوق بقوانينه الصارمة، ما كان لأحدهما أن يتعدى حدود الآخر، الخطوط الحمر كانت مرسومة، وتجاوزها خسارة للجميع.

يكاد أن يصل طول عبد الباري اللحام إلى المائة وتسعين سنتيمتراً، لباسه الدائم عباءة طويلة تصل إلى كاحليه، لونها رصاصي غامق، يحرص على نظافتها رغم طبيعة عمله في المطعم، يستغرب من يشاهد نشاطه كيف لا تعيق تلك العباءة حركته، يرتدي فوقها وزرة زرقاء يقوم بتبديلها كل يوم بأخرى نظيفة، يشمر كميه عن ذراعين مكتنزة عضلاتهما، قبعة بيضاء صغيرة تغطي قمة رأسه، ينتعل في قدميه صندلاً مكشوفاً يُسهّل دخوله المسجد خمس مرات في اليوم، لباسه لا يتبدل صيفاً أو شتاءً، من الواضح أن البرد لا يعرف إلى جسده سبيلاً، فمه لا يتوقف عن التمتمة، لحيته التي أطلق لها العنان تهتز مع حركة شفتيه، حبل صلواته وأدعيته لا ينقطع إلا عندما يتحدث للآخرين، حديثه نفسه مليء بالاستغفار والحمد والشكر على نعم الله رغم أنه جلّ جلاله صبّ الكثير من غضبه على عبده عبد الباري اللحام، الأخير صبّر نفسه على امتحان الرب الطويل له بترديد مقولة "لو اطّلعتم على الغيب لوجدتم ما فعل ربكم إلا خيراً".

شغل مطعم أبو الخير دكانين متلاصقين من دكاكين العبارة، واحد يتمّ فيه تحضير الفول والحمص والفلافل، فيما وضع في الثاني طاولتين ضيقتين طويلتين، حول كل منهما ستة كراسي، هذا بالإضافة إلى أربع طاولات أمام مدخل الدكانين تتسع الواحدة منهما إلى أربعة أشخاص، بالطبع لا يحق للزبون أن يشغل سوى الكرسي الذي يجلس عليه ومساحة ضيقة من الطاولة أمامه تكفي ليُوضع عليها صحن فول وصحن مخللات ورغيف خبز، استغنى أبو الخير عن كراسي القش الخشبية لكثرة ما يلزمها من إصلاح، قرر شراء كراسٍ

حديدية واطئة لأنها أرخص ثمناً، ظهرت مشكلة عندما وزعوا الكراسي الجديدة حول الطاولات، منسوب ارتفاع هذه الكراسي أخفض بكثير من منسوب ارتفاع الطاولات ومن دون مسند للظهر، لم يهتم أبو الخير للأمر كثيراً فمن من زبائنه قد يبدي اعتراضاً على تفصيل تافه كهذا:

- يلا أحسن.. بلا ما يعمل الزبون سيران ساعتين على صحن فول... قال أبو الخير مستحسناً الحالة.

يكاد أن يكون دكانا أبو الخير هما الدكانان الوحيدان المزينان بين دكاكين العبارة، صور الآيات القرآنية ملأت الجدران، ألصقت هذه الصور من دون براويز، بفعل الزمن وأبخرة تحضير الطعام فقدت نصوعها وتثنت أطرافها أو فقدت أجزاءً منها.

الدكان الأول من مطعم أبو الخير كان معرضاً لبيع اللوحات الفنية والمنحوتات قبل أن يبدأ مشروع تحديث مركز المدينة، غادر صاحب المكان إلى دولة أوروبية عندما بدأت عمليات الهدم، أعطى العقيد عامر أبو النصر من قسم شرطة مركز المدينة الضوء الأخضر للمساعد أول أبي غسان بفتح الدكان عنوة بغض النظر عن تواجد صاحبه، علماً بأن تصرفه هذا لا ينضوي على مخالفة قانونية كبيرة فالدكان مستملك، لا يمكن لتخلف المالك عن الحضور أن يؤخر تنفيذ القوانين، بقايا المعروضات التي وجدت في المكان من لوحات ومنحوتات تم نقلها إلى مستودع قسم الشرطة، هناك لم يهتم بها أحد، اضطر بعض العناصر لاستخدامها كوقود لتنكات الحطب في ليالي الشتاء الباردة قبل أن يتم استحداث الغرفة الزجاجية أمام القسم وتزويدها بالكهرباء.

أما الدكان الثاني من المطعم فقد كان محلاً لبيع الآلات الموسيقية، مالكه كان موسيقياً على قدر لا بأس به من الموهبة، خصص ركناً من دكانه لإعطاء دروس خاصة في الموسيقى على آلة القانون التي كان يعشقها، سحب بضاعته عندما تلقى إنذار الإخلاء، باعها تباعاً بأسعار مخفضة واكتفى بإعطاء الدروس الخاصة في منزله لكن على آلة الأورغ الشرقي بعد أن انعدم تقريباً عدد الراغبين في تعلم العزف على القانون.

وصلت إدارة المطعم إلى أبي الخير عبر عدة استثمارات متتالية، لم يعرف الكثير عمن سبقوه في تشغيل المطعم، بالنهاية كان ما يهمه هو الحصول على المكان بالحلال، يدفع شهرياً مئة ألف ليرة ليشغل الدكانين اللذين يشكلان هذا المطعم الشعبي، يعلم هو وغيره من مستثمري محلات العبارة أن التأخر يوماً واحداً في دفع البدل الشهري الذي يدفع مقدماً لكل شهر يؤدي إلى طرده من المكان مباشرة، هذا ما يقال، لم يجرب أحد منهم أن يتمنع عن الدفع ولو لمرة واحدة، لكن جميع مستثمري محلات العبارة مقتنعون بصحة هذا الكلام، المستثمرون دخلوا إلى محلاتهم دون أي عقود أو أوراق تثبت شرعية وجودهم في المكان، جلُّ ما في الأمر أنهم قرأوا لافتة صغيرة معلقة على واجهة المحل مكتوب عليها برسم الاستثمار وباتوا مستثمرين للدكان بعد مفاوضات مختصرة مع المستثمر الذي كان قبلهم بالإضافة إلى دفع البدل المادي للاستثمار الشهري مقدماً:

- هلق عطيتك أجرة الشهر إلك.. الشهر الجايه لمين بدي أعطيها؟.. قال أبو الخير للمستثمر الذي سبقه.

- خايف يجي أول الشهر.. وما يجي مين يقلك ناولني الأجرة؟.. رد الرجل ساخراً قبل أن يغادر.

للحظة اعتقد أبو الخير أنه تعرض لعملية احتيال دفع ثمنها مئة ألف ليرة ولن يمضي وقت طويل قبل أن يأتي من يطرده من المكان، لام نفسه أن يكون بمثل هذه السذاجة، بالفعل لم تمضِ بضع دقائق حتى ظهر أمامه المساعد أول أبو غسان ومن خلفه عناصره

- انته يلي استأجرت الدكان من شوي؟.. قال أبو غسان بلهجته الآمرة المتسلطة التي لا تحتمل نقاشاً أو كذباً.
- إي أنا.. بس... رد أبو الخير متلعثماً.
- لا تبسبسلي.. عطيني هويتك وشوف شغلك بالمحل.. بس تخلص تعال لعندي عالقسم خود الهوية... رد أبو غسان مانعاً أبا الخير من إتمام كلامه.

أبو الخير لم يفهم شيئاً من كل ما حدث، راودته أفكار شتى كلها تتصف بالقلق والخوف، تحاور مع ابنه خير الدين بلغة الإشارة الخاصة بهما، إذ كان خير الدين يعاني من الصم والبكم، تحاور الرجلان فيما يمكن أن يفعلاه في حال ساءت الأمور في قسم الشرطة:

- خلينا نحمل حالنا ونمشي والميت ألف ليرة يلي دفعتهن الله بيعوضنا ياهن.. قال خير الدين لوالده بلغة الإشارة.
- وهويتي يلي صارت عندهن؟.. شلون بدنا نحمل حالنا ونمشي بلاها؟... رد أبو الخير مشيراً لابنه.

قرأ أبو الخير في طريقه للقسم الآيات القرآنية التي تبعد الشرور وتنجي من المصائب والتي كان يحفظها جيداً، اضطر لإجراء جولة في

السوق قبل أن يصل إلى قسم الشرطة ردد خلالها في سره الأوراد التي تستنجد بكل الأولياء والصالحين ليكونوا معه فيما سيتعرض له داخل القسم.

عندما خرج أبو الخير من القسم أخذ يلهج بآيات الشكر والامتنان لله، ليس لحسن معاملة تلقاها من قبل أبي غسان، بل لأن ما حدث هو أهون الشرين:

- شو انته ما بتفهم؟.. عم قلك بتعطي أبو نافذ كل أول شهر الميت ألف ليرة والباقي لا تحشر أنفك فيه أحسن ما قصلك ياه... قال له أبو غسان بحدة بينما كان يقف أمامه مرتجفاً.

لم يستغرق الأمر مع أبي الخير وابنه سوى بضعة أيام ليفهما أيُّ صرامة تحكم عمل السوق بكل تفاصيله.

في لقاءات لاحقة بين أبي غسان وأبي الخير حاول الأخير إقناع الأول أن يسمح له بإزالة الجدار الفاصل بين الدكانين أو جزء منه على الأقل دون جدوى:

- ما بتعرف.. يمكن بأي لحظة أصرفك وأجر كل دكانة لوحدها.. كان هذا نمط ردود مساعد قسم الشرطة على طلب أبي الخير.

جميع مستثمري دكاكين العبارة يدركون إمكانية أبي غسان على طردهم من أماكن عملهم بسهولة، يرددون على الدوام عبارة "شرشنا على بلاط"، يشابهون أصحاب البسطات إلى حد بعيد.

أحد المستثمرين تردت أحواله في الحياة فاضطر لتسليم الدكان ونقل ما كان يعرضه فيها إلى بسطة على أرض السوق غير بعيد عن

دكاكين العبارة، حاول أبو الخير مواساته فيما كان الرجل يجمع بضائعه مذكراً إياه بتشابه أحوالهم جميعاً:

- عطيني مطرح في إلنا شرش فيه... لو وقفت القصة على هالدكان كانت الشغلة بسيطة... رد الرجل فيما كان يجتر مرارته.

عبد الباري اللحام وابنه الأبكم خير الدين كانا العاملين الوحيدين في المطعم الذي يقدم الفول والحمص والفلافل على مدار الساعة تقريباً، في الوقت الذي يندر فيه الزبائن كان الرجلان يتناوبان على سلق الفول والحمص والذهاب إلى المنزل للحصول على بعض الراحة.

أكثر ما كان يؤذي العمل هو عربات تقديم السندويش المتنقلة على أرض السوق، عندما تقف إحداها قريباً من العبارة، يستسهل الناس الشراء منها، غالباً ما تكون أسعار السندويش فيها أرخص، خير الدين يراها تشكل تهديداً حقيقياً لأعمال المطعم، عندما تثور نفسه وينوي افتعال شجار مع أحد أصحاب تلك العربات ليبعده إلى أطراف السوق، كان والده يهدئ من روعه متعللاً بالرزق المقسوم، شدة تدين أبي الخير وابنه مدعاة صبر لهما على أسرة ثلاثة من أبنائها الخمس صم بكم.

تزوج أبو الخير من ابنة عمه في أسرة تعودت عبر أجيال أن تعطي الأولوية لزواج الأقرباء، ليس هناك سبب محدد لهذه الأولوية سوى أن الأسرة "تحسن" تربية بناتها، ترسلهن للتعلم في مدارس محافظة تخصص الوقت الأكبر من دروسها للتعليم الديني، تديرها سيدات يشهد لهن بالصرامة، يحرصن على تلقين الفتيات بالإضافة

إلى أصول الدين كل ما يتعلق بالحفاظ على الشـــرف، الأخـــلاق، طهارة النفس والجسد، طاعة الأب والزوج، تربية الأولاد وخصوصاً البنات على نفس النهج، تتخرج الفتاة من المدرسة طيعة جاهزة لأن تكون أداة سلسة في منزل من يرتضيها زوجة، صحيح أنه يغيـــب عنها فنون التبرج والغواية لكن في سلم أولويات عائلة كعائلة عبـــد الباري اللحام وعائلات كثيرة تماثلها في المدينة لا يعتبر هذا الأمـــر نقصاً، على العكس تماماً هو خير ما يتمم حسن الأخلاق، يمكـــن بسهولة التعرف إلى بنات هذه الفئة من المجتمع من خلال اللباس شبه الموحد الذي يرتدينه، غالباً ما تغادر الفتاة المدرسة في سن الرابعـــة عشرة لتنتظر ترتيب الزيجة المناسبة من أحد أبناء العمومـــة، هـــذا الأسلوب المتبع في تربية البنات ينطبق فقط على الأســـر متواضـــعة الحال كأسرة أبـــي الخير، في حين تدفع الأسر المتدينة الثرية بناتهـــا لإكمال تعليمهن إلى مراحل عليا ضمن هذا الجو الدراسي نفســـه، يتمّ إعدادهن ليصبحن سيدات فاعلات بين تلك العائلات المحافظـــة من مجتمع المدينة.

في منزله يعيش أبو الخير حياة متواضعة، الرجل متصالح مع نفسه ومع أسرته، يؤمن أن الإعاقة التي يحملها بعض أبنائه مردها إلى القضاء والقدر، مقتنعاً عن طيب خاطر بما قسمه الله له ولأسرته، منتظراً حياة رغيدة بعد الموت نظراً لما يواظب عليه من صـــلاة وصـــوم ودعـــاء ورعاية لأطفاله الذين لن يحملوا إليه إلا مزيداً من الحسنات زاد المؤمن في ذلك اليوم العسير.

– البنات ما عادو صغار.. شو بدنا نعمل فـــيهن؟.. قالـــت زوجة أبـــي الخير.

نغّص على أبـــي الخير مقاربة ابنتيه سن الـــزواج وكلتاهمـــا لم تتلقيا التعليم المعتاد كونهما تحملا إعاقة الأسرة، أدرك أن أي خاطب سيتقدم إليهما لن يكون إلا زوجاً لا يرقى لأن يطلق عليـــه وصـــف "متواضع الحال"، بقاء فتاة عازبة في المنزل محفوف بمخاطر كـــثيرة، كيف الحال وهذه الفتاة لا تتمكن من النطق والسمع؟ ضاعف الرجل من صلواته وأدعيته، طالباً من الله أن يجد له مخرجاً وشاركته وزوجته الدعاء والصلاة، تأخر الخلاص بحيث لم تنتظر ابنته الكـــبرى نتـــائج صلوات وأدعية والديها، هربت مع سائق شاحنة كبيرة يقضي معظم أيامه مسافراً على الطرقات السريعة بين بلدان المنطقة، الرجل يقيم في منزل مجاور لمنزل الأسرة، متزوج ولديه أولاد، أبو الخـــير يتجنـــب لقاءه، إذا صادف أن التقاه امتنع عن إلقاء السلام عليـــه متشـــاغلاً بمسبحته وأدعيته، اتخذ من الرجل موقفه هذا لما يعلم عن فجوره فهو لا يكتفي بمعاقرة الخمرة وضرب زوجته بعد كل ليلة سكر، الأدهى من ذلك أنه يصطحب فتيات الرذيلة إلى بيته حيث زوجتـــه وأولاده رغماً عن أنف كل من يعترض، ذهلت عائلة أبـــي الخـــير عنـــدما تيقنت أن ابنتهم قد هربت فكيف إذا كان ما قامت به تمّ برفقة رجل كهذا وهي التي لا تنطق ولا تسمع ولا تخرج من المنـــزل إلا برفقـــة والدها أو أحد أشقائها؟!.. ثورة الغضب العارمة التي اجتاحت أبـــا الخير كانت كافية لتقلب منزله فوق رؤوس ساكنيه بكـــل مـــا في الكلمة من معنى، بالطبع تلقت زوجته وابنته الثانية النصيب الأكبر من العقاب، تساهل زوجته في تربية ابنتها ومراقبة تصـــرفاتها مســـتكينة لإعاقتها هو ما سهل لهذه الفتاة الهروب، بقيت آثار الكدمات علـــى وجه وجسد الأم وابنتها شهوراً طويلة، إذ أن موجات الغضب كانت

تتجدد والعقاب كان يتصاعد كلما تناهى إلى سمع الرجل أنباء جديدة عن ابنته، لم يصدق مثلاً أن ابنته قد خلعت حجابها وباتت تسير في شوارع مدينة أخرى سافرة الوجه واليدين.

انقضى الأمر، لم يعد يظهر الجار الخاطف في الحي على الإطلاق، ترك زوجته وأطفاله ولا أحد يعلم إن كان ما يزال يعيلهم أم لا، كفت الأسرة عن ذكر ابنتها الهاربة، تركت الكارثة ندبة في قلب الأب لم يتمكن الزمن من شفائها حتى يومنا هذا، كذلك تُركت الابنة الثانية حبيسة غرفة مقفلة لا يملك أحد من الأسرة مفتاحها سوى أبي الخير وابنه البكر خير الدين، الأم حبست نفسها بإرادتها، لم تعد تغادر منزلها على الإطلاق، باتت تقضي وقتها بين سجادة صلاتها ومطبخها، تضامناً مع إعاقة بكرها وابنتيها، تكفيراً عن ذنوبها وذنوب ابنتها الهاربة، كفت المرأة عن الكلام بعد آخر موجة غضب انتابت زوجها تلقت فيها الضرب هادئة مستكينة، منذ ذلك الوقت لم يسمع أحد أم خير الدين تنطق بحرف واحد.

خرج أحد الزبائن من فندق الرحاب مخموراً لدرجة لم يتمكن معها من ارتداء ملابسه كما يلزم و لم يكلف نفسه عناء إزالة آثار حمرة الشفاه من على وجهه.

اقترب من مطعم أبي الخير وجلس متهالكاً إلى إحدى الطاولات:

- عطينا صحن فول باللبن معلم... قال الرجل.
- قوم انقلع من هون... قوم الله يلعنك ويلعن كل واحد متلك... قال أبو الخير.

- روح جبلي صحن فول باللبن أحسن ما... لم يتمم الرجل جملته، قطعتها دفعة قوية وجهها أبو الخير إلى صدر الرجل أردته على ظهره بعيداً بضعة أمتار.
- شو بدك فيه أبو الخير، تريك الرجال يروح بحاله لا تنزعلنا مسانا.... قال غازي.

نهض الرجل مغادراً وهو يلملم شتات نفسه متمتماً بأقذع العبارات.

أمام خيمة أبي داغر بحث رجل مستطلعاً المكان بناظريه، رفع الشادر الأزرق، شاهد زيرو وسجية كل على فراشه يغط في النوم، تقدم الرجل من زيرو هزّه بخشونة مستخدماً ركبته:

- وينه معلمك؟... قال الرجل لزيرو الذي صحى مذعوراً.

يبدو أن الرجل كان أحد زبائن الخيمة المداومين:

- ما بعرف.. بيكون عم يعمل فتله بالسوق.. رد زيرو.
- نزل بنطلونك.. منخلص من هون ليرجع... قال الرجل آمراً زيرو فيما يرخي سحاب بنطاله.

سجية انقلبت على جنبها معرضة عن الرجل وزيرو.

في سوق البسطة تعتبر الإعاقة مصدر سخرية أو مصدر شفقة في أحسن الأحوال تنفع لمزاولة التسول، يتجنب خير الدين الاحتكاك بالناس، بنيته القوية المشابهة لبنية والده جعلته يخاف من نفسه إذا غضبت، يحبذ الابتعاد عن خوض الشجارات لئلا تودي به إلى قسم الشرطة، في الأوقات التي يتواجد فيها الشاب برفقة والده في المطعم، يعمل خلف طاولة الرخام التي يتم تحضير صحون الطعام عليها في حين يتعاطى أبو الخير مع الزبائن.

الاستثناء الغريب لقواعد خير الدين في العلاقة مع الآخرين كان زيرو، فوجئ بنفسه يهتم بالأخير رغم معرفته لحقيقة ما يقوم به زيرو من نشاط ليلي في السوق، لم يتعد الأمر بينهما تبادل النظرات والابتسامات، يتم تبادلها خلسة، من طرف خير الدين على الأقل، تهرب من الشاب ابتسامته، يستدرك نفسه، يتلفت حوله ليتأكد من عدم لفته لأنظار الفضوليين المترصدين في كل بقعة من سوق البسطة، أحياناً عندما يشعر بأمان محيطه يعود لرسم ابتسامة واثقة نحو زيرو، الأخير تفهم حرج خير الدين وتقبله، فكر أكثر من مرة أن يكتب رسالة ويتركها في مكان ما تحت ناظري الشاب، لم يكن يدري إن كان خير الدين يحسن القراءة، هو نفسه بالكاد يعرف القراءة والكتابة، لو لمح هاتفاً نقالاً في يد الشاب لأصبح التواصل عبر الرسائل النصية أسهل، بقيت العلاقة فيما بينهما ضمن حدود النظرات والابتسامات المختلسة بعد أن أدرك زيرو اليأس من إمكانية التواصل المباشر مع خير الدين.

من جهته عانى خير الدين الأمرّين، تربيته الدينية الصارمة التي علمته أن ما يشعر به هو منتهى الكفر والفجور من جهة وخوفه من والده من جهة أخرى، كان يدرك أن مجرد ملاحظة عابرة لنظرة يتبادلها مع زيرو تعني نهايته، الوالد ما كان ينقصه مصيبة أخرى، هذا كله عدا ما يمكن أن تسبب له هذه النظرات والابتسامات من فضائح في السوق لن تتوقف عند حد إذا أضيفت إلى إعاقته، حبس خير الدين مشاعره تجاه زيرو، عانى منها بمفرده بعد أن تورمت لديه إلى حد شابه المرض العضال، كان يحسد محبوبه على حريته وجرأته التي يتحرك فيها على أرض سوق البسطة، تتقد أشواقه في الليل، يلجأ

للصلاة، يلمحه والده فيما هو غارق في أدعيته وتوسلاته، شاهد دموعه تنساب على وجنيته أكثر من مرة، ابتسم لنفسه مطمئناً إلى صلاح تربية خير الدين، صمم على مكافأته بالبحث له عن زوجة صالحة تطمأن إليها نفسه.

6... فندق الرحاب

ممر طويل فوق دكاكين العبارة اصطفت الغرف على جانبيه متناسقة بما يناسب أعمال الشركة التجارية المهمة والمحترمة التي كانت تشغل المكان قبل أن يتحول إلى فندق "شركة هيثم الصارم"، تكاد تكون غرفة واحدة تم تكرارها عشرين مرة، قُسم الممر بواسطة جدار خشبي يتوسطه باب مقفول لا يملك مفتاحه سوى أبي السرور مستثمر الفندق، الجدار الخشبي ترك لفندق الرحاب العام خمس عشرة غرفة، فيما بقية الغرف الخمس شغلها فندق الرحاب الخاص.

المدخل الرسمي لفندق الرحاب العام يقع قبالة البناء الحكومي مباشرة، أقحم مكتب الاستقبال إلى يسار الدرج الصاعد إلى أعلى حيث كان يجلس بواب البناء سابقاً، لا يشغل مكتب الاستقبال هذا أكثر من مترين مربعين، ثلاثة إذا أضفنا المساحة الواقعة تحت الدرج الصاعد للأعلى، مكان ضيق بالكاد يتسع إلى طاولة معدنية متصدعة يجلس خلفها الموظف الوحيد في الفندق، وُضع على الطاولة سجل مهترئ لم يُكتب فيه اسم أحد من الزبائن، إذ غالباً من يتسلم تصريف شؤون فندق الرحاب العام يكون رجلاً لا يتقن القراءة والكتابة، خلف الطاولة وُضعت معدات لتحضير الشاي، بقايا طعام وكنبة نخرها القوارض، فقدت اثنتين من أرجلها،

استعيض عنهما بقطع خشبية، لا تتسع لمنامة الموظف إلا إذا طوى ساقيه.

القسم العام من فندق الرحاب خصص للزبائن العاديين، يـــدير شؤونه بنفسه وبشكل آلي، حتى أن غرفه لم تكن تقفل، كانت تجري الأعمال فيه ببساطة ووضوح بحيث أنّ قليلاً من المعوقات قد تحدث، حشر أبو السرور الممر والغرف بأسرة معدنية ضيقة تكفي لنوم الزائر ووضع حقيبته إن وجدت تحتها، الخزائن كانت رفاهية لا تناســـب الفندق، السعر محدد بثلاثمائة ليرة للسرير الواحد في الليلة، بإمكـــان الزبون أن يختار السرير الذي يناسبه دون تحديد، لم يكن وارداً بطبيعة الأحوال مبيت النساء في الفندق، في الحالات النادرة التي اصـــطحب فيها أحد الزبائن عائلته لجهله طبيعة هذا الفندق، يضطر ذلك الزبون لاستئجار كافة أسرة الغرفة ليتمكن من إغلاق بابها.

الإشكالات الحاصلة في الفندق العام كانت لا تتعدى الازدحام الصباحي على الحمامات المشتركة أو رغبة أحد الزبائن الاحتفـــاظ بالسرير نفسه لأيامه المتتالية من الإقامة، صـــوت الشـــخير المرتفـــع وإطلاق غازات البطن ليلاً لا يحق لأحد الاعتراض عليها، كل تلـــك المشاكل لم تكن تشغل بال أبـــي السرور، أياً كان من يدير الفنـــدق فهو كفيل بحل مشكلة الستين سريراً بكل يسر وسهولة.

إدارة فندق الرحاب العام لا يمكن أن توصف بالعمل الحقيقـــي لمن يكلف به، الأمر لا يتعدى كنس أرض الفندق مرة كل يـــومين وغسلها بالماء مرة كل أسبوع، أما غسيل الشراشف فهو بالكاد يجري مرة كل بضعة أشهر، بناءً عليه لم يكن أبو السرور يدفع أجـــراً لمـــن يقوم بهذا العمل، يكتفي بتوظيفه بعد أن يصادر بطاقة هويته لتبقى في

حوزته طالما هو يعمل في الفندق لديه، يمكن اعتبار منامة الموظف في مدخل الفندق أجراً، لم يكن يسمح أبو السرور لأي موظف بالنوم على أسرة الفندق حتى لو كان أحدها شاغراً، من يحصل على هذا العمل يتقاضى فتات إكراميات، فمن الذي سيدفع إكرامية في الوقت الذي لم يتمكن فيه من النوم بفندق غير فندق الرحاب العام، إن هي إلا بضع ليرات زادت عن ثمن شفرة حلاقة أرسله الزبون لشرائها أو بقايا وجبة طعام أحضرها أحد ما معه إلى الفندق.

اكتفى أبو السرور بمراقبة ما يجري في الفندق العام بواسطة كاميرة وحيدة علقها أعلى الجدار الخشبي الذي يقسم الممر، كانت تنقل له صورة كافية لما يلزم معرفته عن مجريات العمل في الفندق العام.

القسم الثاني من الفندق هو الرحاب الخاص الذي يحتجب خلف الجدار الخشبي المستحدث في الممر، أبو السرور نفسه يقيم فيه بعد أن اتخذ لنفسه غرفتين واحدة لمنامته والثانية لمعيشته في حين ترك لفتياته ثلاث غرف يشغلها في الوقت الراهن كل من بدور ووردة وغنوة.

أبو السرور تمكن من فتح مدخل خاص لهذا القسم من الفندق في الطرف المعاكس للبنائين الحكوميين، لم يكن ذلك المدخل سوى درج معدني ضيق يقود إلى الطابق الأول رُكب عليه شادر من القماش السميك لحجب المدخل عن أعين الفضوليين، الزبون يختفي بمجرد أن يضع رجله على الدرجة الأولى من الدرج الصاعد، المدخل المستحدث كان ضرورة ملحة لتحاشي صعود ونزول زبائن فتيات أبي السرور على مرأى من ضباط وعناصر قسم شرطة مركز

المدينة، تردد في السوق أن المساعد أول أبا غسان "الملك" هو من أوعز لأبي السرور بفتح هذا المدخل بناءً على توجيهات عليا في داخل قسم شرطة مركز المدينة.

تلك كانت إمبراطورية أبي السرور، أحس الرجل بأنه قادر من خلالها على التحكم في العالم بأسره، ينغص عليه أن تلك الإمبراطورية كانت تتهاوى بسرعة عندما يفد إلى زيارته شخصية مهمة كالمساعد أول أبي غسان أو أحد ضيوفه، طريقة تعامل هؤلاء معه تذكره بحقيقة عمله الذي لا وصف آخر له سوى كلمة "عرصه" اللقب الذي يطلقه أهل سوق البسطات عليه فيما بينهم، لا يبالي كثيراً بنظرات وهمسات الناس التي يقرأ حركة شفاهها تنطق بتلك الكلمة، يرد عليها بنظرات وقحة متحدية مستنداً إلى الدعم اللامحدود الذي يمنحه إياه المساعد أول أبو غسان، إصرار الأخير على مجامعة من ترغب بها نفسه من الفتيات على سرير أبي السرور نفسه في حين ينتظر هو خارجاً هذا ما كانت نفسه لا تطيقه، "الملك" وضيوفه يُشعرونه بتفاهة قيمة إمبراطوريته التي يتوهم وجودها.

بالنسبة للملك بديهيٌ أن يشمئز من غرف الفتيات، كما أنه ليس من اللائق لشخص في مكانته أن يمارس متعته في المكان نفسه المخصص للزبائن العاديين.

- معلم شو منها تاركين خمستعشر غرفة للزباين الجربانة.. خلينا نقلب الفندق كله غرف للبنات.. بشرفي لنقبر الفقر بليلة وحدة... قال أبو السرور لأبي غسان فيما كان الأخير يداعب نهدي فتاته المفضلة وردة.

- لا تحكي بشغلة ما بتفهم فيها.. لولا هدول الزباين الجربانة ما في قوة بتخليك تفوت زبون لعند بنت من بناتـــك.. رد "الملك" بفظاظة.

باستثناء تلك المنغصات كان أبو السرور يعيش حياة هانئة بـــين فتياته، حتى عندما كان يواجه مشكلة مع أحد زبائن فتياتـــه كـــان كسار حارس الإمبراطورية والمعتمد الرسمي من قبل أبـــي السرور في استقبال الزبائن وجبـــي المال منهم كفيلاً بحل أي خلاف، إن ساءت الأمور فالرجل قادر على أن يخرج رأسه من نافذة غرفته المطلة علـــى الغرف القماشية الثلاث لينادي أبا داغر وغازي اللذين لن يتوانيا عن تقديم خدماتهما في أي شجار، أبعد ما يمكن أن تتفاقم إليه الأمور لم يكن يستدعي أكثر من اتصال صغير بـــ "الملك" لينهي الإشكال بمـــا يرضي أبا السرور أو ما يمكن أن نسميه مصلحة العمل، بالنهاية زبائن الرحاب الخاص لم يكونوا سوى طالبـــي متعة حالهم أحسن قليلاً من حال زبائن سجية وزيرو.

كان والد أبو السرور مغرماً بالأدب الشعبـــي، قرأ سيَر ومآثر البطولة، أعجب على وجه الخصوص بقصة الشاعر البدوي ســـاري الذي تركته عشيرته يصارع مرض الجدري وحيـــداً في الصـــحراء وارتحلت مبتعدة عنه خوفاً من العدوى بعد أن أجبرت والديه علـــى الرحيل معها تاركة الشاب لمصيره يحرسه كلبه، ساري تغلب علـــى مرضه وعاش متنقلاً بين العشائر حتى وصل إلى عشيرته وفيها محبوبته ريما التي لم تتعرف إليه بعدما شوه الجدري وجهه الجميل.

أطلق الرجل على ابنه اسم ساري تيمناً بذلك الشاعر العاشـــق، نشأ الشاب في كنف أسرة كانت متوسطة الحال تشبه في وضـــعها

السواد الأعظم لأهل المدينة في تلك الأيام، ترنحت هذه الشريحة بضع سنوات بين الفقر وأحلام الغنى حتى حسم الأمر لصالح الفقر فأخذ أولادها يلجؤون للعمل الوظيفي العام والخاص.

"ساري الغزولي" عمل في أحد الفنادق الصغيرة من المدينة كموظف استقبال، اختار الدوام الليلي ليتمكن من إيجاد فرصة عمل أخرى نهاراً، إلى تلك الأيام ترجع معرفة أبي السرور بأبي غسان، كان حينها الأخير أصغر رتبة ويتبع أحد أقسام الشرطة التي تتابع أعمال الفنادق ونزلائها، لا تمر بضع ليالٍ إلا ويحضر الرقيب أبو غسان إلى الفندق الذي يعمل فيه ساري ليتحقق من مدى الالتزام بقوانين السياحة والآداب العامة والأمن، تقيده بتسجيل كل نزيل في السجلات وإرسال نسخة عنها إلى قسم الشرطة عن طريق جهاز الفاكس في الثانية عشرة ليلاً من كل يوم، منع إيواء المشبوهين، منع تسهيل أنشطة الدعارة، التزم ساري بالقوانين قدر الإمكان، غض النظر في بعض الأحيان عن طلب الأوراق الثبوتية لفتاة يصحبها شاب لقضاء بضع ساعات في الفندق مقابل إكرامية لابأس بها، أتاه الرقيب أبو غسان نفسه في بعض الليالي مصطحباً فتاة ما ويريد غرفة يقضي معها ليلته مجاناً بالطبع، تنقل الشاب من فندق لآخر لأسباب شتى، ساعده الرقيب أبو غسان ذات مرة لإيجاد فرصة عمل في فندق يعرف مديره معرفة جيدة، بات ساري على علاقة جيدة بالرقيب أبي غسان، حمل إليه بعض الهدايا، دعاه لتناول الطعام أكثر من مرة في مطاعم المدينة، سُعد ساري بعلاقته مع الرقيب أبي غسان واطمأن لوجود رجل قد يحتاج دعمه في الملمات وما أكثرها في المدينة.

لم يُخيب الرقيب أبو غسان أمل صديقه ساري، أنقذه من ورطة كادت تودي به إلى السجن عندما سمح الأخير لنزيل فندق يعمل فيه باستضافة صديق له دون تسجيل أوراقه الثبوتية، بالطبع لم تكن خدمات ساري مجانية، عندما شاهد الأخير الشرطة تقتحم الفندق باحثة عن هذا الضيف أدرك أيّ ورطة أوقع نفسه فيها، الرقيب أبو غسان تمكن من إخراج ساري من القضية بعد أن تقاضى منه مئات آلاف الليرات وزعها هنا وهناك لإسكات أفواه رؤسائه، لم يترك منها لنفسه شيئاً على حد زعمه، أهل ساري جمعوا المبلغ بشق الأنفس، مئات الآلاف كانت حينها مبلغاً كفيلاً بشراء بيت متواضع في المدينة، دان ساري للرقيب أبي غسان بالامتنان والولاء، لم يطل الأمر حتى تمكن الأخير من تشغيل الشاب في فندق آخر يقع في مكان متطرف عن المدينة.

الفندق الذي عمل فيه ساري لم يكن أكثر من واجهة لموائد قمار باذخة تجلس إليها الطبقة المخملية من أهل المدينة وتنفق عليها مبالغ خرافية كل ليلة:

- القمار ممنوع.. كيف ساكتين عليهن؟!.. قال ساري للرقيب أبي غسان بسذاجة أضحكت الرجل ملء شدقيه.

العمل هناك كان مربحاً إذا استطاع الموظف أن ينضم إلى جوقة من الموظفين تدير المكان، إكراميات من المقامرين الرابحين، تلاعب بأصناف المشروبات الكحولية، فتيات ليل جميلات متأنقات يدفعن الرشاوى للموظفين ليُسمح لهن بالجلوس حول موائد اللعب، زبون يطلب فتاة لمرافقته بعد خسارة مبلغ محترم ليفرغ فيها انزعاجه، عالم

هوليوودي ما كان يتخيل ساري وجوده في مدينته ولو تحدث عنه لما صدقه أحد، كانت كل تلك العلاقات الملتبسة بين الزبائن والموظفين تحصد أموالاً وفيرة، الرقيب "أول" أبو غسان ساعد ساررياً ليكون أحد الموظفين الذين يتقاضون المال الذي ينهمر من المصادر الجانبية مقابل مبلغ شهري محترم، خمس وعشرون ألف ليرة يتحصل عليها الرقيب "أول" أبو غسان من ساري شهرياً، راتب موظف من الدرجة الأولى لدى الجهات العامة في المدينة، تناهى إلى سمع ساري أنه ليس سوى واحد من فرقة موظفين في الفندق وفي أماكن مختلفة سعى الرقيب "أول" أبو غسان لتوظيفهم مقابل خوات شهرية تختلف في قيمتها حسب نوع العمل، من نقل إليه الخبر أكد له أن الأخير مجرد واجهة لضابط شرطة مهم هو من يفرض توظيف هؤلاء وأن ما يجنيه رقيب الشرطة لا يدخل منه إلى جيبه سوى النذر اليسير، بالفعل شاهد كبار الموظفين في الفندق كيف يستقبلون الرقيب "أول" أبا غسان عندما يزور الفندق بثيابه المدنية بين فينة وأخرى، طريقة استقبالهم له كانت تفوق رتبته الشرطية بكثير، علماً بأن كبار موظفي الجوقة المصطفاة في الفندق كانوا يتحصلون على مبالغ كبيرة ويركبون سيارات فارهة كسيارات الزبائن أنفسهم لدرجة تعتقد فيها أن هناك قوى فوق بشرية تقف خلف موقعهم الوظيفي.

استمر عمل ساري في ذلك الفندق حتى باشر فندق الرحاب أعماله في السوق، حينها وجد المساعد أول أبو غسان أن سارياً بات مؤهلاً تماماً لإدارة عمل من هذا النوع، خبرة الأخير باتت ممتازة في العمل الفندقي على مختلف أنواعه، والأهم أن سارياً أتقن ممارسة العلاقة مع شخص خطر مثل "الملك".

- أنته أبو البسط والسرور يا ساري... قال أبو غسان في نهاية ليلة ماجنة رتبها ساري للرجل في فندق الرحاب، منذ ذلك الحين أو قبله بكثير اندثر ساري ذلك الشاعر المتجـــول في الصحراء، حل محله أبو السرور ليدير فندق الرحاب الخاص خلف واجهة فندق الرحاب العام.

دخل شابان إلى الفندق، لم يتحرك كسار من أمام كرسيه فقـــد كان يتابع فيلم أكشن أجنبـــي على إحدى الفضائيات العربية:

- بقديش الدخلة معلم.. قال أحد الشابين بثقة من اعتاد ارتياد مثل هذه الأماكن.
- نص ساعة ألفين وخمسميت ليرة.. رد كسار وهو مـــا زال يتابع الفيلم.
- والبنات حلوين؟...
- غنوة ورجونا طولكن... نادى كسار باتجاه غرفة غنوة.

ظهرت الفتيات بعد لحظات على باب الغرفة وهـــن يرتـــدين ملابس نوم شفافة رغم أن الفندق ليس بالمكان الدافئ تماماً.

اختار الشاب الأول بدوراً واختار الثاني غنوة.

عادت وردة إلى غرفتها فقد كانت أقل من رفيقتيهـــا جمـــالاً وجسمها ممتلئ إلى حد السمنة تقريباً، أبو السرور كان ينوي استبدالها لكن رغبة "الملك" بها تمنعه، إذ أن وفرة لحمها وبذاءة لسانها المفرطـــة كانت تناسب ذوق الرجل.

تتوقف أعمال الرحاب الخاص في السادسة صباحاً، يغلق الفندق باب الدرج المعدني حتى غياب الشمس، كسار لا يعـــاود اســـتقبال الزبائن إلا عندما تبدأ البسطات بالرحيل وتقل حركة المارة في السوق.

لا يشذ عن روتين العمل هذا سوى قدوم ضيف لأبـــي السرور أو موفد من قبل "الملك"، عندها يستقبلون هذا الضيف عن طريـــق مدخل فندق الرحاب العام ومن ثم الباب الخشبـــــي الموجـــود في منتصف ممر الفندق، يتم إيقاظ إحدى الفتيات لتقدم خـــدماتها الـــتي غالباً ما تكون مجانية في الحالات المماثلة، إلا إذا تكرم هـــذا الزبـــون بترك إكرامية للفتاة كانت تحتفظ بها لنفسها.

أبو السرور عافت نفسه ممارسة الجنس رغم أنه بالكاد تجـــاوز الأربعين من عمره، في السنوات الأولى من العمل في فندق الرحاب لم يكن يسمح أن تعرض أي فتاة جديدة تفد إلى الفندق على الزبـــائن، يستأثر بها لنفسه، تنام في سريره كالزوجة لشهرين أو أكثر، بـــالطبع هذا الاستئثار لا ينطبق على "الملك"، عندما يملّها يخصصها بإحـــدى غرف الفتيات لتباشر عملها في الفندق، رغبة في التغيير عن فتيـــات فندقه كان يتصل بين حين وآخر بمعارفه من أبناء المهنة ليرسلوا إليـــه فتاة تقضي ليلها بين أحضانه، إذا كان العمل مزدهراً والمال يجري بين يديه يطلب ثلاث أو أربع فتيات دفعة واحدة ويدعو صديقه "الملك" لقضاء ليلة حمراء تمتد حتى الصباح.

بدأ يتعاطى الحبوب المنشطة لحيويته الجنسية، أراد أن يروي شبق نفسه حتى النهاية، أخذ يغوص نحو قاع بئر المتعة معتقداً أنـــه كلمـــا تعمق أكثر استمتع أكثر، قاع ذلك البئر لا وجود له، بـــات يعتمـــد على الحبوب المنشطة كلياً، وصل إلى مرحلة توهم فيها أنه لن ينجح في تحقيق الانتصاب إلا إذا تعاطى تلك الحبوب، يضاف إلى كل ذلك حياته اليومية بين فتيات ألفن وجوده فكن يتحركن شبه عاريـــات أو عاريات أحياناً بين غرف الفندق دون أي حرج من وجوده أو وجود

كسار، شاهد الفتيات يبدلن فوط الدورة الشهرية، عايش أمراضهن النسائية والجنسية، فقد جسد المرأة بالنسبة إليه سحره وغوايته، بالتدريج بدأ يفقد اهتمامه بالجنس، رغبته نادراً ما تلح عليه، إحدى فتيات الفندق تتكفل بها، يقضيها سريعاً دون مقدمات، بدور كانت الأقرب إلى نفسه لدرجة فكر عدة مرات بالزواج منها، غالباً ما يقضي شهوته معها، في النهاية وجد متعة سهلة تقدمها له سيجارة محشوة بحشيشة الكيف عوضته عن فقدانه الاهتمام بالجنس.

لم تكن الفتيات يغادرن الفندق إلا فيما ندر ولأسباب ضرورية بحيث لا تتعدى فترة غياب إحداهن عن الفندق أكثر من بضع ساعات في الأسبوع، إذا فعلت كانت الواحدة منهن ترتدي ثياباً فضفاضة تغطي معظم جسدها دون أدنى تبرج يلفت النظر إليها، أكثر ما يخشاه أبو السرور أن تتورط الفتاة بمواعدة زبائنها خارج الفندق، علاقات من هذا النوع تسبب خسارة مالية للأعمال، منعاً للأكاذيب والحيل غالباً ما يكون كسار رفيق تلك المغادرات الخاطفة، أساساً لا مبررات لمغادرة الفندق، الأهل والأصدقاء باتوا من ماضي الحياة لغالبية الفتيات اللواتي مررن على فندق الرحاب الخاص، لوازم المعيشة في الفندق يمكن تأمينها بسهولة، السجائر هي أكثر المستلزمات أهمية لدى الفتيات على الإطلاق، كسار يحملها إلى الفتيات من بسطة أبي داغر، العلاقة بين التدخين وفتيات الفندق وطيدة لدرجة الهيام.

تلك القوانين وضعها أبو السرور حفاظاً على دقة سير العمل ومنعاً لحدوث المشاكل الخارجية والداخلية، على سبيل المثال نشوب شجار بين الفتيات كان يعني تعرضهن جميعاً للضرب من قبل أبي السرور دون الاكتراث لأسباب الشجار أو لصاحبات الحقوق فيه،

تلك الرعونة في التعامل مع الفتيات كانت مقبولة بالنسبة إليهن طالما أنهن يحصلن على الحماية وعلى مستحقاتهن المالية دوماً.

خرج الشاب الأول من غرفة بدور سريعاً.

- صب شاي من هون ليخلص رفيقك... قال كسار.

صب الشاب لنفسه الشاي منتظراً و لم يطل الأمر حتى خـــرج الشاب الثاني من غرفة غنوة واتجها نحو الباب يريدان المغادرة.

- شبنا شباب؟.... قال كسار.

التفت الشابان نحوه:

- ما في إلي إكرامية؟..... قال كسار بوقاحة.

لم يكن طلب كسار للمال استجداءً، نبرة صوته ونظرة عينيـــه كانتا كفيلتين بأن يترك له أي زبون بضع مئات من الليرات، ما كان يجنيه كسار من إكراميات هي مصدر دخله الوحيد من عمله هذا فأبو السرور لم يكن على استعداد لأن ينقده ليرة واحدة.

7... بدور

أكثر فتيات فندق الرحاب الخاص جمالاً رغم أنها أكبرهن سناً، أقلهن انسجاماً مع مهنتها، ترفض القيام بأي فعل يرضي زبائنها حتى لو وُعدت بمبلغ إضافي يدفعه لها الزبون كإكرامية.

- قلبـــي على بطنك.. قال الزبون لبدور فيما هو يجثو علـــى ركبتيه عارياً فوق سريرها وهي مسجاة تحته على ظهرهـــا بانتظار أن يلجها.
- غير على ضهري ما بتسطح.. وإذا ما بيناسبك طلاع لعند الشب يلي قاعد برا خليه يفوتك على بنت تانيـــة... ردت بدور بنبرة قريبة إلى اللؤم.

تستلقي على ظهرها دائماً، ترفض أن يقبلها أحد من شـــفتيها، تتمسك بارتداء حمالة نهديها حتى لا يُثار زبونها أكثر مـــن الـــلازم، تشيح بنظرها عن الرجل المستلقي فوقها تاركة له إنهاء رغبته بمفرده، في كل مرة تغمض عينيها وتذهب بعيداً بأفكارها، تستعيد نفســـها "ياسمين" الفتاة الشابة التي كانت ترى الجمال في كل زاوية من زوايا مدينتها، مؤمنة بنفسها وبمستقبلها، حالمة أكثر من اللزوم في مدينة لا ترحم، لم تتوقع أن العهر والبشاعة باتا ينخران كل زاوية في عقـــول ونفوس أهل المدينة، وافقت على طلبات الصداقة التي كانت تردهـــا

عبر شبكات التواصل الاجتماعي رغم أنها لا تعرف غالبية مرسليها، لم ترَ في الأمر ما يضير طالما هي قابعة في منزلها وقادرة على حذف أي شخص يفكر في الإساءة إليها، قرأت على شاشة حاسوبها الكثير من كلمات الإعجاب والمديح في كل مرة تضيف لملفها صورة جديدة، علماً بأنها ما كانت لتضع صورة تتجاوز فيها حدود الحشمة، من كان يتوقع أن فراس بكلمات شعره الرقيقة وروحه المرحة وأصدقائه من نجوم المجتمع ما هو إلا صياد محترف.

جرى اللقاء الأول فيما بينهما على أكمل وجه، تورمت أحلام ياسمين بعد أن غادرت العالم الافتراضي لتحط في العالم الواقعي، لم يغادر الحذر تصرفات ياسمين، تجمح بأحلامها عندما تغمض عينيها فقط، تضبط نفسها إذا ما فتحتهما، فراس بدأ ينفذ صبره إزاء تمنعها عن دعواته لها لقضاء بعض الأمسيات في أرقى النوادي الليلة أو الشقق الفاخرة الخاصة، رغم ما بذله من وعود في الحفاظ عليها وهي التي باتت حبيبته وخطيبته الموعودة، والدها شجعتها على العلاقة بالطريقة التي تجري فيها من تمنع ودلال فهي الطرق المجربة والمضمونة لحمل أي شاب على الزواج من الفتاة دون مداورة أو تأخير.

حمل فراس ورفيقاه ياسمين عنوة إلى شقة "المعلم" الفاخرة بعد أن رفضت صعود السيارة رباعية الدفع ذات الزجاج القاتم، جرى المشهد في وضح النهار وعلى رؤوس الأشهاد دون أن يتمكن أحد من التدخل لنجدة الفتاة التي أخذت تصيح رافضة دخول السيارة بكل ما أوتيت من قوة، من كان يجرؤ على التدخل والجميع يعرف لمن تعود السيارات التي تتنقل في شوارع المدينة من دون لوحات تسجيل وبنوافذ تحجب الرؤية.

لم يكن "المعلم" هذا سوى فتى لم يبلغ العشرين من العمر بعد، الفتى معروف بأنه أحد معالم المدينة الطارئة في فجوره وموبقاته، لم يطل الأمر بهذا "المعلم" حتى أدركه الملل من ياسمين بعد أن فضَّ بكارتها وضاجعها المرة تلو المرة، رمى بها إلى فراس وبقية الرجال متفرغاً إلى شبكة التواصل الاجتماعي بحثاً عن صيد جديد.

عادت ياسمين إلى منزل أهلها، تلقت منهم الضرب المبرح حيناً والتعاطف حيناً آخر، أودعتها أمها في منزل بعض الأقرباء ريثما تهدأ الخواطر، عندما أفرغ أهلها غضبهم منها تحولوا إلى من أجرم بحقها، حاولوا الاقتصاص منه، محاولاتهم لم تتعد إطلاق التهديدات، تلقى والدها بالمقابل هواتف التهديد من جهة ونصائح المقربين من جهة أخرى، الصمت على ما حدث دون اللجوء إلى الجهات المعنية هو الخيار الأمثل، أساساً الجميع يعلم تمام العلم أن الجهات المعنية لا تجرؤ أن تحرك ساكناً عندما يتعلق الأمر بمجموعة من "المعلمين" لهم وضعهم الخاص في المدينة، ابتلعت العائلة ما سمي بـ "الحادثة"، انطوت الفتاة على نفسها تجتر مرارتها وذلها، ياسمين بعد محاولات عديدة فاشلة للانتحار وليال لا تنتهي من البكاء، اتخذت قرارها رأفة بأهلها وبالعار الماثل أمام عيونهم ليل نهار، قرارها لم يكن سوى عقوبة اتخذتها بحق نفسها إذ عادت إلى فراس واضعة نفسها تحت تصرفه، بدأت العمل في أرقى النوادي الليلية لتنحدر سنة تلو الأخرى من مستوى إلى آخر أقل شأناً وما إن تجاوزت الثلاثين حتى وجدت نفسها في فندق الرحاب الخاص.

حاولت ياسمين عبر سنوات عملها كمحترفة أن تتجنب ما أمكن لقاء أحد من أهلها أو قدامى معارفها، نجحت في ذلك إلى حد

كبير، حياتها كانت ليلية تهجع بعدها إلى السرير مع تباشير الصباح عكس ما يعيشه الغالبية العظمى من أهل المدينة، مرة واحدة صادفت أمها وجهاً لوجه في أحد الأسواق، صدمها الوجه الذي يحمل تجاعيد شيخوخة مبكرة لا تناسب عمر والدتها، الأم لمعت عيناها بدموع مشاعر مختلطة من الحب والشوق والشفقة والحزن، حارت فيما يتوجب عليها أن تفعل، أنقذها انسحاب ياسمين الصارم من أمامها، في تلك الليلة جرت محاولة ياسمين الأخيرة للانتحار، بعدها أصبحت تعيش في عالم أحلامها فقط.

انتعشت فيها الحياة إلى حد ما عندما التقت أبا السرور، تلقاها الرجل بالعناية المعتادة التي يعامل بها أي فتاة جديدة تفد إلى فندقه قبل أن تصبح واحدة ضمن طابور الفتيات لا أكثر ولا أقل، حاولت أن تتودد إلى الرجل بعدما علمت أنه عازب علّه ينتشلها من حياتها ويمنحها لقب زوجة، اعتقدت أن أمثاله لا يستهجنون الزواج من محترفة، بعد محاولات عديدة فهمت ياسمين أن أبا السرور لا اهتمام له بالأسرة والزواج، حتى اهتمامه بالجنس بات ضئيلاً.

تأكدت ياسمين من أنها ستبقى بدوراً وأنها لن تكون تلك الفتاة "ياسمين" إلا عندما تغمض عينيها لترحل بعيداً عن جسد رجل عابر يهتز فوقها لاهثاً.

8... غنوة

"باسمة" هو اسمها الحقيقي.. أرسلها أهلها إلى المدينة ضمن مجموعة فتيات من إحدى القرى البعيدة برفقة امرأة كبيرة في السن وموثوقة لدى أهل القرية لتكون رقيبة مسموعة الكلمة على الفتيات، أرسلوها لتعمل في معمل قريب من المدينة يصنع الحلويات من الفواكه الطازجة بعد تجفيفها، عمل موسمي جرت العادة أن ترسل كثير من القرى بناتها إليه شهرين من صيف كل عام، الفتيات يقمن خلال هذه المدة في غرفة ملحقة بالمصنع، تنام المرأة الرقيب على بابها ليلاً وتكاد أن لا تسمح لفتاة بدخول الحمام دون مرافقتها، جرت الأعمال على هذا المنوال سنوات عديدة دون حدوث مشكلة تذكر، صحيح أن محاولات الذكور من العمال أو أصحاب العمل للتحرش بالفتيات لا تنتهي، لكن تلك المرأة كانت تعرف كيف تتلافى كل تلك الأزمات بخبرة المجرب دون الوقوع بمشكلة مع أحد خاصة أرباب العمل الذين لا يتوانون عن محاولة رشوة هذه المرأة لتغض الطرف قليلاً إن شعروا ببارقة تساهل في رقابتها، المرأة الرقيب كانت تدرك أي فضيحة ستحدث في القرية فيما لو تراخت في تأدية عملها وما سيترتب على تراخيها من تبعات، قبلة واحدة بين إحدى الفتيات وأي شاب كانت كافية لجريان نهر دم فيما لو ضبطت الفتاة متلبسة بها، قامت المرأة

بعملها عبر سنوات على خير وجه متحملة المسؤولية أمام الله وأمام ضميرها وأمام أهالي الفتيات الذين تقسم أمامهم أغلظ الأيمان بالحفاظ على الأمانة في كل مرة تأتي فيها شاحنة رب العمل لتنقل الفتيات إلى العمل في مصنع الحلويات.

باسمة كانت في رحلتها الأولى، بالكاد تجاوزت السادسة عشرة، جسمها ناضج ويطفح بأنوثة مثيرة لا تخفى على أحد حتى لو ارتدت طبقات من الأثواب الفضفاضة وامتنعت عن الاستحمام لدرجة أن رائحة عرقها باتت مقززة، هذه بعض الإجراءات الاحتياطية التي كانت المرأة الرقيب تفرضها على الفتيات، التقط ابن صاحب المعمل أنوثة باسمة، هو الآخر بالكاد بلغ السادسة عشرة، لم يعرف المرأة بعد، أدمن مشاهدة المقاطع الإباحية على الشبكة العنكبوتية، لم يكن لديه سوى يده يفرغ بها أحلام يقظته فيما يتابع تلك المقاطع الواحد تلو الآخر.

باسمة رأت فيه شاباً مختلفاً عن أبناء قريتها، طريقة الكلام، اللباس، التصرفات، حتى الشكل، حيث أن نعومة الشاب، بياض بشرته ولون عينيه، غير كل ما عهدته من سمرة قاسية الملامح والأفعال يتصف بها شباب قريتها، لم يحتج الأمر سوى بضع دقائق هاربة ليتمكن الفتى من فضّ بكارة باسمة دون تبادل كلمات عشق وغرام أو أكاذيب ووعود لن ينفذ منها شيئاً، كما هو متوقع لم يخف الأمر على أحد، مجموعة الفتيات أخذن يراقبن باسمة تبكي منزوية في خوف من يشاهد جثة حية، تلاشت الضغائن الصغيرة التي تشوب علاقة الفتيات ببعضهن، حل محلها التعاطف والحزن، حضرت والدة باسمة بناءً على اتصال من المرأة الرقيب تدعي فيه أن

ابنتها باسمة مريضة، انهالت والدة باسمة على ابنتها ضرباً مراراً وتكراراً، في الوقت الذي كانت المرأة الرقيب تضع رأسها بين يديها وتنوس يمنة ويسرة مرددة:

- انخرب بيتي.... انخرب بيتي.

عادت والدة باسمة دون ابنتها إلى القرية برزمة مال وفيرة وضعها صاحب المعمل بين يديها وحمّلها وعوداً بزيارة قريبة للقرية يتقدم خلالها بطلب يد باسمة للزواج من ابنه حسب شرع الله وما تأخره عن تنفيذ خطوته هذه مباشرة إلا لترك فرصة وقت تهدأ فيها الخواطر، من يعلم ما قد تسببه فورة الدم في عروق عائلة باسمة عندما يعلمون بالخبر؟

عادت كل الفتيات إلى القرية باستثناء باسمة والمرأة الرقيب التي أعلمت عائلتها بالأمر وطلبت منها ترتيب عودتها إلى القرية بشكل يضمن عدم تعرضها للأذية أو الإهانة في حين تركت والدة باسمة ابنتها لمصيرها الذي مهما يكن فهو بالتأكيد خير من قتلها على يد أخوتها، هي على ثقة أن والد الفتى لن يقوم بزيارته الموعودة، وضعت في يد ابنتها جزءاً من المال الذي أنقده إياها الرجل وغادرت دون أن تلتفت إليها مودعة.

توجهت باسمة برفقة المرأة الرقيب للبحث عن مكان يأويهما، المرأة تنتظر اتصالاً يأذن لها بالعودة إلى القرية وباسمة تنتظر المجهول.

وصلت المرأتان سوية إلى فندق الرحاب العام، المرأة الرقيب اتخذت موقفها من باسمة فرفضت مجرد التحدث إلى تلك التي سببت فضيحتها في القرية وانتهاء أجل مهنتها كرقيب ورش عمل فتيات المصانع.

أبو السرور لم يصدق عينيه عندما نقلت إليه كاميرة المراقبة الموضوعة أعلى الجدار الخشبي في ممر فندق الرحاب العام منظر باسمة وهي تتحرك بين الأسرّة، أسرع للاتصال بالموظف المسؤول عن الفندق طالباً منه أن يحضر بطاقتي الهوية للمرأتين بحجة تسجيلهما في سجل الفندق كما هو متبع عادة، قرأ البيانات الشخصية للمرأتين:

- بأي طريقة لازم أعرف هي البنت شو جايه تساوي هون... قال أبو السرور لودعة الفتاة التي مرت على فندق الرحاب وارتحلت.

ودعة أزالت المساحيق التي يقتضي عملها أن تطلي وجهها بها، احتشمت في لباسها، ظهرت أمام المرأتين كنزيلة فندق قام موظف الفندق بإغلاق إحدى الغرف لحساب النساء الثلاث لمنحهن الخصوصية اللازمة.

ما تمنعت المرأة الرقيب عن البوح به لودعة، باسمة استفاضت بالحديث عنه عبر الليالي المتتالية التي قضتها ودعة ساهرة برفقة الفتاة المغدورة، باحت باسمة بسرها الذي كانت تعتقد أنه سر الأسرار غير عالمة بأن من تجلس قبالتها كانت قد سمعت عبر سنوات حياتها كمحترفة الكثير من الأسرار حتى أنها باتت لا ترى في سر باسمة سوى مزحة ساذجة.

أي فتاة أرسلتها الأقدار لأبي السرور، بالطبع ما كان يستطيع الرجل أن يجند الفتاة للعمل في فندقه دون إذن من "الملك"، فاستقدام الفتيات للعمل في الفندق كان يتم وفق آليات دقيقة تشرف عليها جهة غامضة.

وقف أبو غسان باستعداد قبالة سيده العقيد عامر أبو النصر في قسم الشرطة:

- ما في مانع بعد ما تعملولها فيشة وتشوف إذا في عليها شي... قال العقيد عامر أبو النصر بعد لحظات تفكير.
- سيدي عم يقلي أبو السرور أنه البنت مفتوحة.. بس مو مقرَّب عليها غير مرة وحدة من ولد صغير... قال أبو غسان مداوراً:
- أنا شو بيهمني من قصة حياتها؟!
- سيدي أنا شفت البنت صغيرة وحلوة عليها جسم... قال أبو غسان بحماس من يشتهيها.
- قلي شو بدك بدون هالتفاصيل.. رد العقيد عامر أبو النصر مقاطعاً بحزم.

أدرك أبو غسان أنه قد تورط بالكلام ولا بد له أن يبوح لسيده بما يفكر به.

- يلي بقصده سيدي.. إذا بتحبوا تشوفوا البنت بشكل خاص.. يعني.. أنا تحت أمركن.. قال أبو غسان وهو يداري حرجه وارتباكه.
- أبو غسان... انقلع برا واليوم لا تبقى تورجيني وجهك إذا بتفتح معي هيك حديث مرة تانية رح ابعتك على سرية التأديب ومنها على بيتك مباشرة... رد العقيد عامر أبو النصر وفي صوته المنخفض ما يثير الرعب في قلب مرؤوسه لدرجة جعلته يفكر ألف مرة قبل أن يقترح على سيده مستقبلاً أي مقترح كان؟

عندما غادرت المرأة الرقيب فندق الرحاب العـــام عائـــدة إلى قريتها، لم تجد باسمة سوى ودعة رفيقة لها والـــتي اقترحـــت عليهـــا بدورها الانتقال إلى غرفتها الخاصة في فندق الرحاب الخاص، عرفتها بأبـــي السرور وقام الاثنان (أبو السرور وودعة) بإدارة الحديث فيما بينهما لإقناع باسمة بالعمل لديهما عن رضى، الفتاة اليافعـــة عنـــدما أدركت ما ينتظرها أخذت تصيح مستنجدة مهددة متوعدة، لم تجـــدِ نفعاً في إسكاتها كل الصفعات التي تلقتها من أبـــي السرور، وجدت في ظهور "الملك" أمامها الخلاص الذي ترجوه عندما عرف لها عـــن نفسه:

- أبوس إيدك يا سيدي.. هدول بدهن ياني اشتغل... سكتت باسمة عن نطق الكلمة وعيونها متعلقة بـــ "الملك" منتظـــرة عونه.
- عاهرة؟.. تابع "الملك" ما كانت تود قوله ببرود.

أدركت باسمة فيما كان "الملك" يفضّ بكارتها للمرة الثانيـــة أن فندق الرحاب الخاص قد أصبح عالمها الجديد الذي لا مفر منه.

9... وردة

أكثر الفتيات انسجاماً مع مهنتها في فندق الرحـــاب الخـــاص، تستمتع مع زبونها إذا راق لها، ما الذي يمنع طالما أن الأمـــر قـــائم لا محالة، جميع فتحات جسدها متاحة دون قيد أو شرط، هذا ســـبب إضافي جعل "الملك" مولعاً بها، رغم أن جمالها محدود ولحم جســـدها وافر أكثر من اللزوم. هناك من يعود لزيارة فندق الرحاب الخـــاص خصيصاً من أجل وردة.

احترفت "هناء" الدعارة عن سابق إصرار وتصميم، نشـــأت في منزل تسود فيه سياسة غـــض الطـــرف، زوج أمهـــا يغـــض الطرف عن زوار زوجته إذا كانوا يحملون بـــين أيـــديهم هديـــة مناسبة.

والمقصود بكلمة مناسبة هنا: مواد تموينية، ألبسة للعائلة، أدوات منزلية، بضعة آلاف قليلة تترك على طرف الطاولة في الصالون تحـــت نظر زوج الأم، أمها بالمقابل تغض الطرف عن زوجها عندما يمد يده ليداعب صديقاتها، أكثر من مداعبات إن سنحت له الفرصة، حالـــة من الانفلات كان سكان منزلها يعيشون فيها. عندما شبت هناء عن الطوق بدأت تلاحظ نظرات زوج أمها إليها، لم تكـــن تســـتهجنها كثيراً في ظل ما تجري عليه الأمور في المنزل لكنها فضلت أن تخـــرج

من نطاق "أسرتها" وتنطلق في رحاب المغامرات المجدية مالياً كما شاهدت أمها تفعل، بسبب قلة خبرتها وغياب من يرعى أنشطتها لم تمضِ سنة قبل أن تدخل السجن بتهمة القيام بأفعال منافية للحشمة وفي المرة التالية خرجت من السجن وقد سجل على قيدها العدلي "ممارسة الدعارة"، هناء لم تشهد في مهنتها أجواء المجتمع المخملي كبدور، إذ لا مقومات لديها تساعدها على ذلك كما أن وجود الراعي المناسب يلعب دوراً أساسياً في هكذا نوع من الأعمال، تقبل أبو السرور وجود هناء على مضض عندما أُوعز له باستقبالها في فندق الرحاب الخاص فقد رأى أنها فتاة بالشكل الذي هي عليه ستقلل من أهمية فندقه وزبائنه، خيمة أبي داغر جديرة بها أكثر من فندقه، أما عن فنون ممارسة الجنس فمن يهتم بها في مكان كفندق الرحاب، النصف ساعة التي تُمنح للزبون غالباً لا يستهلكها، ينقضي الأمر ببضع دقائق يغادر بعدها الرجل محاولاً تناسي خسارته لما دفع مقابل متعة يكتشف أنها تافهة حتى يعنّ على باله مجدداً زيارة هذا الفندق أو ما يشبهه.

في نهاية الأمر أبو السرور ليس بصاحب قرار نهائي فيمن يُشغّل داخل فندقه من الفتيات.

- شفلنا سيادة العقيد عامر إذا بيحكي مشان بيدلولي هي البنت الجديدة بوحدة أحسن... قال أبو السرور لأبي غسان.
- شو أنته جنيت؟!.. سيادة العقيد لا يمكن يتدخل بهيك شغلة إذا بتقطع راسه...

محاولاً إبعاد الشبهات عن سيده.

لاحقاً وقف أبو غسان في وجه أبـــي السرور عندما سنحت له الفرصة لتبديلها رافضاً التخلي عن معشوقة متعتـــه وأصـــبحت وردة أحد ثوابت فندق الرحاب الخاص.

10... كسار وودعة

اكتسب كسار حارس الفندق اسمه من ذراعه القوية التي لم يستطع أحد من أهل سوق ثنيها في مبارزة مكاسرة على الإطلاق، "وسيم" بالكاد بلغ الخامسة والثلاثين من العمر يحمل في تقاسيم وجهه الكثير من صفات اسمه قبل أن تشوهه مشاجرة تركت ندوبها عليه وعيناً يسرى جاحظة تحس أنها تكاد أن تسقط من وجهه إن لم يثبتها باستمرار.

بدأت علاقة وسيم مع فندق الرحاب الخاص كزبون باحث عن المتعة، صادف أن تكون ودعة هي الفتاة التي لبت رغبة وسيم تلك المرة.

لسبب من تلك الأسباب التي يصعب غالباً إيجاد تفسير لها، تعلق وسيم بودعة مع أنها ليست المرة الأولى التي يرتاد فيها الشاب فندق الرحاب الخاص أو غيره، بدأت تنمو داخل الشاب مشاعر حقيقية تجاه ودعة، أخذ يعمل طيلة نهاره خلف مقود حافلته الصغيرة ليهرع بعدها إلى بيته، يستحم، من ثم ينطلق باتجاه فندق الرحاب الخاص وقد أخفى بين ثيابه هدية لودعة، يدفع ضعف ما يترتب عليه ليقضي ساعة معها بدل النصف ساعة، يقضي جلّها في الحديث إليها أو بملامسات رقيقة تقوم بها أصابعه على الجسد العاري المستلقي أمامه،

دفع لأبـــي السرور ما طلبه منه لقاء قضاء ليلة كاملة مـــع الفتـــاة، تكررت هذه الليالي لدرجة أنها استنزفت وسيماً مالياً، تصدى أبـــو السرور لمحاولات الشاب مواعدة ودعة خارج الفندق رغم أنها مـــا كانت لتمانع لو مكّنها أبو السرور من ذلك، الأخير أدرك بعين الخبير أن وسيماً زبون عاشق وهذه ليست المرة الأولى التي يمر فيهـــا علـــى فندق الرحاب الخاص شخص مثله، الرجل استثمار مربح وبمجرد أن ترافقه ودعة خارج الفندق مرة واحدة سيخســـر مســـتثمر فنـــدق الرحاب هذا الزبون الغبـــي، أبو السرور شدد حصاره على ودعـــة، وضعها تحت رقابة صارمة منتظراً المزيد من المال الذي سيحمله لـــه وسيم.

شغف وسيم بودعة أيقظ داخلها "رؤى"، اسمها الحقيقـــي، تعلقت به، صدقت كل حبه وكلماته، أشجانه ولوعته، استعداده لطي صفحة الماضي والزواج منها، إنجاب الأطفال، الحياة الحلـــم لكل فتاة.

- شو إنتي مجنونة؟!.. عياره شهرين بعد ما يتجوزك.. بينسى الحب وبتذكر أنك عاهرة صحيح ما متنا.. بس شفنا غيرنا مات... قال أبو السرور لودعة التي كانت غارقة في نوبـــة بكاء.
- بجرب.. شو خسرانه؟!.. خليني اتجوزه وإذا صار يلي قلت عنه برجع.. ردت رؤى.

لم يكن من الصعب على "الملك" أن يقنع رؤى بخطأ ما تنـــوي القيام به، فالخيارات التي وضعها أمامها لا تتعدى الاثنين: إما اســـتمرار عملها في فندق الرحاب أو ترتيب دخولها إلى السجن بضع ســـنوات

تنسى خلالها وسيماً، تخرج من السجن بعد أن يكـــون شـــبابها قـــد تلاشى.

استمرت العلاقة بين وسيم ورؤى بين صد ورد قرابة عـــام وعين أبـــي السرور ساهرة على ما تجنيه له هذه العلاقة من مال، عندما قرر وسيم التفرغ لحب رؤى، باع حافلته وصـــرف ثمنـــها مقابل وقت رؤى مانعاً أي زبون من أن يقترب منها، أوشك ماله على النفاذ فأصبح عصبياً غيوراً إلى درجة لا تحتمل، حسم أمـــره وقرر اختطاف عشيقة روحه رؤى، لم يدرك أنه بـــات بإمكانـــه اصطحاب رؤى ليتزوجها أو يفعل بها ما يشاء بعد أن دق الإفلاس أبوابه، فندق الرحاب الخاص ليس سجناً وودعة ليست بالبضـــاعة التي لا تعوض، الأمر بالنسبة لأبـــي السرور مجرد استثمار ينتـــهي بانتهاء مال الزبون.

عندما اقتحم وسيم الفندق بعد أن أجرى الترتيبات مـــع رؤى، وجد أبا غسان وعناصره بانتظاره، تلقى منهم ما تلقاه، وأحيـــل إلى القضاء بتهمة التهجم على دورية شرطة وتهم أخرى كانت كفيلـــة بزجه في السجن بضع سنوات، أثناء سجنه دخل في مشاجرة شوهت وسامته.

رؤى ارتحلت عن فندق الرحاب الخاص بكل هدوء، لم يمنعهـــا أحد، أساساً أصبحت بعد الحادثة فتاة نكدة يشتكي منها الزبـــائن، ارتحلت تاركة لفتيات الفندق درساً عن الحب في عـــالم البغـــاء، لم يشاهدها أحد منذ ذلك الوقت في حين حلت وردة مكانها، ولم يعد يذكرها أحد إلا فيما ندر.

خرج وسيم من السجن متوجهاً إلى فندق الرحـــاب الخـــاص

مباشرة، بالكاد تعرف عليه أبو السرور وهو يحمل تلك العين والندوب في وجهه:

- الله يرحمها.. من هداك اليوم ما حدا بيعرف وينها ولا حدا سمع عنها.. قال أبو السرور.

حام وسيم حول الفندق ليالي عديدة دون جدوى، من كافة النواحي وجد أبو السرور فيه رجلاً مناسباً لحماية الفندق وفتياته.

- إذا بتقيم الحب وأكل الهوا من راسك بشغلك عندي.. قال أبو السرور.

وهذا ما كان.. كسار بعد سنوات سجنه واختفاء رؤى فقد اهتمامه بجنس الأنثى لدرجة أن الفتيات يتحركن أمام ناظريه شبه عاريات وهو غير مهتم، باتت تسليته الوحيدة الأفلام الأجنبية التي تعرض على الفضائيات العربية وكحول العبوات البلاستيكية التي يشتريها بسعر مخفض من غازي، يتجرع منها طالما هو مستيقظ عبوة تلو الأخرى.

11... أبو الريح والحمام العمومي

اقتنعت الجهات المعنية بضرورة إقامة دورات مياه للعموم خاصة بعد أن أصبحت الجدران الخلفية لقسم الشرطة ومديرية الاستملاكات العامة موئلاً لا غنى عنه لمن امتلأت مثانتهم، ما قد يفسر بغير معناه الصحيح والبريء، خصص قسم الشرطة أحد عناصره لمنع أي شخص يحاول قضاء حاجته على ذلك الجدار، توجه الناس إلى مرأب السيارات يقضون حاجاتهم هناك، خاصة وأن ازدحام المرأب بالسيارات كفيل بتقديم الغطاء الكافي لفعلتهم، كثيرٌ منهم لم يكن يبالي بوجود أي غطاء، تلبية نداء الطبيعة لا يحتاج إلى أعذار.

بالفعل خلال أيام قليلة بُنيت غرفة من الألمنيوم والزجاج في إحدى زوايا السوق وتمّ إيصال خدمات الماء والتصريف إليها، العدد الذي تنافس على إدارة المكان لم يكن قليلاً، تدخل "الملك" من قسم الشرطة لحسم الموضوع لصالح رجل يدعى "نائل الجردي"، حُدد سعر الخدمة بخمس وعشرين ليرة، يدفع الزبون المال قبل الدخول، أما بالنسبة للزبائن الدائمين والمقيمين في السوق فكانت الخدمة تقدم لهم مقابل خدمات مماثلة، أطعمة، مشروبات، ألبسة مستعملة، بالطبع تقييم العملية التبادلية كان يخضع للدقة الشديدة أحياناً وللتسامح

أحياناً أخرى، المردود كان جيداً قياساً لنوع العمل المؤدى، المبلغ الذي كان يدفعه نائل إلى بلدية المدينة لقاء استثماره هذا لم يكن بالشيء الذي يذكر.

اكتسب نائل اسمه الجديد "أبو الريح" من طبيعة عمله التي جعلت رائحة البراز ترافقه أينما حل.

لم يصل الرجل إلى الخامسة والأربعين من العمر لكنه لسبب يجهله هو نفسه فقد كل أسنانه، بعد أن نحل جسمه خلال مدة قصيرة، أحد العارفين نصحه بأن يجري تحليلاً لمرض السكري.

- لشو التحليل؟!.. ما رح موت ناقص من عمري يوم وإذا متت بالناقص من هالعيشة الزفت... قال أبو الريح.

تقع قرية نائل على حدود البادية، يقيم في السوق مدة لا تقل عن ثلاثة أسابيع متواصلة، يغادر بعدها إلى قريته لبضعة أيام، من ثمّ يعود إلى حمامه، أثناء غيابه يعهد لأحد معارفه المقربين بإدارة شؤون الحمام العمومي، الوصول إلى القرية يقتضي ركوب الحافلة من المدينة لمدة ثلاث ساعات حتى الوصول إلى بلدة صغيرة، ومن ثم ركوب دراجة نارية لمدة نصف ساعة خلف أحد الشبان الذين يقومون بنقل الناس من كراج الحافلات إلى قراهم النائية على طرق ترابية لا يعرف تشعباتها سوى أبناء المنطقة، الدراج ينقل الناس مقابل أجر يتراوح بين المائة والمائتي ليرة حسب بُعد القرية، عادة ما يحمل أبو الريح مواد تموينية يشتريها من السوق بعد أن يساوم طويلاً على سعرها، هي الهدايا التي يحملها الرجل إلى بيته ولا شيء سواها.

تدخل الطمأنينة إلى نفس نائل الجردي بمجرد أن تنطلق الدراجة النارية به، يطرب لسماع هديرها يهز صمت الامتداد اللانهائي لمكان

نادر الوجود يقع في تكوينه الطبيعي بين الأراضي المزروعة وأطراف البادية، في منزله يصبح الرجل ذا شخصية مختلفة، يبدأ وصوله بنشوة عارمة تجتاح سريرته يعب الهواء بعمق حتى توشك رئتاه على الانفجار، يستحم مراراً رغم ندرة الماء، يبدل لباسه، يجلس أمام منزله على مصطبة إسمنتية بين زوجته وأولاده يتأمل الأفق، نادراً ما يتكلم، يراقب أولاده، يخفض بصره إذا ما تحركت أمامه ابنته البكر والتي باتت على مشارف سن الزواج، يرفض إلحاح ابنه على اصطحابه معه إلى المدينة رغم بلوغه السادسة عشر من العمر، يخبر ولده أنه البديل عنه لإدارة شؤون الأسرة في غياباته الطويلة، الشاب يمتثل على مضض، عندما يُسأل عن عمله في المدينة يأتي جوابه غامضاً، يتهرب من زيارات الأهل خوفاً من أسئلتهم، يفضل أن ينفرد بأسرته، أيامه في السوق مليئة بالناس، يشاهد ويتعامل ويتحدث مع ما يكفيه منهم، هنا يحتاج إلى أفق ممتد خال من الرؤوس البشرية يكتفي بالنظر إليه بصمت، نائل في قريته إنسان آخر تماماً، تتحول نشوة نفسه التي جاء بها إلى قريته إلى مقت بغيض كلما اقترب موعد عودته إلى سوق البسطة.

يعود إلى المدينة بعد انتهاء زيارته لقريته، في اليوم الأول لعودته نادراً ما يتحدث لأحد، يكتفي بقضاء نهاره أمام باب الحمام قبل أن يغلق بابه ويتوجه إلى النوم في فندق الرحاب العام.

أبو الريح كان فظاً في تعامله مع زبائن الحمام من النساء عموماً رغم أنه يحب الجنس لحد الشبق، شكلت سجية هوساً لدى الرجل لدرجة أنه كان يسمح لها باستخدام الحمام مجاناً، شذت المرأة عن قواعد أبي الريح في طريقته بالتعامل مع النساء، تنفرج أساريره

بمجرد أن يراها، يرق صوته، وتتسع ابتسامته بما يظهر نيرته الخالية من الأسنان بأبشع صورها.

قرر الرجل ذات ليلة دفع مبلغ الخمسمائة ليرة لأبي داغر مقابل خدمات زوجته، وقف الأخير حائراً أمام طلب أبي الريح، ما اعتاد تلقي طلبات كهذه من أهل السوق، بالنهاية لم يجد في الأمر بأساً طالما أن الرجل مد يده مقدماً التعرفة المطلوبة، سجية رغم كل قذارتها لم تستطع احتمال رائحة أبي الريح وخاصة تلك التي تنبعث من فمه الخالي من الأسنان، ردود فعلها سببت خيبة لأبي الريح جعلته يفقد انتصاب عضوه، خرج من خيمة أبي داغر وهو يلعن في سره كل نساء الأرض مقرراً إلغاء الاستثناء الذي كان قد منحه لسجية بحسن التعامل معها.

ينام أبو الريح في فندق الرحاب العام مقابل مائة ليرة لليلة الواحدة، أوعز "الملك" إلى أبي السرور بمنح الرجل هذا الامتياز، المصادفة حملته إلى سرير ذي خصوصية اكتشفها الرجل صدفة، بات لا يقبل استبداله مهما تعرض للمغريات أو الضغوط، يهرع كلما سنحت له الفرصة ليطمئن أن موظف الفندق ما زال يحتفظ له بسريره المنتقى هذا:

- شو قصتك عشقان النومة بالكريدور؟!.. فوت لأعطيك تخت بشي أوضة.. قال موظف الفندق.
- هادا التخت منيح.. ما بدي أبو السرور يقول عطيناه وجه قام صار يتمدمد.. رد أبو الريح مداوراً.

السرير الذي افتعل أبو الريح شجارات كثيرة من أجل الحفاظ عليه كان يقع في نهاية الممر بين الغرف بحيث أن مسنده كان ملتصقاً

بالجدار الخشبـــي الذي يقسم الممر بين الفندقين العام حيث يقيم أبو الريح والخاص حيث يقيم أبو السرور وفتياته.

ما لم يعرفه أحد أن أبا الريح كان قد اكتشف شقاً صغيراً بـــين جدار الممر والجدار الخشبـــي، يقع الشق على مستوى نظره عنـــدما يكون مستلقياً على سريره، يكشف له جزءاً من ممر فندق الرحـــاب الخاص، يمكنه الشق من مشاهدة كسار حيث يجلس، دخول وخروج الزبائن والأهم من هذا كله يتمكن من رؤية فتيات الفنـــدق عنـــدما يتنقلن بين غرفة وأخرى لسبب أو لآخر، عندما يقفن بالقرب مـــن كسار ليتحدثن معه، بات استراق النظر للفتيات ومداعبة مـــا بـــين ساقيه مصدر متعته التي لا توصف، يقوم بذلك فيما يـــدفن رأســـه وجسده تحت الغطاء، يستمني في الليلة عدة مرات قبـــل أن تتراجـــع مقدراته الجنسية تحت تأثير مرض السكري.

فاجأه موظف الفندق ذات مرة برفع الغطاء عنه على حين غرة فوجده يداعب نفسه بحماس من يوشك على الوصول:

- شو عم تساوي؟!... قال الموظف مندهشاً.
- شو بدي ساوي يعني؟!.. واحـــد مـــا بشـــوف مرتـــه بالشهر مرة.. شو بيعمل بحاله؟.. رد أبو الريح مـــدارياً ارتباكه.

مرت الحادثة دون أن ينكشف شق أبـــي الريح الـــذي بـــات متنفس ليله وملهم أحلام يقظته، أصبحت قضية هذا السرير شـــغله الشاغل لدرجة طلب فيها من "الملك" التدخل عندما حاول موظـــف الفندق أن يناكف أبا الريح مدعياً أن هناك زبوناً قد اســـتولى علـــى سريره.

أثار اهتمام ورعاية أبـــي غسان لأبـــي الريح غـــيرة وحســـد الكثيرين متسائلين عن السر الكامن خلف ذلك:

- بلديات... كان رد أبـــي الريح الدائم على هذا الســـؤال وهو ما لم يكن صحيحاً بالمطلق.

تعود علاقة نائل بأبـــي غسان إلى سنوات طويلة خلت هـــي بداية عهده في المدينة، أقام نائل حينها قريباً من قمة جبل يشـــرف على المدينة، تناثرت عليه بيوت بُنيت علـــى عجـــل وبـــأرخص التكاليف، الصدفة جمعت الرجلين في أحد البيوت العشوائية برفقـــة رجال آخرين كل واحد منهم وفد من مكان بعيد، جمعهما "بيت" واحد هو عبارة عن غرفتين الأولى وهي الأكبر للمعيشة والنوم معاً، الثانية لا تتجاوز مساحتها المترين المربعين على الأكثر يمكن اعتبارها مطبخاً وحماماً ودورة مياه، غرفة المعيشة والنوم خالية من الأثـــاث، بضعة بسط بالية، فرشات إسفنج رقيقة، أغطية مهترئة، موقد غـــاز صغير تترك عبوته فارغة أياماً قبل أن يتطوع أحد لنزول الجبل بـــه وتعبئته في محل بيع إسطوانات الغاز، بضعة أوان منزلية بســـيطة، في السنوات الأخيرة تمّ مد خط كهرباء إلى المنزل يُسرق تياره من كابل رئيسي يغذي بعض البيوت الواقعة في سفح الجبل، غالباً ما يشـــتعل الكابل بالنار لكثرة ما سُرق منه خطوط تغذية كهربائيـــة للبيـــوت المتناثرة على الجبل والتي ازداد عددها مؤخراً بشكل ملحوظ، المـــاء يتم شراؤه من بائع متجول على بغل يحمل عبوات بلاستيكية كبيرة، الله وحده يعرف من أين عبّئ ماؤها، الرفاهية الوحيدة الموجودة في المنزل هي جهاز راديو متوسط الحجم لا أحد يعرف من أحضـــره، يحرص الجميع على تبديل بطارياته كلما فرغت، يُترك الراديو ليبث

برامج الإذاعة نفسها ليل نهار دون توقف، قد يقوم أحدهم بخفض الصوت أو رفعه لا أكثر.

أقام في هذا المنزل سلسلة طويلة من الرجال يتبدلون بين الحين والآخر، يغادر أحدهم لسبب ما، يحل مكانه أحد معارفه أو أقربائه، أحد المقيمين يحضر رجلاً ما إذا وجد متسعاً لمنامته، قلما يجتمع الكل فيه بالوقت نفسه، هو مكان مخصص للمبيت خارج أوقات العمل، قد يقيم في المنزل ثلاثة رجال في وقت واحد لا أحد منهم يعرف الآخر، بعد إلقاء تحية مقتضبة يبحث الوافد عن فراش يبدو فارغاً، يلقي بنفسه عليه ليراوح بين النوم واليقظة، الشجارات تحدث بطبيعة الحال، يحاول الجميع منع تفاقمها، مرّ على المنزل الحارس الليلي، عامل البناء، عامل النظافة، المتسول، السارق المطلوب لشرطة المدينة، السائق لباص عام، موظف جديد في إحدى الجهات العامة، الشرطي أبو غسان، نائل الجردي عندما كان يعمل عتالاً في سوق الخضار المركزي، يتشارك المقيمون في سداد الأجار الشهري الزهيد حسب ما يتيسر للواحد منهم أن يدفع، بعضهم يقيم ويرحل قبل أن يدفع ليرة واحدة.

تزامن وجود الشرطي أبي غسان ونائل لمدة سنتين تقريباً تشكلت خلالهما معرفة بين الرجلين يمكن وصفها بالصداقة إلى حد ما، إلى تلك الأيام ترجع معرفتهما أحدهما بالآخر، حافظ نائل على علاقته بالشرطي أبي غسان عندما ترك السكن المشترك، بات يزوره بين الحين والآخر في أماكن عمله، لم يكن يهدف الرجل من وراء المحافظة على علاقته بأبي غسان إلى شيء معين، أدرك الأخير ذلك، هذا ما جعله يدعم تكليف صديقه نائل الجردي بإدارة الحمام

العمومي في سوق البسطة، "الملك" طلب من أبـــي الـــريح عـــدم الحديث عن تلك المرحلة أمام أحد، الأخير وجد أن كلمة "بلديات" جواب كافٍ لإشباع فضول أهل السوق.

12... الأستاذ عبد الغني الشاعر

احتل بساطه المفرود على الأرض ركناً قصياً من أرض السوق، كان يمتلك مكتبة في المكان نفسه الذي وضع فيه بساطه تقريباً، شغلت المكتبة فيما مضى دكاناً من تلك التي كانت تحظى بواجهة زجاجية على الشارع العام في عبّارة بناء من أبنية مركز المدينة قبل هدمه.

حرص الأستاذ عبد الغني الشاعر أن تضم مكتبته أحدث الإصدارات من الكتب التي نالت جوائز عالمية أو التي رُشّحت لتنال تلك الجوائز مع رصيد لا غنى عنه من الأدب الروسي، أدب أمريكا اللاتينية، الأدب الأوربي، بالإضافة طبعاً إلى الأدب العربي، الفلسفة، علوم الحداثة وغيرها. الأستاذ عبد الغني الشاعر لا يتوانى عن إحضار أي كتاب يُطلب منه إذا لم يكن متوفراً في مكتبته حتى لو اضطر الأمر إلى استقدامه من بلد آخر، كل ذلك بالإضافة إلى المجلات الدورية التي تُعنى بشؤون الأدب والفكر والعلوم، لا يمانع من فتح حسابات جارية لبعض الزبائن الذين باتت معرفته بهم جيدة، يزودهم بما يشاؤون من الكتب ويتلقى منهم الثمن على دفعات، اهتمامه بنشر ثقافة القراءة بات هوساً لديه، حشر في زاوية المكتبة طاولة صغيرة، وضع حوالها أربعة كراسي، جعل من الركن مكاناً

للمطالعة المجانية يستطيع أن يجلس إليه من يشاء ليطالع ما يروقه من الكتب المعروضة، وصل به الأمر إلى أن يغض الطرف أحياناً عن سارق لكتاب أحب اقتناءه وهو لا يملك ثمنه، بات الأستاذ عبد الغني الشاعر معلماً ثقافياً من معالم المدينة يقارن بشعرائها وكتابها والفنانين المرموقين فيها وقد كانوا آنذاك كثراً، لجودة ورقي ما كانوا يقدمونه حينها كان من الصعب أن يجد المرء لنفسه موقعاً بينهم، الأستاذ عبد الغني الشاعر تمكن من حجز مكان مهم بين كل أولئك فأصبح يتلقى الدعوات إلى الصالونات الأدبية، العروض الأولى لافتتاح الأفلام والمسرحيات والندوات، بالطبع لم يخلُ عمله من المنغصات، بعض الدوائر المختصة بمتابعة ما تبيعه المكتبات من كتب ودوريات صادرت غير مرة بعضاً من هذه المطبوعات ومنعته من استقدام غيرها، وصل الأمر في مرتين أو ثلاث إلى إغلاق مكتبته بالأختام الرصاصية، في كل مرة كان يُعاد فتحها بعد أن تقوم الأوساط الأدبية والفنية في المدينة بدورها لإعادة الحياة إلى مَعلَم الأستاذ عبد الغني الشاعر.

بعد عملية الاستملاك والهدم التي تمت في المنطقة، اشترى بالتعويض الزهيد الذي منحته إياه مديرية الاستملاكات العامة مكاناً بديلاً في أطراف المدينة، لم يجد عمله سوقاً رائجاً هناك والزبائن المعتادون لا بد أنهم وجدوا مكتبة بديلة يحصلون منها على ما يريدون من المطبوعات.

قرر الأستاذ عبد الغني الشاعر أن يبيع منزله ويستأجر سكناً بديلاً، بثمن المنزل سيتمكن من شراء محل جديد في مركز المدينة يمكّنه من افتتاح مكتبته مجدداً، نصحه بعض الأصدقاء أن يجري دراسة لوضع سوق الكتاب قبل أن يتخذ خطوة يعتقد أنها ستنقذ أعماله

المتدهورة، قام بجولة على مكتبات المدينة لاحظ خلالها مدى التغير الذي طرأ على حالها، معظمها أغلقت أبوابها، تحولت إلى مهن أخرى، بعض أصحاب المكتبات دمجوا مهنتهم كبائعي كتب مع مهن أخرى كتصوير المستندات، بيع الطوابع، بيع الأدوات القرطاسية، من بقي على مهنته كبائع كتب بات يعرض كتباً تعلم فنون الطبخ، أخرى تفسر الأحلام، كتباً لتوقعات المنجمين والأبراج، القراء أنفسهم باتوا قلة القلة:

- هيك ومو ماشي الحال يا أستاذ عبد الغني... لو عمري بيسمح أترك شغلتي كنت قلبت المكتبة لسيخ شاورما..

قال أحد زملاء المهنة يشكو همه للأستاذ عبد الغني الشاعر.

أصر الأستاذ عبد الغني الشاعر على إتمام رسالته، قرر أن يبيع الكتب بسعر مخفض على أحد أرصفة المدينة.

في تلك الآونة كان سوق البسطات قد تشكل، دوماً كان بالإمكان إيجاد متسع لبسطة أخرى طالما أن صاحب البسطة مستعد لدفع ما يترتب عليه لقاء المساحة التي سيشغلها، أحزنه أن يشاهد الأرض التي كانت مكتبته مقامة عليها تصبح بوراً على هذا الشكل، شحن نفسه بالتفاؤل، أقام معرضاً للمطبوعات أسوة ببقية أهل سوق البسطة ممن يبيعون بضائعهم هنا، مجرد بساط على الأرض تعرض فوقه كتبه، اعتقد أن الازدحام البشري هو الفرصة الأمثل لنشر المعرفة والثقافة.

طار خبر البساط الجديد وما عليه من كتب إلى أذني أبي غسان:

- مفكر رح تلاقي مين يشتري منك أكل هالزبالة؟... قال "الملك" فيما كان يجلس القرفصاء مقلباً الكتب.

نهض أبو غسان وشدد على الأستاذ عبد الغني الشاعر أن يعرض عليه كل كتاب ينوي بيعه قبل وضعه على البساط، امتثل الرجل للأمر.

كانت الكتب تمر من تحت يد "الملك"، يتصفحها سريعاً ويلقي بها إلى العنصر الواقف أمامه مبدياً موافقته على بيع الكتاب في السوق:

- ما في شي بيخوف.. بس يجوع هالحمار رح يبيع كتبه بالكيلو ورق لصر السندويش... قال أبو غسان.

كالعادة كان "الملك" مصيباً بطريقة ما، لم يعبأ أحد من زبائن السوق بما يبيع الأستاذ عبد الغني الشاعر، رواد هذا المكان أفقر من أن يشتري أحدهم كتاباً بدل أن يشتري حذاءً مستعملاً، الأهم من ذلك التحولات التي طرأت على المدينة وأهلها، انتشرت "ثقافة" الإنترنت واحتل الجانب السطحي والسلبي لمواقع التواصل الاجتماعي مكان الكتاب والسينما والمسرح. بات الكل متوحداً مع جواله أو حاسبه المحمول وإذا ما التقى أحدهم بالآخرين كان ذلك حول شاشة إحدى القنوات الفضائية لمتابعة برامج تصنيع "النجوم" أو ما شابهها في الخفة والرداءة.

لفتت حالة الأستاذ عبد الغني الشاعر من تبقى في المدينة من أدباء وشعراء وفنانين مرموقين على قلتهم، تنادوا إلى وقفة تضامنية مع هذا الفارس الذي يأبى أن يترجل، اجتمع حول بساط الأستاذ عبد الغني الشاعر قرابة العشرين رجلاً وامرأة، أدباء، شعراء، نقاد،

مثقفون، ما قاموا به لم يلفت نظر أحد على الإطلاق في غمرة الازدحام اليومي، فقط قسم الشرطة اهتم بالأمر:

- شو نعمل سيدي؟... سأل أبو غسان سيده وهو يقف أمامه على أهبة الاستعداد.
- ولا شي.. كلها ساعة زمان.. بيتعبوا وبيروحوا على بيوتهن..
- وإذا...
- خليك قريب وقت بيصير في "إذا" خبرني بقلك شو تساوي.. رد العقيد عامر مانعاً أبا غسان من إتمام كلامه.

بالفعل لم تمضِ ساعة وقت حتى انفض المجتمعون، لم يلفتوا نظر أحد في ازدحام السوق كونهم من الوجوه التي ما عاد أحد يتعرف عليها أمام الوجوه الفنية الشابة التي برزت مؤخراً في المدينة وملأت شاشات التلفزة واللوحات الإعلانية الكبيرة على الطرقات، بطبيعة الحال لم يحضر أحد من وسائل الإعلام في المدينة لتغطية الحدث، رغم أن بعض الحاضرين أجرى اتصالاته بأحد المسؤولين في محطة تلفزيونية معروفة في المدينة:

- يا أستاذ في شي أهم بكتير نعملّه تغطية.. هي قصص صغيرة مو وقتها هلق.. قال المسؤول الإعلامي قبل أن يغلق سماعة الهاتف.

الكاتبة الروائية هيفاء الأصيل تمسكت بالبقاء قرب عبد الغني الشاعر أطول مدة استطاعت الوقوف خلالها، اقتربت السيدة من الأستاذ الذي بقي مطرقاً بصمت طيلة المدة التي استغرقتها الوقفة التضامنية:

- بتتذكر شو كتبتلك بآخر رسالة؟... قالت السيدة.

هز الأستاذ عبد الغني الشاعر رأسه موافقاً:

- قلتلك حتى لو افترقنا.. رح تبقى الثقافة دين إلنا... تابعت هيفاء.
- هي المدينة.. الثقافة دين للحمقى والمغفلين بس... رد عبد الغني والقهر يصلي روحه.
- لأ.. يا عبد الغني.. لساته رأيي ما تغير.. "العين هي يلي بتقاوم المخرز".

"العين هي يلي بتقاوم المخرز".. مقولة اشتهرت هيفاء الأصيل بترديدها ومازالت مصرة عليها.

لم تلقَ روايات تلك الكاتبة رواجاً جماهيرياً كبيراً، اتهمت بمقاومة تيار "الحداثة" من قبل نقاد عصر الاستهلاك، سلطات المدينة رأت فيما تكتبه دعوات مغرضة تهدف إلى زعزعة استقرار مجتمع المدينة، قاومت ضغوطاً كثيرة وما زالت، تلك المرأة ذات الطراز النادر تبادلت المراسلات مع الأستاذ عبد الغني الشاعر ذات يوم مضى، دار حوارهما المكتوب حول المعارف والثقافات، نقد تفاسير الأديان والتاريخ، تطرقا إلى الحب والمشاعر، ما جرى بين الأستاذ والسيدة لم يكن حباً بالمعنى التقليدي للكلمة، يمكن أن يُطلق على العلاقة تسمية التناغم الروحي والوجداني، دعت هيفاء الأصيل صديقها عبد الغني الشاعر لزيارة منزلها، الأخير لم يكن بحالٍ يسمح له ببذل الوعود:

- ما بدك تجي لعندي أنا بجي لعندك.. بس ما عاد أتركك... قالت هيفاء بشغف صادق.

عاد الأستاذ عبد الغني الشاعر إلى بيته باكراً في هذا اليوم، أحس بغصة تكاد أن تخنقه، قرر إحراق مكتبته الخاصة، تراجع عن قراره في اللحظة الأخيرة، استسلم للزمن الرديء تاركاً إياه يقود السنوات القليلة الباقية في مسيرة حياته.

توفيت زوجة الأستاذ عبد الغني الشاعر، أولاده الذين تلقوا التربية الحسنة تعثروا في دروب المدينة، لم يلقنهم والدهم أساليب الشطار للقفز فوق الحواجز أو الالتفاف حولها، استحال عليهم إيجاد فرص لائقة للعمل والسير قدماً، أسف الأستاذ عبد الغني الشاعر لأنه لم يحسن قولبة أولاده بما يناسب المتاهة التي تسمى مدينة، أساساً هو لا يعرف أسلوباً للتربية غير ذاك الذي أنشأ أولاده عليه، أراد أن يقدم لهم شيئاً يعينهم على ملمات الحياة، باع الملكية الوحيدة التي يقتنيها، بيته، وزع ثمنه بالتساوي عليهم غير مفرق بين ذكر وأنثى، لجأ إلى غرفة بسيطة تأويه ريثما ينقضي الأجل، تأمين أجار الغرفة أرغم الأستاذ عبد الغني الشاعر على عرض الكتب الرائجة على بساطه: فنون الطبخ، توقعات الأبراج، الأوراد والأذكار والأدعية، نسخ مصورة زوراً من بعض الروايات الباهتة التي لمع نجمها لأنها تحولت إلى مسلسل تلفزيوني.

الأستاذ صفة ألصقت بعبد الغني الشاعر من باب السخرية في بادئ الأمر، لكنها لاحقاً باتت اسماً كغيره من أسماء أهل السوق، بات الرجل الهادئ الذي يجلس على كرسي خشبي واطئ قرب بساط اصطفت عليه الكتب، واضعاً نظارته الطبية غارقاً في قراءة كتاب موضوع على ساقيه علامة من علامات السوق.

13... مكتب الثقة العقاري

احتل المكتب دكاناً يقع قبالة المبنيين الحكوميين (قسم الشـــرطة ومديرية الاستملاكات العامة)، يستثمر المكتب معقـــب المعـــاملات المدعو "أبو نافذ".

ينافس عمل المكتب مكتب آخر شغل أحد دكـــاكين العبـــارة وبضع طاولات صغيرة متناثرة حول المبنيين الحكوميين يجلس إليهـــا صغار الكسبة من معقبـــي المعاملات أو ما يطلق عليهم أبـــو نافـــذ تسمية "الشقّيعة"، يحصل صغار المعقبين على فتات المعاملات، تلـــك التي لا يستغرق إنجازها أكثر من بضع ساعات، يتقاضون أجرها بضع مئات من الليرات لا أكثر، فيما يعمل مكتب الثقة بطريقة مختلفة تماماً.

تصوير الأوراق وبيع الطوابع لم يكن سوى واجهـــة بســـيطة للخدمات التي يقدمها مكتب الثقة العقاري، حتى تقدم الخدمات على أكمل وجه قسم أبو نافذ الـــدكان إلى قســـمين، الأول خـــارجي مكشوف للعموم يتم فيه بيع الطوابع وتصوير المستندات وهو القسم الأصغر، فيما القسم الثاني داخلي حُجب عن أعين النـــاس بواســـطة واجهة زجاجية.

وضع أبو نافذ ستائر سميكة تحجب الرؤيا بين القســـمين تمامـــاً وحصل على ميزة مراقبة القسم الخارجي من مكتبه من خلال كاميرة

صغيرة تنقل له حركة دخول وخروج المراجعين إلى دكانه وجـــزءاً ضيقاً من حركة الشارع، عندما رغب الرجل بمراقبة أوســـع تغطـــي حركة الشارع، حاول تركيب كاميرة خارجية تمكنه من الرؤية بزاوية عريضة تشمل حركة الدخول والخروج إلى المبنيين الحكوميين، وصل الخبر سريعاً إلى أذن "الملك" فأرسل من يأمره بعـــدم وضـــع تلـــك الكاميرة قبل أن يتم تركيبها لدواعٍ أمنية تخص قسم الشرطة.

حرص أبو نافذ على التأنق دوماً، تقريباً هو الرجل الوحيـــد في سوق البسطة الذي يرتدي بذلة رسمية وربطة عنق إذا استثنينا بعـــض موظفي مديرية الاستملاكات العامة، الرجل نحيل الجسد، طويلـــه، ظهره منحنٍ، يتناوب على ارتداء بذلتين الأولى بنية اللـــون والثانيـــة كحلية، كلتا البذلتين حال لونهما بفعل الغسيل المتكرر، ربطات عنقه عفا عليها الزمن، ما يظنه أبو نافذ أناقةً في ملبسه يحفزه عليـــه ولعـــه بموظفات مكتبه ومحاولته جذب انتباههن عن طريق اهتمامه بمظهره.

أبو نافذ نفسه بدأ مزاولة مهنة منادٍ على المـــراجعين للـــدوائر الحكومية، تنقل بين عدة أبنية تعود لمديريات مختلفة يقصدها أصحاب الحاجات قبل أن يستقر أمام مبنى مديرية الاستملاكات العامة القديم للعمل "شقّيعاً" عدداً لابأس به من السنوات، أثناء انتقال المديريـــة إلى مبناها الجديد على أرض سوق البسطة رتب أموره لتحقيـــق قفزتـــه المهنية.

لا تغيب البدايات عن بال أبـــي نافذ، أحس بعجـــزه أمـــام أهوال الحياة في المدينة، أدرك صغر شأنه، قلة إمكانياته رغم ذكائه، أسرته تشبه قبضة الماء في بحر المدينة المتلاطم، كلما أمســـكت بهـــا ضاعت في لجج الحياة والفقر، أراد أن يكسر الطوق، أن يشب عمّا

عاشت عليه أسرته، عندما دخل سوق البسطة أدرك بسرعة أنه بأمس الحاجة لسند، لم يتقبل أن يظل مثله مثل بقية أولئك المعقبين اللاهثين وراء أحد المراجعين، أراد لنفسه امتيازاً، يعرف أن الامتيازات لا تمنح لأمثاله مجاناً، لم يفوت فرصة اللقاء الأول مع "الملك"، ألمح له، الأصح صرح له بأنه على أتمّ الاستعداد لبذل الغالي والرخيص لإرضائه، بدوره أبو غسان أدرك بحكم خبرته أن من يقف قبالته مشروع مخبر قابل للاستثمار على أكثر من صعيد، منها أن أبا نافذ خير من يلعب دور الوسيط بين مساعد قسم الشرطة وأهل سوق البسطة لما اكتسبه من مهارات الوساطة أثناء عمله كمعقب معاملات.

رفرف قلب أبو نافذ فرحاً عندما عرض عليه أبو غسان استثمار الدكان المقابل لقسم الشرطة، كاد يطير فرحاً عندما طلب منه جباية الأموال من بقية المستثمرين الشاغلين لدكاكين العبارة، مع كل خطوة يرتقي فيها أبو نافذ بدعم أبي غسان كان يحمل إليه الهدايا: جوال من النوع الحديث لابنته الصغرى، جهاز تكييف للمنزل وغير ذلك الكثير، في بعض الأحيان كان يضطر لاستدانة المال ليستكمل ثمن الهدية، كل ذلك النشاط المحموم في العلاقة مع أبي غسان كان مترافقاً مع نشاط مماثل في مديرية الاستملاكات العامة، انتظر أبو نافذ قرابة السنتين، كاد أن يفلس قبل أن يبدأ مواسم الحصاد.

وقف أبو الوفا أمام أبي نافذ ساهماً، سأله الأخير عمّا يريد، لم ينبس أبو الوفا بكلمة، طلب منه أبو نافذ أن يعود لخيمته بانتظار الزبائن، امتثل أبو الوفا دون اعتراض:

- شو هالبلوة هي؟!.. يا حرام على هالمعاش يلي عم ياخـــده مني... قال أبو نافذ لهمسة موظفة المكتب فيما كانت تقف خلف آلة تصوير المستندات.

أبو نافذ مولعٌ بتوظيف الفتيات، تعمل الواحدة منهن على آلـــة التصوير وتبيع الطوابع، يعتقد أن وجود فتاة يشجع المراجعين علـــى الدخول إلى مكتبه، منذ بدأ بمزاولة أعماله في هذه الدكان طلب مـــن خطاط أن يصنع له لافتة صغيرة أنيقة تفيد بأن المكتب بحاجة لتوظيف فتاة، علقها على واجهة المكتب، لم يعد يكلف نفسه عناء إزالتها حتى عندما تكون الفتاة الموظفة تلبـــــي رغبـــات المـــراجعين ورغباتـــه الشخصية بعد إغلاق المكتب عند انتهاء أوقات الدوام الرسمي، صاغ أبو نافذ طريقة للعلاقة مع موظفات مكتبه تضمن له تحقيق رغباتـــه الجنسية دون عناء كبير، يشرح لكل موظفة جديدة مـــدى حرصـــه عليها، استعداده لمضاعفة راتبها إن كانت "متفهمة ومرنة"، يباشر بعد بضعة أيام من توظيف الفتاة باختبارها من خلال ملامسات تـــوحي أنها بريئة وغير مقصودة، بناءً على ردود أفعالها يتحرك باتجاه خطوته التالية: تقبلها لتلك الملامسات "البريئة" يعني انتقاله لملامسات مباشرة تحت عنوان المزاح والمداعبة، إن مرت الأمور كما يشتهي يسارع إلى مباشرة علاقة حميمية معها، في حال تمنعت الفتاة رافضة ملامســـاته لسبب أو لآخر في أي مرحلة من المراحل يسارع إلى صـــرفها مـــن العمل دون مبررات أو أعذار، عادة ما تحتفظ الفتاة بوظيفتها بضـــعة أشهر إذا كانت "متفهمة ومرنة"، بعدها يدرك أبا نافذ الملـــل منـــها فيستبدلها بأخرى، قد يصرفها قبل ذلك في حال بدأت طلبات الفتاة بالتدفق عليه من مشتريات وسلف مقدمة على راتبها معتقـــدة أنهـــا

أصبحت ذات دالة على رب عملها. عموماً لا تطلب العمل لديه فتاة ذات جمال شامل، الفتاة الجميلة تحصل على فرص أفضل للعمل في مكان أكثر أهمية من مكتب الثقة العقاري، اعتمد أبو نافذ على مفكرة خاصة يخفيها في أحد أدراج مكتبه المقفولة، دوّن في المفكرة أسماء وأرقام هواتف فتيات دخلن مكتبه يطلبن العمل المعلن عنه من خلال اللافتة الصغيرة و لم يكن الشاغر متوفراً حينها، يدون بالقرب من اسم الفتاة ملاحظة لا تتجاوز الكلمتين تختصر أكثر ما أثار شهيته من خلال النظرة الأولى للواحدة منهن: مؤخرة مدورة، صدر كبير، سيقان طويلة، شفايف معباية...، نادراً ما يتذكر شكل الفتاة، تكفيه ملاحظاته الصغيرة ليقرر بأي واحدة منهن سيتصل.

- استني شوي بعد الدوام عندي معاملة بدي تصوريلي ياها..

قال أبو نافذ لهمسة.

همسة استثنيت من قواعد أبي نافذ، الفتاة تمنعت عنه لكنه استدعى صبره عليها، تناسق جسم همسة الصغير وبروز صدرها فوقه أثار شهيته.

أنهت الفتاة دراستها في الجامعة، لم ترغب بالعودة إلى القرية، قلة فرص العمل دفعتها لقبول الوظيفة المعلن عنها على الواجهة الزجاجية لمكتب الثقة العقاري، تقبلت العمل مقابل خمسة عشر ألف ليرة شهرياً فقط، المبلغ خير من لا شيء وخير من العودة إلى منزل الأهل في القرية حيث لا ينبت زرع ولا يدر ضرع، توسلت لله في لياليها كثيراً أن يمنّ عليها بزوج حتى لو كان متواضع الحال ينقذها من حدّي السيف: العمل لدى أبي نافذ والعودة إلى القرية.

صاحب مكتب الثقة يضطر أحياناً لاستخدام بعض الأساليب الفظة والعنيفة مع الفتيات عندما تثير إحداهن شهوته لكنها تتمنع عنه، لم يكن يخشى أن تودي به هذه الأساليب إلى ما لا يحمد عقباه، خبرته في هذا المجال تعادل خبرته في تسيير المعاملات وابتزاز أموال زبائنه وتوزيع الرشاوى هنا وهناك، خبرته تلك علمته أن الفتاة ستصمت عن فعلته تاركة العمل في المكتب لا أكثر ولا أقل، الصمت في النهاية خير من الفضيحة لفتاة آتية من عالم الفقر ولا تملك سنداً يحميها، من ستقبل بالعمل لديه غير فتيات وجدن في هذا السوق على قذارته التي لا تخفى على أحد ملاذاً يحمي من الجوع؟

أغلق أبو نافذ باب المكتب وقفله بالمفتاح:

- بدي أحكي أنا وياكي كلمتين على رواق وما بدي حدا يضايقنا.. قال أبو نافذ.

أدركت همسة ما كان أبو نافذ مقدماً عليه، كانت قد تصدت له في مرات عديدة، لكن هي المرّة الأولى التي تجد نفسها حبيسة مع الرجل وجهاً لوجه، فك أزرار بنطاله مهتاجاً:

- مشان الله يا أبو نافذ.. مشان الله تتركني روح.. أنا مو خرج هيك شغلات..
- بعرف أنك بنت.. بشرفي ما رح أأذيكي.. من برا لبرا لا تاكلي هم.. المهم تخليني أوصل..

لم تجدِ نفعاً استجداءات همسة ولا صراخها، ضجيج السوق كان أعلى من أن يسمح لتوسلات الفتاة بأن تكون مسموعة لأحد، ابتعد أبو نافذ عن همسة بعد أن بلغ نشوته تاركاً بعض قطع من

ملابسها الداخلية ممزقة، بقع من سائله اللزج على ساقيها وملابسها، همسة رممت مظهرها باكية.

- ما كان بدها كل هالاستشراف.. شو خسرتي يعني؟.. هي ألف ليرة اشتري أواعي بدل يلي انشقوا..

غادرت الفتاة السوق دون أن تأخذ مال أبـــي نافذ، غادرته إلى الأبد كغيرها ممن مررن عليه دون أن ترغب بأن تحمل منه في عقلـــها أو روحها أي ذكرى.

أثناء أوقات الدوام الرسمي كانت تجري أمورٌ أكثر جدية داخل المكتب الخاص:

- انته شو بدك شلون أنا برتب القصة... أنته كل يلي بيهمك نوصلّك تخمين بيتك لأعلى سعر.... قال أبو نافذ للرجـــل الذي صدر قرار باستملاك منزله القديم فيما كـــان هـــذا الأخير يجلس قبالته واليأس بادٍ تماماً على وجهه.

يمكن أن نطلق تسمية "طبخة" على ما كان يجري في مكتـــب الثقة العقاري، الزبون هو مادتها الرئيسة، يُترك صاحب العلاقة ليضيع في متاهات مديرية الاستملاكات العامة بضعة شهور، من الممكن أن تصبح سنوات، يغرقونه في نصوص القوانين وتعـــديلاتها وتفســـيراتها وتعليماتها التنفيذية إلى درجة يكاد فيها أن يصاب المرء بالجنون، إذا ما خطر لباله الاستعانة بمحام ينتشله من غرقه وضياعه فالأسماء معروفة، لكن أسهل الطرق وأيسرها هو مكتب الثقة العقـــاري أو أشـــباهه، يتوجه صاحب المعاملة إلى مكتب الثقة بناءً على نصـــيحة مـــوظفي مديرية الاستملاكات العامة أنفسهم، يصل الزبون إلى بـــين يـــدي أبـــي نافذ منتهي الأنفاس فيقوم صاحب مكتب الثقة بإعطائه جرعة

من الأمل، لم تكن تلك الجرعة كذباً مطلقاً، عادة ما يكون فيها شيئاً من الصدق، جرعة الأمل الممنوحة أقل مما يتوهم الزبون بكثير، أدهى ما في الأمر أن أبا نافذ تعلم أن لا يطلب من الزبون مبالغ كبيرة، دفعات صغيرة متتالية في كل مرة يزور فيها صاحب العلاقة المكتب أو يتصل للاستفسار عن معاملته، تتزامن تلك الدفعات مع تنقل المعاملة بين مكاتب مديرية الاستملاكات العامة، بعض التنقلات تكون وهمية أحياناً تجري بالاتفاق بين موظفي مديرية الاستملاكات العامة من جهة وبين أبي نافذ من جهة ثانية، يصل المبلغ في نهاية الأمر إلى رقم لا يُستهان به، الزبون ينصاع للمؤامرة صاغراً، إذ يكون قد تورط وانتهى الأمر، للمفارقة حدث في بعض الأحيان أن ما دفعه الزبون لقاء تسيير المعاملة ورفع قيمة التخمين لدى اللجان المختصة أن كان أكبر من التعويض الذي تقاضاه في النهاية كبدل استملاك.

الارتباط كان وثيقاً بين أبي نافذ من جهة وموظفي مديرية الاستملاكات العامة عموماً ولجان التخمين فيها خصوصاً من جهة أخرى، أسعار تسيير المعاملات بين موظفي المديرية والمكاتب العقارية كانت واضحة بما لا يحتمل اللبس، لم يكن يعكر صفو هذه الأعمال سوى بعض الفترات التي تُشدد فيها الرقابة على اللجان ويمنع دخول معقبي المعاملات أو أحد صبيانهم إلى مديرية الاستملاكات العامة.

كان ذلك يتم بناءً على أوامر من عبد الله المأمون المدير العام لمديرية الاستملاكات العامة، الأخير لم يكن شريكاً بالرشاوى التي يجبيها أعضاء لجان التخمين أو غيرهم من الموظفين المرتشين بشكل مباشر، حاول معقبو المعاملات، أبو نافذ تحديداً، فتح قناة اتصال مباشرة مع المدير العام.

طلب الرجل موعداً لمقابلة عبد الله المأمون، جلس قبالته يداري ارتباكه من سطوة الرجل، قام بما جاء لأجله:

- أنته واحد وقح وقليل الأدب.. خود رشوتك وطلاع برا قبل ما أطلبلك الشرطة.. قال عبد الله المأمون لأبي نافذ بحزم لا يقبل الشك بعد أن وضع على مكتبه كيساً صغيراً لم يتنازل بفتحه حتى.

غادر أبو نافذ حاملاً الكيس الذي يحوي علبة مخمل أنيقة في داخلها مسبحة ذهبية اشتراها الرجل بمائتين وخمسين ألف ليرة.

رفض عبد الله المأمون الرشوة بنزاهة مدهشة، هدد بإحالته إلى القضاء إن فكر بإعادة الكرة، طرده من مكتبه هو ورشوته بكل فظاظة، خرج أبو نافذ من مكتب المدير العام يرتجف خوفاً، يتعثر بخطواته متلعثماً بكلمات الاعتذار والأسف، أخذ يلعن في سره عبد الله المأمون واللحظة التي خطر له فيها أن يفتح تلك القناة للاتصال المباشر معه، دخل مكتبه متعرقاً، ألقى بنفسه على كرسيه، سألته موظفة مكتبه عن حاله المضطرب:

- كان انخرب بيتنا... قال أبو نافذ دون أن يوضح السبب.

وجه المدير العام عبد الله المأمون أمراً بحظر دخول معقبي المعاملات إلى مبنى المديرية، شدد على تنفيذ أوامره وهدد المتساهلين بأشد العقوبات.

لم تكن المرة الأولى التي يُحظر فيها دخول معقبي المعاملات إلى مديرية الاستملاكات العامة أسباب الحظر عديدة، انكشاف حالة رشوة بشكلٍ فاضح، همسات هنا وهناك عن تفاقم الفساد في المديرية، بناءً على تلك المستجدات يصدر المدير العام تعليماته بمنع

دخول معقبـــي المعاملات إلى المبنى، يتأكد موظف الاستعلامات من هوية حامل المعاملة ومن ثم يقلب المعاملة ليستوثق من أنهـــا تخصـــه شخصياً، رغم ذلك يحاول أبو نافذ دخول المديرية فهـــو في النهايـــة يحمل إجازة قانونية تخوله بمراجعة المعاملات الموكل بها كالمحامي تماماً، موظف الاستعلامات يقف حائلاً أمام كل محاولات الرجل دخـــول المبنى بما فيها محاولة رشوته، يعود أبو نافذ إلى مكتبه غاضـــباً رغـــم إدراكه أن الأمور ستعود إلى ما كانت عليه خلال بضعة أيام لكنـــه سيخسر خلالها وقتاً ثميناً إذا ما قدره بالمال سيتجاوز عشرات الآلاف التي كان من الممكن أن تصل إلى جيبه الخاص، لا يخفف عنه ضغوط أيام الحظر إلا وجود إحدى الموظفات "المتفهمات المرنات" لديه.

استطاع المدير العام عبد الله المأمون أن يشـــكل قناعـــة لـــدى معقبـــي المعاملات أنه نظيف اليد، لم يصدق أبو نافذ أن المدينة مـــا زال فيها رجل على هذه الشاكلة، أيقن أن الرجل لـــن يســـتمر في منصبه طويلاً، إن تقبلت الناس نزاهته فلن يتقبل من هم أعلـــى منـــه شأناً وجوده، سخر منه أمام العديد من أهل السوق، المساعد أول أبو غسان دهش حقاً عندما وصله الخبر، نقله إلى سيده العقيد عامر أبـــو النصر، الأخير لم يبد أي رد فعل على الإطلاق واكتفـــى بصـــرف أبـــي غسان إلى إحدى المهمات الروتينية، ابتســـم لنفســـه معجبـــاً بصديقه عبد الله المأمون، اتصل به لينقل إليه ما تناهى إلى سمعه للتو.

14... عبد المولى السروجي

أقل أصحاب دكاكين العبارة احتكاكاً مع الآخرين وأكثرهم انطواءً، لا يخفى على أحد تدينه الشديد، استبدل المسبحة بالعداد الإلكتروني المخصص للتسبيح لا يفارق سبابة يده اليسرى وإبهامها، لا يتوقف عن ضغط قابس العد، يقدم قطعة من هذا العداد هدية مع كل أداة كهربائية يبيعها في دكانه، يقدمه أحياناً بالمجان سائلاً المولى تعالى أن يجزيه حسنات على عدد التسابيح التي سيسجلها العداد، كل هذا بالإضافة إلى التزام مطلق بمواعيد الصلاة في المسجد.

اختص ببيع الأدوات الكهربائية الصينية، يقال أنه عندما يغيب عن دكانه لبضعة أسابيع يكون في رحلة عمل يسافر خلالها لاستيراد بضاعته بنفسه، حجم المبيعات في دكانه لا يستهان به خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار توزيع الجملة الذي كان يديره عن طريق الهاتف بعد أن أستأجر مستودعات خارج المدينة وأوكل موظفين عدة بمتابعة العمل وتحصيل الأموال.

المحير في أمره أنه استطاع وبثبات أن ينأى بنفسه عن فضول وإلحاح أهل السوق لمعرفة تفاصيل حياته وعمله، حتى أنهم حاولوا معرفة الرقم الذي يدفعه كبدل استثمار لدكانه فلم يفلحوا.

الطريقة التي يتعامل بها أبو غسان معه جعلتهم أكثر احتراماً ومهابة له، كان يسود بين الرجلين التجاهل التام، إذ أن لمرور "الملك" وقعه في السوق إن كانت تتبعه شاحنة المصادرات أو عندما يمر محاطاً بثلاثة أو أربعة من عناصره.

يحرص عبد المولى السروجي على الدخول إلى عمق دكانه عندما يلمح مساعد قسم الشرطة وصحبه يقتربون منه، يفتعل الأخير أي حديث مع أقرب العناصر إليه ليُعرض عن دكان عبد المولى السروجي وما يدور فيه.

- السوق كله بيقول أنه عبد المولى في وراه دعمة كبيرة...

قال أبو السرور لأبي غسان بعد أن خرج من غرفة نوم الأول منهياً مضاجعة مع ودعة بينما كانت لاتزال تقيم في فندق الرحاب الخاص.

- ما في قصص واحد متله متل كل هالناس يلي عم تشتغل بالسوق...
- لكن على شو شايف حاله؟
- أبو السرور خليك بنسوانك وزباينهن ولا تتدخّل بشي أكبر منك... رد أبو غسان بحدة غير مألوفة و لم يعد أحد من الرجلين يتطرق إلى الحديث عن عبد المولى السروجي مرة أخرى.

حساسية أبي غسان من عبد المولى السروجي كانت موجودة أساساً ولا تحتاج تغذية من أحد، حاول مراراً أن يعرف من يقف وراء الرجل الوحيد الذي لا يتقاضى منه ليرة واحدة بدل استثماره الدكان في العبارة فلم يفلح:

- سيدي هادا عبد المولى السروجي مستخريني عالأخير.. فارد بضاعته لنص العبارة.. قال أبو غسان فيما كان يقف باستعداد قبالة سيده العقيد عامر أبو النصر.
- كم مرة بدي قلك لا تتلفظ بهيك كلمات نابيه أدامي؟... رد العقيد عامر أبو النصر بحزم.

رغم تبادل الأقاويل حوله والتي غالباً ما كانت تذم لؤمه وتتهمه بالتعالي على أهل السوق، استطاع الرجل أخيراً أن يخرج من دائرة اهتمامهم ليكتفي بنفسه وبعمله.

الاستثناء الوحيد لعلاقة عبد المولى السروجي مع أهل السوق هو التفاهم الصامت الذي ساد بينه وبين أبي الخير مستثمر المطعم الشعبي، سبب هذا التفاهم هو أن كلا الرجلين يهرعان إلى أقرب مسجد من السوق حالما يرفع المؤذن صوته داعياً للصلاة، يصادف كثيراً أن يقفا أحدهما قرب الآخر في أحد الصفوف خلف إمام المسجد.

- انشالله في حركة شغل بالليل؟... قال عبد المولى السروجي لأبي الخير مجاملاً قبل أن يفترقا بعد الخروج من المسجد، الأول متوجه إلى منزله فيما الثاني عائد إلى مطعمه.
- قل أعوذ برب الفلق من هيك حركة.. غالبيتهن زباين الفندق.. لولا سلق الفول والحمص ما بفتح دقيقة وحدة.. الله يغنينا عن هيك رزقة... رد أبو الخير قاصداً فندق الرحاب الخاص.

أنهى عبد المولى السروجي تعليمه الشرعي في إحدى ثانويات المدينة المختصة بعلوم الدين، التحق بكلية شريعة خاصة يديرها أحد

أعلام الدين البارزين في المدينة، واظب على دراسته وتفوق فيها، عمل في مجال التدريس الديني، بدأ حماسه لعمله يتصاعد، نظم حلقات الدرس في المساجد خارج إطار التعليم المدرسي، أخذ يجتذب الشبان اليافعين عبر أنشطة اجتماعية كالرحلات والرياضة، ما كان من الممكن لشاب مثله أن يكتفي بالحديث عن أصول الفقه والتفسير وعلوم الحديث، تجاوزها إلى مناحي الحياة العامة لإيمانه بضرورة أن تقوم الشريعة بتنظيم العلاقات بين الناس في مختلف المجالات والبداية الأهم من الطفولة، من خلالها يؤسس لجيل مؤمن يسود المدينة مستقبلاً. بين غض الطرف عنه من قبل شرطة المدينة وتجاوزه للخطوط الحمر وجد نفسه في ضيافة أحد أقسام الشرطة، حاول الضابط المضيف التخفيف من غلواء الرجل، أراد أن يروضه لمصلحته مقابل بعض المغريات، أُفهم عبد المولى أن الجهات المعنية لا تقف حائلاً أمام المد الديني الذي يجتاح المدينة طالما أنه ينضوي تحت سلطتها أما إذا تجاوز الخطوط الحمر فالأمر سيختلف كثيراً، ذكر له أمثلة كثيرة عن أقطاب دين متعاونين، منهم مدير كلية الشريعة نفسها التي تخرج منها عبد المولى السروجي، لم يزده كلام الضابط إلا تعنتاً وإصراراً على نشر رسالته، مُنع من التدريس العام، اكتفى بحلقات الدرس في المساجد.

في تلك الفترة من حياته تزوج عبد المولى السروجي من أميمة المأمون ابنة إحدى العائلات العريقة في المدينة، أميمة هي شقيقة عبد الله المأمون مدير عام مديرية الاستملاكات العامة، في ذلك الوقت لم يكن عبد الله المأمون سوى موظف عادي، أساساً لم يكن قد مضى على عمله الوظيفي مدة طويلة، كان يبحث عن فرصة يتمكن من

خلالها تجاوز سنوات التسلسل الوظيفي من خلال قفزة واحدة تجعل منه أحد مسؤولي الصف الأول في المدينة وقد بدأ نجمه يلمع بالفعل بين دوائر القرار استناداً إلى مكانة العائلة وإلى الهدايا والدعوات التي كان يبذلها هنا وهناك، لمعان نجمه لا يعني بالضرورة ترقيته، قد تمر سنوات عمله كلها وهو يراوح في نفس المكان، شعر عبد الله المأمون حينها بوجود حاجز خفي يمنع قفزته إلى الصف الأول، حاول تجاوز هذا الحاجز بشتى السبل، زكاه صديقه عامر أبو النصر الذي كان يحمل رتبة رائد في شرطة المدينة آنذاك لدى أكثر من جهة، رغم ذلك بقي الحاجز موجوداً، أدرك عبد الله المأمون أن اتجاهات وتصرفات صهره عبد المولى السروجي المبالغ بها ستتسبب في تعقيد مسار حياته الوظيفية، نصح صهره مراراً وتكراراً بأخذ الحيطة والحذر مما يتفوه به أثناء دروسه، طلب منه بشكل مباشر أن يكتفي بالحديث عن أصول الدين وأن يبتعد عمّا سواه، استشعر عبد الله المأمون أن صهره عبد المولى يغرق في عوالم تتجاوز مهمتها التعليم الديني أكثر فأكثر.

حضرت أميمة زوجة عبد المولى السروجي إلى منزل شقيقها عبد الله المأمون تشكو له مخاوفها مما زوجها غارق فيه، انفرد بها، استوضح منها بدقة ما تسمعه من زوجها، بالأصح ما تسترق السمع إليه فيما يستقبل عبد المولى السروجي ضيوفه في منزله، سألها عن أدق التفاصيل، طلب منها أن لا تخبر أحداً سواه بما تبوح له به، اتصل بها مراراً طالباً منها زيارته، في كل مرة يسألها عن جديد زوجها عبد المولى السروجي أو يطلب منها أن تستفسر منه عن بعض أنشطته بطريقة غير مباشرة وبالتأكيد من دون ذكر أنه هو من طلب منها أن توجه له هذه الأسئلة، تستر عبد الله المأمون أمام شقيقته أميمة وراء

ادعاء خوفه على صهره عبد المولى السروجي وحرصه على سلامته، في الزيارة الأخيرة بكت أميمة لأن زوجها أبلغها بأنه سيسافر لبضعة أيام رافضاً إخبارها وجهة سفره، أقلقها بتوصياته الحرص على نفسها وعلى ولديها، بعد أيام تمّ إلقاء القبض على عبد الله السروجي وهو ينوي المغادرة من أحد المنافذ الحدودية، العائلة تخوفت على مستقبل رجالها، خاصة المستقبل الوظيفي لعبد الله المأمون، ما حدث هو العكس تماماً، لم تمض بضعة أيام حتى صدر قرار تعيين عبد الله المأمون مديراً عاماً لمديرية الاستملاكات العامة وهي القفزة التي طالما طمح إليها الرجل، لجأت أميمة إلى شقيقها مستنجدة به لمساعدة زوجها على ما ألم به، عبد الله المأمون أفهم شقيقته بأنه لن يدخر جهداً لمساعدة صهره، أغدق على شقيقته وولديها العطاء خلال مدة سجن عبد المولى التي امتدت لسنتين رغم أن أميمة تتلقى من أسرتها مبلغاً شهرياً محترماً بطبيعة الحال.

خرج الأخير من سجنه، استقبله عبد الله المأمون في منزله، أفهمه خطورة ما كان يقوم به وأن سنوات سجنه كان من الممكن أن تمتد أكثر من ذلك لولا تدخله هو شخصياً في المسألة وتقديمه الوعود للجهات المعنية بأن عبد المولى السروجي لن يعود إلى ما كان يقوم به وعلى مسؤوليته الشخصية، من جهة أخرى قدم عبد الله المأمون اقتراح شراكة عمل بينه وبين عبد المولى السروجي من خلال دكان العبارة في السوق الذي تشرف مديريته على مشروعه شريطة التحفظ وكتمان العلاقة بين الرجلين، وافق عبد المولى السروجي مبتلعاً جراحه، جثت أميمة على ركبتيها أمام شقيقها عبد الله المأمون وقبلت يديه فيما دموع الفرح والامتنان تفيض من عينيها، رتب عبد الله

المأمون استلام صهره للدكان، زوده بالمال الكافي لمباشـــرة العمـــل، استصدر له جواز سفر يمكنه من السفر بغرض التجارة، جرى المـــال وفيراً بين يدي عبد المولى السروجي، بات يدين بولاء مطلق لنســـيبه شاكراً ربه على قدره الذي جعل منه زوجاً لأميمة المـــأمون شـــقيقة المدير العام عبد الله المأمون.

15... مديرية الاستملاكات العامة

رئيس لجان التخمين، الرجل الثاني في مديرية الاستملاكات العامة، صنيعة المدير العام عبد الله المأمون هو المصب ما قبل الأخير للرشاوى المجموعة من أهل المدينة، أولئك الذين يمرون على مديرية الاستملاكات العامة حاملين ملفاً يحوي عقدة عالقة تحتاج إلى حل.

عُرف عنه قبل أن يتسلم رئاسة لجان التخمين أنه موظف فاقد الأهلية لأي عمل ذي شأن، مكروهاً بين الموظفين منذ مباشرته العمل في مديرية الاستملاكات العامة لوضاعته، قام المدير العام عبد الله المأمون بترقيته إلى ذلك الموقع الحساس في مديرية الاستملاكات العامة، تجاوز الأخير بذلك الكثير من الموظفين ممن هم أكثر أحقية بهذا المنصب على كل الصعد.

يحدد رئيس لجان التخمين لأعضاء اللجان المبلغ الذي يتوجب عليهم أن يفرضوه كرشوة على صاحب العلاقة بعد أن يدقق معاملته بنفسه، يحملون إليه حصته التي تبلغ 60% من المبلغ الذي حدده، المعاملات في نهاية المطاف تصب في مكتب المدير العام عبد الله المأمون لتوقيعها، الأخير يحدد المبلغ الذي يتوجب على رئيس لجان التخمين أن يخصّه به، مهند الداودي السائق الشخصي للمدير العام عبد الله المأمون يهمس بالرقم في أذن رئيس لجان التخمين، أحياناً

يكاد أن يغمى على رئيس لجان التخمين بعد سماعه الـــرقم، يقتطـــع الرجل من الرشاوى التي تتجمع بين يديه المبلغ الذي حدده له سيده، إذا ما تساهل رئيس لجان التخمين مع موظفيه في حصته من الرشاوى قد يضطر لأن يدفع من جيبه لاستيفاء الرقم الذي حدده له عبـــد الله المأمون، العلاقات والنسب والأسعار محسوبة بدقة بحيث يحصل كـــل على حصته حسب مستواه الوظيفي.

في اليوم الأول من كل شهر يتوجه مهند الداودي السائق الخاص لعبد الله المأمون إلى منزل رئيس لجان التخمين ليلاً، يستلم منه المبلـــغ دون تكليف نفسه عناء إلقاء السلام عليه.

موظفو مديرية الاستملاكات العامة يخمنون حول العلاقة بـــين المدير العام وصنيعته رئيس لجان التخمين، لم يتمكن أحد من إثبـــات شيء، دائماً ما كان الأخير يحلف أغلظ الأيمان بأن ما يتقاضاه مـــن رشاوى لا علاقة للمدير العام بها، بعض الموظفين تبنى فكرة نزاهـــة عبد الله المأمون وأخذ يتحدث عنها، رئيس لجان التخمين يعرف تمام المعرفة أن غضب سيده عليه يعني زجه لبقية حياته في السجن دون أن يرف له جفن ودون أن يصاب هو نفسه بأدنى أذية.

حرص عبد الله المأمون على أداء صلاة الجمعة كلما سنح له الوقت في مسجد الحي العريق الذي تنتمي إليه عائلته، كان يقـــوم بذلك مبدياً الكثير من التواضع والخشوع، ملاطفـــاً أيّ شـــخص يتقرب منه من أجل خدمة ما، كل ذلك يتغير عندما يجلـــس إلى مكتبه الفخم في مديرية الاستملاكات العامة، يتحول إلى شخص صارم قلما يبتسم محتفظاً برزانته وهدوئه باثاً الرعـــب في قلـــوب مرؤوسيه.

عبد الله المأمون يمسك بكل خيوط مديريته بكل براعة وحرفية، قادر على امتصاص الضغط الممارس عليه من قبل الجهات العليا في المدينة بحيث يبدو مطيعاً دون تنازلات حقيقية، قادر على تحويل مجرى التزلف والتوسل القادم إليه ممن هم دونه بحيث لا يتجاوب إلا مع ما يراه مناسباً، في الوقت ذاته يُشعر قاصده بأنه لم يرده على أعقابه خائباً، كل ذلك مع شبكة واسعة من العلاقات مكنته من الاستمرار في منصب وظيفي يطمح إليه الكثيرون، يحاربون من أجله بشتى الوسائل أغلبها يمكن وصمها بعدم النزاهة.

مشروع استملاك مركز المدينة لإقامة منطقة عمرانية حديثة ومتطورة بدأ في عهد المدير العام السابق لمديرية الاستملاكات العامة، تمكن عبد الله المأمون من إيقاف المشروع برمته عندما وصل إلى منصبه الحالي مدعياً ضرورة إعادة النظر بالمخطط العمراني المقترح للمنطقة ليكون سابقاً لعصره، مستوعباً للتطورات المتسارعة التي تطرأ على المدينة، علماً بأن كل ما أقدم عليه عبد الله المأمون لم يكن ضمن نطاق صلاحياته، هذا أحد الأسباب التي أدت إلى انفجار الأحداث في السوق لاحقاً.

تنحصر مهمة مديرية الاستملاكات العامة أن تقوم بعملية تحديد وتنظيم وتنفيذ استملاك منزل، أرض، عقار، منطقة بأكملها، ذلك بناء على طلب من إحدى الجهات العامة لأغراض الصالح العام، المديرية تقيّم أهمية الطلب حسب الأسباب المشروحة فيه، تقارن مدى نفعه للصالح العام مقابل الأضرار والخسائر التي ستقع على صاحب الملك، تقترح حلولاً بديلة إن أمكن، على سبيل المثال، إزاحة طريق مزمع فتحها عن مسارها بضعة أمتار، اقتراح مكان بديل لبناء

مطلوب إنشاؤه، باختصار تجنيب أهل المدينة الضرر قـــدر الإمكـــان كون البدلات التي تدفع للاستملاك زهيدة لا تساوي القيمة الحقيقية للعقار المستملك، في حال وجدت المديرية جدوى لعملية الاستملاك تباشر إجراءاته التي غالباً ما تطول بسبب لجوء صـــاحب الملـــك إلى القضاء، هذا هو الجانب النظري للعملية، على أرض الواقع موظفـــو مديرية الاستملاكات العامة يسارعون إلى تنفيذ طلب الاستملاك لأن في وقوعه تكمن مصالحهم الشخصية.

تجري عملية تخمين لقيمة المكان المستملك وفق آليات فضفاضة، السعر الذي تحدده لجنة التخمين يتوجب على الجهة العامة المســـتفيدة من عمليات الاستملاك أن تدفعه لصاحب العقار، بعد إنهاء إجراءات الاستملاك تتسلم الجهة العامة العقار المستملك لتنفذ خطتها المقترحة فيه، تستطيع مديرية الاستملاكات العامة إدخال الجهة العامة في متاهة المراسلات إن شاءت فيما تجنب صاحب العقار وقوع الكارثة علـــى حياته، العلاقة مع المدير العام في مديرية الاستملاكات العامة لها تأثير على كِلا الطرفين.

عبد الله المأمون بنى الكثير من صلاته بناءً على آلية العمل هذه، الخدمات التي يمكن لمديريته تقديمها واسعة: تجنب استملاك عقـــار أو رفع الاستملاك عنه، رفع قيمة التخمين إلى الحد الأعلى دون تقـــديم الرشاوى المعتادة، تسريع إنجاز معاملة ما.... الرجل يقيم مصـــلحته أولاً في التجاوب مع الجهة التي توسطت من أجل طلب ما، تأثيرهـــا في المدينة، احتمالات حاجته لها مستقبلاً، مسائل مشابهة يحدد بنـــاءً عليها مدى تجاوبه، لم يصعب عليه يوماً التمسك بـــالقوانين لـــيرد السائل عن بابه.

تتقاطع خطوط عمل مديرية الاستملاكات العامة مع خطوط عمل جهات عامة كثيرة، على وجه الخصوص بلدية المدينة، تقاطع تلك الخطوط في مشروع المخطط العمراني لمركز المدينة خلق عداوة شخصية بين عبد الله المأمون والعقيد عامر أبو النصر من جهة والمهندس عصام الناصر رئيس بلدية المدينة من جهة ثانية، يعود سبب الخلافات إلى تقاطع المصالح الشخصية حول المشروع، لو أن العداوة دارت حول الصالح العام لما وصلت إلى هذا الحد، بالأحرى لما وقعت أصلاً، هذا ما بدأه عبد الله المأمون ضد المهندس عصام الناصر رئيس بلدية المدينة بضوء أخضر من جهات متعددة في المدينة وتغطية من صديقه العقيد عامر أبو النصر عندما استحوذ على تنفيذ مشروع إنشاء مركز المدينة الحديث الذي لا يقع ضمن نطاق طبيعة عمل مديرية الاستملاكات العامة أصلاً، الضربة التي تلقاها المهندس عصام الناصر أذهلت الكثير من مراكز القوى في المدينة، بعضهم لم يدرك سر قرار سلطات المدينة الذي اقتضى منح مديرية الاستملاكات العامة هذا الامتياز المخالف للقانون رغم مضي عشر سنوات على صدوره.

شكل عبد الله المأمون لجاناً عدة مهمتها تطوير مخطط المشروع، وجه إليها تعليماته حول آليات العمل، وضع لإنجاز عملها جداول زمنية حازمة في توقيتها ظاهرياً، عملياً غرقت لجان التطوير في متاهات شبكة من العلاقات والقوانين والمصالح المتضاربة مع جهات متعددة في المدينة، أهمها بلدية المدينة بما يحمله رئيسها المهندس عصام الناصر من ضغينة على عبد الله المأمون لا تخفى على أحد، المهندس عصام الناصر أعاق عمل تلك اللجان، اعتقد أنه يرد بذلك الكيد إلى

المدير العام عبد الله المأمون، بشكل أو بآخر كان محقاً، ما لا يعرفه المهندس عصام الناصر أن نسبة سيطرة عبد الله المأمون على قراراته كانت جزئية، هناك من يجني ثمار هذا الوقت الضائع بمفرده، إنه العقيد عامر أبو النصر من قسم شرطة مركز المدينة.

بعد عشر سنوات على تولي عبد الله المأمون منصبه أعلنت مديرية الاستملاكات العامة عن فتح باب الاكتتاب لبيع الاستثمارات المزمع إنشاؤها: مكاتب، مطاعم، محلات، مراكز تسوق، فنادق، البيع على الخريطة وفق أسعار محددة تناسب موقع ومساحة العقار المخصص للاستثمار في المخطط، يدفع الراغب بالشراء جزءاً من ثمن المساحة التي ينوي شراءها بعد أن يختار ما يناسبه من خلال مراجعة المخططات والخرائط والمجسم الموضوع في صندوق زجاجي داخل بهو مديرية الاستملاكات العامة، تحتفظ المديرية بحقها في تعديل المكان والمساحة حسب ما تنتهي إليه أعمال لجان التطوير التي مرّ على تشكيلها عشر سنوات ولما تنتهي من عملها بعد، بقية ثمن العقار الذي اشتراه المكتتب يسدد على دفعات يتم تحديدها لاحقاً، أكبر تلك الدفعات يتم سدادها عند الاستلام، أي بعد إقامة المشروع.

أحداث سوق البسطة اندلعت بعد فتح باب الاكتتاب هذا بمدة وجيزة، العارفون ببواطن الأمور ربطوا بين الأمرين وقد كانوا على حق.

عندما أعلن عن فتح باب الاكتتاب، كانت العلاقة بين أهل المدينة والجهات العامة قائمة على الشك المتبادل، الأخيرة تُصيغ قوانينها بطريقة ضبابية قابلة لتفسيرات متعددة وعلى أساس أن الناس

فئران متلاعبة متهربة فيما أهل المدينة ما اعتادوا غير سماع الأكاذيب والتعايش مع التسويف، زادت شكوك الناس ومخاوفهم عندما تغنت وسائل إعلام المدينة بهذا المشروع الحداثي لما يخلقه من فرص عمل واستثمارات، أثار المشروع زوبعة اهتمام، شائعات وأحاديث متناقضة، مع ذلك منذ اليوم الأول لفتح باب الاكتتاب على عملية الشراء المقترحة بادر كثيرون بالتوجه إلى مبنى مديرية الاستملاكات العامة لحجز أمتارهم المربعة، بعضهم لم يكن يملك المال الكافي لإتمام الصفقة بينه وبين المديرية لكن نظرة مستقبلية بسيطة على هذا المشروع – إذا ما أنجز – تجعل المرء يدرك أن أسعار الأمتار المربعة سترتفع يوماً بعد يوم، بالتالي يمكن للمكتتب أن يبيع ما اشتراه قبل أن تطالبه المديرية بسداد دفعات أخرى من قيمة المساحة المتعاقد عليها محققاً ربحاً مضموناً.

من جهة أخرى، أصحاب النظرة بعيدة المدى ممن يعملون على مبدأ النفس الطويل ويملكون رؤوس أموال طائلة محصنة بعلاقاتهم المتينة مع الجهات النافذة في المدينة، هؤلاء أرادوا حجز مساحات واسعة لاستثماراتهم المستقبلية، مديرية الاستملاكات العامة وبتوجيه من مديرها العام عبد الله المأمون رفضت الاحتكار لكي تعمّ الفائدة على أكبر عدد ممكن من أهل المدينة كما ادّعت، حددت المديرية الحد الأقصى من الأمتار المسموح شرائها للفرد الواحد، مستقبلاً من يرغب بإنشاء مشاريع ضخمة كالفنادق مثلاً يمكنه ضم المساحات التي يرغب إلى فندقه بعد أن يمنح مالكي المساحات التي سيحتلها مشروعه حصصاً سهمية منه، دون أي حقوق لهم في الإدارة، مديرية الاستملاكات العامة تعهدت بتنظيم عادل ومنصف لهذه العلاقات

المعقدة، أصحاب رؤوس الأموال لم ترضهم هذه الطريقة في العمل، عرفوا أن القابع خلف مكتب المدير العام لمديرية الاستملاكات العامة يريد أن يبقى ظلاله القاتمة مسدلة على المشروع حتى بعد انتهائه وتسليمه للمشترين، أقلها اشتموا في أسلوب علاقات العمل هذه أنفاس نظام اشتراكي مرّ على المدينة وانتهى عهده، لذلك أرسلوا العديد ممن ينوب عنهم ليستكملوا شراء العدد الكافي من الأمتار لإنشاء المشاريع المتميزة بحيث يقللون من دور مديرية الاستملاكات العامة في مجريات أعمالهم مستقبلاً.

منعاً للسمسرة والتلاعب، حصر عبد الله المأمون عملية الاكتتاب بلجنة مشكلة من ثلاثة موظفين مؤتمنين ومعتمدين من قبله وتحت إشرافه الشخصي المباشر، صحيح أن عملية الاكتتاب بهذه الطريقة ستأخذ وقتاً أطول لكن في مقابل ضمان النزاهة يصبح هذا الإجراء مقبولاً.

كلُّ ما أعلن عنه يحمل صورة متكاملة مشرقة، لم يفاجأ أهل المدينة بالإجراءات الروتينية المعقدة المطلوبة لإتمام الصفقة، هذا ما اعتادوا عليه، طُلب من كل راغب بالاكتتاب أن يقدم مجموعة مستندات ليُسمح له بالتعاقد مع المديرية، هرعت جموع الناس في حركة مكوكية بين مكاتب الجهات العامة في المدينة تجمع أوراقها: سجل عدلي نظيف، براءات ذمة مالية من جهات متعددة، إثباتات شخصية ومواطنة، سندات إقامة، تعهدات متعددة لدى الكاتب بالعدل..... سلسلة طويلة يستغرق استكمالها بضعة أسابيع على الأقل إذا ما نثر صاحب العلاقة الرشاوى هنا وهناك على صغار الموظفين لمساعدته في الحصول على أوراقه.

عندما بدأ أهل المدينة يتوافدون إلى مديرية الاستملاكات العامة محملين بمصنفات مثخنة بالأوراق فوجئوا بأن المساحات الرئيسة والمهمة قد بيعت، ما تبقى عبارة عن أماكن قليلة الأهمية كثيراً من حيث الموقع والمساحة، ربما لا تصلح المساحات المتبقية إلا لتوظف في الخدمات أو لتكون مخازن، أماكن لن يقدم المستثمرون الكبار على طلبها، إنما سيسعى مالكها لاهثاً ليجد لها فرصة توظيف ضمن المشاريع الكبيرة المتميزة.

ولد عبد الله المأمون في أسرة عريقة ذات تاريخ تجاري طويل، عائلته الصغيرة تكونت من والديه وستة أبناء وبنات: التوأمان محي الدين وعبد الله وأربع شقيقات أصغرهن أميمة التي تزوجها عبد المولى السروجي الذي أصبح في وقت لاحق مستثمر محل بيع الأدوات الكهربائية في سوق البسطة.

ولد محي الدين قبل توأمه عبد الله بنصف ساعة تقريباً أطلقوا عليه وصف الشقيق الأكبر بين أفراد الأسرة، التشابه بين محي الدين وعبد الله في المظهر كان محدوداً، توأمتهما جاءت في باطن عقليهما، أسلوب تفكير مشترك في الوصول إلى الغايات والأهداف، صفات شخصية أخرى، منها سرعة البديهة والفهم، سعة الصدر وطول البال، عدم الإفصاح عمّا يتوجب كتمانه، الحزم وروح القيادة.

محي الدين المأمون اكتفى من التحصيل العلمي بالحصول على شهادة الثانوية العامة، التحق بعدها بعمل والده التجاري في حين حصل عبد الله المأمون على شهادة في الحقوق وبدأ البحث عن فرصة للعمل الوظيفي لدى جهات المدينة العامة، فاجأ قراره عائلته التي اعتادت الابتعاد عن هذه الأنواع من الأعمال التي كانت تعتبرها

مضيعة للوقت إذا ما قورنت بالأعمال التجارية المزدهرة التي تديرها، عبد الله المأمون مذ بدأ مقاربة أعمال عائلته التجارية خلال أوقات فراغه لم يعتبرها مزدهرة قط رغم ما أمنته ومازالت تؤمنه من عيش رغيد لجميع أفراد الأسرة يحسدهم عليه أكثر من ثلاثة أرباع أهل المدينة.

أدرك عبد الله المأمون ببصيرة نافذة خلقت معه منذ الولادة أن السلطة تفوق في أهميتها رأس المال، السلطة هي منبع المال وهي حارسه ومآله، قراءة سطحية للتاريخ تكفي لإدراك أن رأس المال في مدينته كان منذ قرون ومازال حتى الآن يجري خلف السلطة لاهثاً يسترضيها لتمنحه فرصة البقاء والاستمرار والتنامي، رفض والده وشقيقه محي الدين أن يعترفا بتراجع أعمالهما عبر الزمن لابتعاد أسرته عن السلطة عبر أجيال، تنقلا في تبريراتهما مناقضَين نفسيهما دون أن يدركا بين شكر رب العالمين بما أنعم به عليهما وبين ما يعصف بالعالم عموماً وبالمنطقة خصوصاً من أزمات متنوعة، الاقتصادية واحدة منها.

حرصاً من عبد الله على مشاعر أبيه، ظلّ الشاب يتردد على محلات أبيه التجارية بين الحين والآخر، جنى من ذلك فوائد تتجاوز إرضاء والده، راقب عن كثب كيف يفكر أهل المدينة حين يتداولون أعمالهم التجارية، شاهد وقع قرارات الجهات العامة عليهم حين تكون في غير صالحهم، فهم الخطط التي يضعونها للالتفاف على تلك القرارات مستفيدين من ثغراتها كونها كانت دائماً توضع على عجل ومن أشخاص يمكن وصفهم بالأميين، قرارات تقدم الحل لمشكلة آنية وتخلق عشرات المشاكل المستقبلية، عموماً فهم عبد الله المأمون أن

أهل المدينة يدركون تماماً أن الارتجال هو من يقود مسيرة الجهات العامة.

تعرف عبد الله المأمون في أحد محلات والده إلى مهند الداودي، شاب يافع يعمل دون كلل، لفت نظره دوناً عن بقية الموظفين والعمال الذين يعملون لصالح والده، كانوا حينها يعدون بالعشرات، اطلع عبد الله والده على رغبته بنقل مهند الداودي للعمل معه:

– شو بده يشتغل معك؟!.. أنته موظف دولة... قال الوالد.

ترك الأب ولده عبد الله يقود مسيرة حياته بنفسه دون أن يترك ذلك أثراً يذكر على العلاقة بين الابن وأبيه، كان يراقب ولده من بعيد كيف يسعى جاهداً لارتقاء السلالم الوظيفية.

رافق مهند الداودي عبد الله المأمون في مسيرة حياته، يقود سيارته، يهتم بشؤونه الشخصية، تمكّن الأخير من غرس الولاء له داخل نفس الشاب اليافع، راقب بعناية نمو تلك الغرسة يوماً بعد يوم، لم يعتمد المال وسيلة لكسب هذا الولاء رغم أنه لم يبخل عليه يوماً، اتبع أساليب أكثر ذكاءً قائمة على فهم التركيبة النفسية والظروف الاجتماعية لمهند الداودي بعد أن تغلغل في حياته الشخصية، أهم من كل ذلك دربه على الصمت، بات مهند الداودي ظل عبد الله المأمون الذي لا يفارقه، تعلم الأخير من خلال علاقته بسائقه كيف يكسب الأصدقاء والأعوان، قبل أن يتسلم منصبه الوظيفي كمدير عام لمديرية الاستملاكات العامة أصبح لديه عشرات العلاقات المشابهة لعلاقته بسائقه مهند الداودي، بالطبع بقي الأخير متفرداً بعلاقة مع عبد الله المأمون حسده الكثيرون عليها هي علاقة الظل.

توفي والد عبد الله منجزاً واجباته في الدين والدنيا، لم يرحل قبل أن يزوج أبناءه الستة، نغص عليه تأخر ابنه محي الدين في انجاب طفل يحمل اسمه لكنه لم يفقد إيمانه يوماً بأبنائه، خاف على الموروث التجاري العائلي أن يضيع بين أبنائه فأوصى بأن يدير ابنه محي الدين المأمون أعمال العائلة حسب ما أوصى الشرع إذا ارتضى بقية أبنائه ذلك، تفاوتت مواقف بناته حسب مواقف أزواجهن، الشقيقتان الكبيرتان فضلتا سحب حصتهما من الميراث فيما قبلت الشقيقتان الأصغر بمبلغ شهري يقدمه شقيقهم محي الدين يتفاوت من شهر لآخر حسب حركة الأعمال التجارية.

والدة عبد الله لم يطل بها المقام في الدنيا بعد ارتحال زوجها، همست لكبرى بناتها وهي على فراش الموت بأن تسعى إلى تزويج بكرها محي الدين مرة أخرى لأنه لم يرزق بالأولاد بعد.

وفاة الأم فرط عقد الأسرة إلى حد ما باستثناء علاقة محي الدين المأمون بتوأمه عبد الله التي بقيت وثيقة إلى حد كبير، دخول صهر العائلة عبد الله السروجي زوج أميمة إلى السجن بتهمة تمس أمن المدينة أقلق محي الدين المأمون رأس الأسرة، استعد لحشد معارفه وأمواله منعاً لحدوث ما يضره أو يضر توأمه عبد الله، لم يصدق الرجل الخبر الصغير الذي قرأه في إحدى زوايا صحيفة محلية قبل أن تتوقف نسختها الورقية عن الصدور مكتفية بنسخة إلكترونية على الشبكة العنكبوتية:

"تكليف عبد الله المأمون بمنصب مدير عام مديرية الاستملاكات العامة" وهو الذي ما عمل يوماً في تلك المديرية، اتصل محي الدين

بتوأمه يسأله إن كان هو المقصود بالخبر أم أن الأمر مجرد تشابه أسماء لا أكثر، ضحك عبد الله مؤكداً الخبر.

- غريبة.. قلت لحالي رح يسرحوك بعد ما فات صهرنا عالحبس.. قال محي الدين المأمون.

ارتقاء عبد الله المأمون إلى منصب مدير عام مديرية الاستملاكات العامة سيجعل علاقة التوأمين تتخذ منحى مختلفاً عما كانت عليه.

- ضرورية روحتك على صلاة الجمعة؟.. قالت هزار النجار زوجة عبد الله المأمون
- اي ضرورية.. كلها ساعة زمان وبرجع...

تزوجت هزار النجار من عبد الله المأمون في سنٍ مبكرة، هو نفسه لم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين من العمر، بالكاد تخرج من كلية الحقوق، اختارها له شقيقته الكبرى إذ كانت على معرفة بخالة الفتاة أثناء سنوات دراستها في الثانوية الشرعية، رتبت تلك الشقيقة للقاء يجمع والدها وشقيقاها بهزار النجار ونساء عائلتها، حفل فطور دوري في أحد المطاعم الفخمة يجمع خريجات تلك الثانوية الشرعية، فاجأ الأم أن تختار ابنتها لعبد الله فتاة سافرة لا تضع الحجاب رغم أنها لم تخف إعجابها بجمال هزار وحيويتها:

- عبد الله هيك بده.. قالت الشقيقة الكبرى.

زواج عبد الله المأمون المبكر كان مطلباً ملحاً لدى أسرته، توأمه محي الدين لم ينجب رغم كل محاولاته الحثيثة بدءاً من الطب وانتهاءً بتعدد الزوجات مروراً بأعمال الشعوذة المستترة تحت غطاء الدين والتي أخذت الشقيقات الأربعة لمحي الدين على عاتقهن القيام بها،

كان المطلب المهم من هذا الزواج هو ضمان استمرار ثروة الأسرة في الاتجاه الصحيح.

ترتيب الزيجات بين الأسر العريقة في المدينة يجري بدقة، يؤخذ بعين الاعتبار نواحٍ عدة بعضها يخص الرجل، وبعضها الآخر يخص الفتاة المستهدفة لمشروع الزواج، جمال شكل الرجل يعتبر مسألة ثانوية أمام أهمية أسرته وأصالتها، الأهم من كل ذلك وضعها الاقتصادي، فيما جمال شكل الفتاة يعد العامل الأول لتزكيتها كزوجة مقترحة، الزواج المبكر ضرورة تحصن كِلا الطرفين من الانزلاق في متاهات الخطأ، المقصود هنا بمتاهات الخطأ هو زيجات غير ذات نفع قد ينجر إليها أحد الطرفين بدافع وهم اسمه الحب، علماً بأنه في كثير من الأحيان جرت انزلاقات من هذا النوع كانت تسلي ثرثرة ليالي السهر في مطاعم المدينة ذات النجوم الخمسة، أما بعد إتمام صفقة الزواج فلا شيء يمنع من قدوم الحب إن كان في إطار المؤسسة الشرعية أو خارجها، بالطبع الرجل هو المرشح الأقوى لعلاقات الحب خارج منزل الزوجية، عادة ما يتم التغاضي من قبل الأسرتين عن أفعال الزوج لأن المحاسبة عليها له نتائج لا تُحمد عقباها، لم يكن عبد الله المأمون بمنأى عن كل ذلك.

عندما بدأت بنات آل المأمون يلححن على شقيقهن عبد الله بضرورة الزواج كان الشاب في مرحلة تشتت حول هذه المسألة بالذات، من حيث المبدأ هو لا يمانع بأسلوب الزواج التقليدي لكنه في تلك الفترة كان يرسم لمستقبله الوظيفي، فكر في اختيار زوجة تنتمي إلى أسرة ذات صلات عالية المستوى في المدينة ما يمكّنه من الصعود إلى الأعلى في سلم السلطة بالسرعة التي يبتغيها، في الوقت ذاته

الاستفادة من صلات عائلة الزوجة يعني إضعاف موقفه أمام زوجته وعائلتها، هذا ما لا تتقبله طبيعته، لم تكن مسائل الحب والمشاعر ضمن حساباته على الإطلاق، جمال الفتاة مسألة باتت متوفرة بكثرة، خاصة بين الأسر العريقة في المدينة بسبب عناية الانتقاء بين الأزواج عبر أجيال من جهة، عمليات تجميل تهذب بعض العيوب إن وجدت من جهة أخرى، يضاف إلى ذلك أناقة الملبس والزينة، حسم عبد الله المأمون خياراته، قرر أن يضع زواجه خارج حساباته المستقبلية في العمل الوظيفي، المسألة قد تكون سيفاً بنصول متعددة، الأول يضرب به، البقية قد ترتد عليه، ما كان لشخص مثله أن يترك مستقبله في يد أحد سواه، التقلبات في المدينة واردة بالتالي ربط طموحاته بعائلة "زوجة" هو الجنون بعينه.

أعجبت هزار النجار بعبد الله المأمون عندما التقيا للمرة الأولى في غذاء باذخ احتضنه أرقى مطاعم المدينة دعت إليه نساء آل المأمون سيدات عائلة هزار النجار، الشاب وسيم، أنيق الملبس والتصرفات، يجيد التحدث ويبدو أنه قد حرص على تسليح نفسه بلغتين أجنبيتين بشكل جيد، على الطرف المقابل عبد الله أخذ يدقق فيما وراء الشكل الجميل لهزار ولباقة تصرفاتها وأناقة ملبسها، سيحرص لاحقاً وقبل الاقتران بها على اختبار ردود أفعالها في مختلف المواقف لتكون زوجة تليق به وبمستقبله الذي يطمح إليه.

رأسا الأسرتين امتنعا عن حضور دعوة الغداء لإدراك الرجلين الغاية من وراء هذا اللقاء، من المبكر حضورهما طالما أن الأمر بين عبد الله وهزار ما زال قيد التعارف الذي قد لا يفضي إلى شيء، يمكن وصف دعوة الغداء بعملية "مراقبة واستطلاع"، لا تشمل العروسين

المقترحين فقط إنما تشمل كل أفراد الأسرتين بعضهم تجاه بعض، عبد الله وهزار تلقيا من تلك العملية النصيب الأوفر بطبيعة الحال.

تبادل العروسان المقترحان أرقام هاتفيهما المحمولين على مرأى الأسرتين، عبد الله لم يتصل بهزار إلا بناءً على إلحاح شقيقتيه الصغريين، الصبيتين اللتين كانتا لا تزالان عازبتين في منزل والدهما حينها، هزار توجست من الحديث المهذب اللطيف لعبد الله الذي تنقصه الحرارة، الميل إلى الجدية والاقتضاب.

ساقت والدتها المبررات كعادة الأمهات عندما يروقهن الشاب الخاطب، تكررت الاتصالات، بعضها كان مطولاً، بضعة لقاءات جانبية على هامش تبادل الأسرتين للزيارات والدعوات، تحدثت والدة عبد الله إلى والدة هزار عن موضوع الحجاب، لم تبد المرأة اعتراضاً بدليل أن ابنتها الكبرى محجبة، نقلت هزار إلى عبد الله ما دار بين الوالدتين من حديث، طلب منها الأخير تجاهل الموضوع، أوضح رفضه القاطع للحجاب، لم يشرح لها الأسباب، هزار أسعدها أن يكون زوج المستقبل منفتحاً أو هذا ما اعتقدته على الأقل، بعد أشهر عدة وصلت الأسرتان إلى لحظة الحسم:

- متل ما بدكن.. هذا هو جواب عبد الله الذي تلفظ به بكل برود.

عانت هزار النجار من جدار جليدي شفاف حال بينها وبين زوجها منذ اليوم الأول الذي انتقلت فيه للعيش معه، لم يجد بحثها عن أسباب وجود هذا الجدار في الوصول إلى حل تتمكن معه من بث الدفء بعلاقتها مع عبد الله، حاولت أن تشكو همها لأمها فأتاها الرد بضعة أسئلة تطمئن فيها الأم عن فحولة عبد الله في فراش الزوجية،

كرمه واحترامه لها، كلها نواحٍ حصَل فيها الزوج على معدلات إيجابية مرتفعة، اعتبرت الوالدة أن هكذا شكاوى مجرد هذر سيودي بحياة ابنتها إلى الخراب فأمرتها بالامتناع عنها بشكل نهائي حتى في داخل نفسها، منذ ذلك الحين اعتادت هزار التصالح مع كل تلك التفاصيل التي كان الحديث عنها سيشبه الحديث عن الأشباح إذا ما تفوهت بها أمام أحد، تجربتها مع أمها أكدت لها ذلك.

تسلم عبد الله المأمون منصبه الحالي كمدير عام لمديرية الاستملاكات العامة في السنة العاشرة لزواجهما كانت خلالها هزار النجار قد أنجبت صبيين على التوالي أطلق عليهما عبد الله المأمون اسمي حازم وهمام، ثم أنجبت ابنة ترك الرجل تسميتها لزوجته فأطلقت عليها اسم ميس، فتاة مفرطة الأنوثة والجمال، بذلك تكون هزار قد نجحت في حمل مسؤولية استمرار نسل آل المأمون، رفض عبد الله تسمية بكره على اسم والده كما جرت العادة، اعتبر أن تصرفه هذا سيكون نذير شؤم على أخيه محي الدين الذي كنيّ منذ الصغر على اسم الأب.

تسلم عبد الله لمنصب المدير العام انعكس سلباً على حياة هزار، زاد ابتعاده عنها، زاد غموض حياتها، دخلت حياتهما الجنسية إطار الروتين، تساءلت مراراً في داخلها عن مدى إخلاص زوجها لها، لم تجد الجواب الشافي، إذ لم يتخلف الرجل يوماً عن مواعيد روتين حياته، لم تخذله مقدراته في فراش الزوجية أبداً، أدركت هزار بغريزتها وعقلها أن رجلاً مثله في منصبه وعلاقاته وكثرة أسفاره لا يعقل أن يكتفي بامرأة واحدة، تدرك مدى تحفظه وحرصه على سمعته في المدينة، لكن ما الذي سيمنعه عندما يكون بعيداً عنها آلاف الكيلومترات؟

حسمت هزار أمرها منذ السنوات الأولى لزواجهما، قررت أن تلغي من تفكيرها كل ما يتعلق بخيانات زوجية محتملة، حياتها معه لا تحتاج إلى القلق، لديها ما يكفيها منه وسيكون لديها المزيد في الأيام القادمة.

أوفد عبد الله ولديه حازم وهمام على التوالي إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد حصولهما على الشهادة الثانوية لمتابعة تحصيلهما العلمي واكتساب جنسية تلك البلاد التي لا تقل أهمية بالنسبة إليه عن التحصيل العلمي العالي، أما ابنتهما ميس فما إن بلغت الثامنة عشرة حتى بدأ توافد الخاطبين إلى دار والدها، تمّ انتقاء الزيجة الأفضل لكل الأطراف حسب تقاليد الموروث العائلي المعتادة، أقام الزوجان لابنتهما فرحاً تحدثت عنه الطبقة المخملية في المدينة ردحاً طويلاً من الزمن.

حلمت هزار بأن عودتها للعيش برفقة عبد الله بمفردهما – باستثناء خادمتين أجنبيتين مقيمتين في منزلهما – سيمنح حياتهما بعض الحرية، بالتالي بعض التجديد، أدركت سريعاً أن ذلك أضغاث أحلام فزوجها غارق في عالم أعماله التي لا تعلم عنها إلا النذر اليسير.

حظيت هزار بمكانة خاصة في عائلة زوجها لأسباب متعددة، أول تلك الأسباب المكانة التي بات يحظى بها عبد الله نفسه في العائلة بعد أن أصبح مديراً عاماً، صار الرجل سند العائلة وحاميها، ثاني الأسباب إنجاب المرأة لورثة ذكور سيتابعون حمل الموروث العائلي من كل نواحيه، ثالث تلك الأسباب يتعلق بهزار نفسها، المرأة كانت لطيفة المعشر، لم تدخل يوماً في سجال لا يخصها، تكتفي برد متهرب لبق عندما تتلقى التعليقات المباشرة من عرابتي زواجها شقيقتي عبد الله

حول توانيها عن ارتداء الحجاب الشرعي، الأسئلة الودية من قبل شقيقتي زوجها الصغريين التي تستفسران من خلالها عن انطوائها وتحفظها بعد أن كانت تشع حيوية ونشاطاً تردّ عليها هزار بأجوبة تؤكد سعادتها في حياتها مع زوجها وأولادها، لم تشكُ يوماً من زوجها أمام عائلته، العائلة لم تسمع ابنها يشتكي أو ينتقد زوجته، كلا الزوجين شكلا بالنسبة للجميع حالة تقارب الكمال يُتغنى بها، تبتسم مجاملة هزار عندما تسمع كلمات النقد أو الإطراء على حد سواء، تغلق على نفسها باب غرفتها وحيدة، تنهار في نوبات بكاء، تنهض نحو الحمام، تغسل وجهها، تعدل زينتها، تستقبل زوجها عبد الله المأمون بالابتسامة المعتادة.

16... الشيخ محي الدين المأمون

لم يجد محي الدين المأمون ملاذاً لعقمه خيراً من المسجد، واظب على الحضور فيه لأداء الصلوات الخمس في أوقاتها بادئ ذي بـــدء ثم أخذ يتبحر في علوم الدين من خلال حضور الدروس التي كانت تقام أسبوعياً في رحاب مسجد الحي الذي نشأت فيه الأسرة، كان هـــذا المسجد أكبر مساجد الحي وأفخمها، أنشأ في فيلته الفخمة مكتبـــة ضخمة من الكتب الدينية التي اقتناها أثناء إقامة معارض الكتـــب في المدينة، كتب ذات طباعة فاخرة وسعر بخس، نهل وحفظ منها الكثير، طور أساليب اجتهاده فأدخل المعلوماتية إليها بعد أن اشترى حاسوباً وأمن له الاتصال بالشبكة العنكبوتية، خزن في مفضلة متصفحه كـــل المواقع التي تعنى بشؤون الدين، اشترك في تلك المواقع وشارك فيهـــا، ووصل به الأمر أنه بات قادراً على تصويب الأخطاء الفقهية التي يقع فيها إمام المسجد أو المحاضر.

مع انطلاقة تكليفه مديراً عاماً قرر عبد الله المأمون تخليد ذكرى أجداده المتوفين لما لهم على العائلة من أفضال، أجرى اتصالاته لضمان تغاضي الجهات المعنية عن بعض التجاوزات التي ينوي القيـــام بهـــا تدريجياً، وسع المساحة المحيطة بقبور هؤلاء الأجداد، خاصة القبر الذي ضم رفات جده المرحوم محي الدين المأمون الذي يحمل توأمه نفـــس

اسمه على عادة أهل المدينة في تخليد ذكرى موتاهم، أعاد بناء هذا القبر تحديداً من الخارج مستخدماً أحجار المرمر، أحاط المكان بسور معدني مزخرف وسقف قرميدي أخضر اللون، أمر بتصنيع شاهدة رخامية لقبر جده تجاوز في ارتفاعها المترين، كتب على ورقة بخط يده ما يتوجب على النحات أن ينحته على الشاهدة:

هنا يرقد
الشيخ الجليل العلامة
العارف بالله
محي الدين المأمون
نفعنا الله بسره
آمين

طلب من النحات تعتيق شاهدة قبر جده لتبدو قديمة العهد بما يناسب تاريخ وفاته، أعجب بأداء الرجل، أجزل له العطاء طالباً منه الدعاء للمرحوم جده الشيخ محي الدين المأمون، انتهى عبد الله من ترميم القبر، تأمل المكان مبتسماً في سره بينما يردد "آمين" خلف أدعية توأمه محي الدين المأمون فيما كانا يقفان متجاورين قبالة القبر ومن خلفهما بعض رجال العائلة ونساؤها، أفكاره مبحرة في مكان آخر، بات القبر يستأهل أن يطلق عليه تسمية "مقام" جدير بالزيارة.

بعد كل هذا لم يكن صعباً على عبد الله أن يدفع بتوأمه محي الدين ليصبح إمام مسجد الحي وخطيبه والمشرف على كل الدروس الدينية التي تقام هناك.

لم يكن ذلك المنصب من ضمن طموحات محي الدين المأمون ولا خطر بباله أصلاً، فهو غارق في حب الله لا أكثر.

- رب العالمين عطاك العلم.. حرام ما تخلي الناس تنتفع منه..

قال عبد الله عندما فوجئ الرجل باقتراح توأمه توليه إمامة المسجد الكبير للحي، لكنه لم يمانع.

رتب محي الدين تسيير أعماله وأعمال الأسرة التجارية من بعيد ليتفرغ خادماً للدين الحنيف، شاور عبد الله في مسألة استبدال لباسه الاعتيادي بلباس مشايخ المدينة، طلب منه الأخير المحافظة على لباسه الأوربي، شدد على ضرورة ارتدائه ربطة عنق، سمح له باستبدال جاكيت البذلة الرسمية بعباءة طويلة من نفس لون البنطال بحيث يظهر الانسجام جلياً فيما يرتديه، اختار له الألوان، جلس يتأمله وهو يستبدل عمامة بأخرى، أخيراً استقر رأي عبد الله على عمامة متوسطة الحجم، تناسب طول شقيقه وعرض منكبيه.

ظهر الشيخ محي الدين المأمون بلباسه الجديد أول مرة في إحدى الشعائر الدينية الاحتفالية، تقبل أهل الحي ممن يرتادون المسجد لباسه الجديد بترحاب، بعضهم تقدم له بالتهنئة مفترضاً أن في اللباس مزيداً من التقوى والصلاح، بعد انتهاء الاحتفال أقام توأما آل المأمون مأدبة طعام فاخرة في صالة ملحقة بالمسجد الكبير، وصل عبد الله إلى مأدبة الطعام بعد انتهاء الشعائر الدينية فيما كان ينتقل مئات الحضور من المسجد إلى الصالة الملحقة، لفت وصول الرجل بسيارته الرسمية كمدير عام نظر الناس، بعض من يعرفونه تقدموا للسلام عليه، لم يمضِ وقت طويل حتى بات جميع الحضور يعرفون بأمر عبد الله المأمون ووظيفته الحساسة، جلس التوأمان أحدهما إلى جانب الآخر يتناولان الطعام بأناقة وترفع، يتجاذبان أطراف الحديث مع ضيوفهما المحيطين بهما، وُزع على الفقراء الذين وقفوا على باب

الصالة يستجدون الدخول علب طعام معدة مسبقاً، جرت المأدبة بأفضل مما هو متوقع، عبد الله أيقن أن الوقت قد حان للخطوة التالية.

صدر قرار الجهات المعنية بتعيين الشيخ محي الدين المأمون في منصبه الديني إماماً ومحاضراً في المسجد الكبير للحي، رحب الناس بالقرار، سعدوا بحفيد الشيخ العلامة العارف بالله المرحوم محي الدين المأمون، ابن حيّهم البار، إماماً وخطيباً مفوهاً لمسجدهم، همسوا لشيخهم الجليل ببعض العتب يخص توأمه عبد الله، الأخير كان قد قطع صلاته بالحي وأهله وهم الذين يكنون له كل المودة والاحترام، لاقى عتبهم أذناً صاغيه لدى الشيخ ومن ثم لدى عبد الله.

واظب الأخير على حضور صلاة الجمعة في المسجد الكبير للحي بناءً على طلب توأمه قدر الإمكان، فاجأ الناس بحضور بعض الدروس التي يلقيها الشيخ محي الدين المأمون.

تكررت دعوات الرجلين لمأدبات الطعام في الصالة الملحقة بالمسجد، مرتان على الأقل في السنة: رأس السنة الهجرية وعيد المولد النبوي الشريف، باتت تقليداً يختص به حيّهم ومسجده الكبير، يتسابق الناس لتلقي الدعوات إلى تلك المأدبة من مختلف أحياء المدينة، خاصة بعد أن صار الحضور يضمّ شخصيات معروفة في المدينة، مشايخ أجلاء، مسؤولين، رجال أعمال كبار، رغم أهمية الحضور وكثرتهم بقي الشيخ محي الدين وعبد الله نجما المأدبة ومحط أنظار الجميع.

في المرحلة الأخيرة لتوطين وجاهة الشيخ محي الدين المأمون كأحد أهم رجال الدين في المدينة، تبرعت مديرية الاستملاكات

العامة بعد موافقة الجهات المعنية بمساحة أرض من أملاكها تقع قريباً من المسجد الكبير في الحي لإنشاء مبنى تؤسس فيه مكاتب جمعية خيرية تعنى بالفقراء والمعوزين، آل المأمون تبرعوا بكامل تكاليف إنشاء ذلك المبنى، أطلق على الجمعية الخيرية اسم:

"جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية"

أسرع الشيخ محي الدين باقتراح تركيب أجهزة تكييف جبارة في المسجد الكبير للحي كأول نشاط تقوم به الجمعية تفوه باقتراحه على الملأ، قبل الرجوع إلى عبد الله، المشروع أثار حماس الكثير من رجال الأعمال فقرروا التبرع بمبالغ سخية لهذه الجمعية الخيرية، ساير عبد الله اقتراح توأمه على مضض.

لاحقاً طلب عبد الله من محي الدين أن يعلن عن مشروع مستوصف خيري، يمكن تخصيص بضع غرف له في مبنى الجمعية، المستوصف يحوي بضع عيادات تقدم خدماتها بالمجان، طلب من العقيد عامر أبو النصر أن يتحدث إلى مدير الصحة ليقوم بتزويد المستوصف بالتجهيزات اللازمة على نفقة مديريته، تجاوب العقيد عامر أبو النصر مع الطلب بتحفظ، تأخر قليلاً انطلاق العمل في المستوصف، في النهاية باشر باستقبال المرضى مقدماً لهم خدمات بسيطة.

في مراحل لاحقة قدمت الجمعية لأبنائها خدمات توظيف ووساطات لدى الجهات العامة في المدينة عن طريق المدير العام عبد الله المأمون أطعمت بطوناً جائعة، العائلات والرجال الذين قدمت لهم الخدمات أو الإعانات تمّ انتقاؤهم بحرص شديد، تمت مراعاة التزامهم بحضور الصلوات والدروس في المسجد الكبير للحي، الأهم من ذلك

تمّ تخصيصهم بدروس تطرح أفكاراً عن إطاعة أولي الأمـــر، اختبـــار الولاء للجمعية جاء بنتائج مذهلة أرضت التوأمين "عالم" الدين والمدير العام.

أصبح الدعاء في نهاية الخطب والدروس ومآدب الطعام بالرحمة لروح المرحوم الشيخ الجليل العلامة العارف بالله محي الدين المـــأمون جدّ العائلة عادة مكرسة لا تفارق مكبرات الصوت في المسجد الكبير لحي آل المأمون العريق.

تلقت الجمعية مع مرور الوقت الكثير من الدعم ومن جهـــات متعددة في المدينة، بعضها أكثر أهمية من عبد الله المأمون نفسه، وفر لها هذا الدعم موارد مالية لا يُستهان بها، أصبحت تمتلك شققاً عديدة في أنحاء المدينة، أسهماً في مشاريع استثمارية، سيارات خاصة كُتِب على بعضها اسم الجمعية، العقيد عامر أبو النصر رأى في هذا التورم مرضاً خبيثاً، حاول التحرك ضده، لكنه وجد في وجهه سدوداً وحـــواجز تحول دون ذلك.

الشيخ محي الدين المأمون بصفاته القيادية تمكن من البروز كرجل متميز بدءاً من منزله حيث حكم بالعدل بين زوجاته الثلاثة المقيمات معاً في فيلته الفاخرة، وانتهاءً بتبوئه مركز مدير "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية" وخطيب وإمام مسجد مسموع الكلمـــة سرعان ما التف حوله المريدون، بالطبع حضر خطبه ودروسه هؤلاء المريدون وغيرهم ممن يتوجب عليهم متابعة أنشطة شـــيوخ المدينـــة وخطباء مساجدها.

يعقد الشيخ محي الدين المأمون حلقتي درس أسبوعياً في حـــرم المسجد الكبير، استطاع عبر الزمن أن يخلب لب مستمعيه بأحاديثـــه

المتنوعة التي لم تقتصر على التعليم الديني فقط، جاوزتها إلى مختلف مناحي الحياة، المجتمع، العلم، الطب، التربية، علم النفس، اللغة العربية، كيف لا وهو المتمكن من العلم الأسمى: علم الدين، استطاع بموهبته الفذة أن يستنبط من التعاليم التي مضى قرون عليها أهم مكتشفات العلم المعاصر، أقنع مريديه أن ما يخرج به العلماء إلى العالم الآن من مخترعات ليس أكثر من عملية إماطة لثام عن معرفة قديمة تعود إلى مئات سنين خلت، استمرأ الشيخ محي الدين شمولية الفكر الذي يعظ به، جاوز في دروسه بعض الحدود المرسومة والتي أطلعه عليها بإسهاب توأمه عبد الله.

العقيد عامر أبو النصر كان يتابع أنشطة الجمعية أولاً بأول رغم أنها لا تقع ضمن مضمار الملفات المكلف بها رسمياً، اهتمامه بها نابع من اهتمامه بصديقه عبد الله المأمون ومشاريع المصلحة المشتركة التي تجمعهما، استمع إلى تسجيل لبعض الدروس التي يلقيها الشيخ محي الدين، عين التوجس التي نظر بها العقيد عامر إلى تأسيس الجمعية تحولت إلى مشاعر قلق وترقب، راودته مشاعر غير مطمئنة لكل ما يقوم به صديقه عبد الله، عندئذ كان لا بد للعقيد عامر أبو النصر اتصالاته.

- جايني تبليغ راجع قسم الشرطة.. قال الشيخ محي الدين لعبد الله على الهاتف.

لم يتوانَ عبد الله عن الاستعانة بصديقه العقيد عامر أبو النصر، اعتذر الأخير عن التدخل كون المسألة لا تتعلق بعمل قسم شرطة مركز المدينة، فهم الرجل الإشارة فأجرى اتصالاته معتمداً على صلاته الخاصة.

استقبل الرجل بالحفاوة والتكريم اللذين يليقان "بعالم" دين في مكانته وبقرابته لعبد الله المأمون، دارت أحاديث متنوعة تدور حول الدين والدنيا، الأريحية كانت عنواناً للقاء، قبل الوداع الحار للشيخ محي الدين المأمون همس الضابط المضيف في أذنه بكل لباقة وتواضع:

- ما تشد علينا يا شيخ محي الدين.. بدنا منك تحبنا متل ما نحنا منحبك.

هز عبد الله رأسه متفهماً ما نقله إليه شقيقه من دون أن يعلق بحرف واحد، بات واضحاً أن "صديقه" العقيد عامر وراء استدعاء محي الدين إلى فنجان القهوة المزعوم.

استسلم محي الدين المأمون لقضاء الله وقدره في عقمه بعد مراجعة أهم الأخصائيين من أطباء المدينة في مجال الخصوبة والإنجاب، أجرى فحوصه بعد أن قامت زوجته الأولى بإجراء الفحوص اللازمة، تبين بما لا يقبل الشك أنها قادرة على الإنجاب، تكتم على ما أبلغه إياه الطبيب، لم تقبل كرامته أن يعترف علناً بعقمه، في ذات الوقت لم يدّعِ الكذب بتحميل زوجته المسؤولية، اكتفى بالقول أن أموره بخير إنما عليهما انتظار مشيئة الله، لم تشك زوجته في الأمر، فحولة الشيخ محي الدين في الفراش لا غبار عليها، وصية والدته على فراش الموت لاقت لديه أذناً صاغية، اعتقد الرجل أن الزوجة الثانية ستملأ الفراغ الذي خلفه غياب الذرية عن حياته، ربما تحدث المعجزة الإلهية على يد الزوجة المنتظرة، استأذن زوجته الأولى بالزواج مستشهداً بما يحفظه من علوم الدين، استمعت المرأة إليه بصمت غارق في دموع عينيها، وعدها الشيخ محي الدين أن يحسن إليها قبل زواجه، أدركت المرأة أن

القرار قد اتخذ مسبقاً بين نساء العائلة، وصية حماتها لم تكن خافية عليها، رفضها لن يغير قرار زوجها فيما هو مقبل عليه.

نفذ الشيخ وعده لزوجته الأولى، نقل إلى اسمها ملكية أحد محلاته في سوق رئيسة في وسط المدينة وأمر محاسبه بإيداع كل أرباحه في حساب مصرفي يخص الزوجة وحدها، استقبلت المرأة الزوجة الثانية لمحي الدين المأمون بحيادية تستتر خلفها نار غيرة حارقة، شيئاً فشيئاً تأقلمت المرأة مع وجود الضرة في حياتها، الأخيرة حاولت أن تستولي على حظوة الزوج، محي الدين التزم شرع الله فعدل بين الزوجتين، حتى يتمم عدله نقل إلى اسم زوجته الثانية ملكية محل آخر من محلاته، شكر الله على ما أنعم عليه من مال يستطيع به أن يشتري طمأنينة منزله وأسرته، سنة واحدة بعد زواج الشيخ محي الدين الثاني كانت كافية ليدرك الجميع أن غياب ذرية الرجل سببه رب الأسرة، استمع الرجل بصبر إلى شقيقتيه الكبيرتين تسألان عن حقيقة الأمر، قرر أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، طلب منهما البحث عن زوجة ثالثة!!

- لازم تجوزوه وحدة مجربة.. مطلقة.. أرملة يكون عندها ولاد.. مشان تضمنوا ما تطلع التالتة متلنا ما بتجيب ولاد..

قالت الزوجة الثانية بسخرية لاذعة لا تخفي غلّ الغيرة التي تنهشها.

الزوجة الأولى لم تعبأ بقرار زوجها كثيراً، ما الفرق بين ضرة أو ضرتين؟...

لم تستطع شقيقتا محي الدين أن تتوفقا بزوجة جميلة فتية بكر ذات حسب ونسب رغم ما وعد الشيخ الجليل ببذله من مال،

أخذت ثرثرة النساء المحيطات بعائلة المأمون تسبق زيارة شقيقتي محـــي الدين إلى أي منزل تقصدانه حول عقم الرجل، نساء أسرة الزوجـــة الثانية قمنَ بدور فعال في هذه القضية، إغراء مال محي الدين لم يحقق النتيجة المرجوة مع العائلات العريقة في المدينة، أخيراً قبل الرجل بفتاة ذات أصول متواضعة حتى لا يحتسب عليه أنه تراجع في قرار اتخـــذه أمام زوجتيه.

أحسن الشيخ إلى زوجته الثالثة كما أحسن لزوجتيه من قبلـــها، مال قلبه إليها للبراءة والطيبة التي لمسها فيهـــا، كـــادت أن تشـــتعل صراعات عدة داخل المنزل الواحد الذي تعيش فيه الزوجات الثلاث بتحريض من الزوجة الثانية، وأد الرجل الفتنة في مهدها مســـتخدماً اللين تارة والشدة تارة أخرى، تزوج الشيخ محي الدين المأمون ثلاثـــاً لينعم في دنياه بعد أن حُرم الذرية، لم يكن يشك للحظـــة واحـــدة بالنعيم المنتظر في الآخرة، لكن الدين حسب ما يفهمه أوصى بالسعي وراء نعيم الاثنتين الدنيا والآخرة، اكتشف سحر حبوب المنشـــطات الجنسية، مكنته من الانتقال بين زوجة وأخرى في الليلة الواحدة، لولا أنه يؤمن بأن قواه الجنسية ستكون لامحدودة في الآخرة لأوصى بـــأن تدفن معه بضع محافظ من تلك الحبوب!

17... قسم شرطة مركز المدينة

وضع العنصر صينية أمام المساعد أول أبـــي غســـان "الملـــك" عليها صحون عدة، فول، فتة، فلافل وبيض مقلـــي بالإضـــافة إلى المخللات، النعنع والبصل.

- رجعله ياها لأبو الخير وقله يحط لحمـــة علـــى وش الفتـــة والبيض المقلي أحسن ما روح أدعس عليه.. قال "الملك".
- أمرك سيدي.. رد العنصر.

غادر الشرطي بطعام الفطور مجدداً.

حصل "راغب السعدي" على الشهادة الثانوية، مجموعه العام لم يمكنه من الالتحاق بمعاهد الدراسة المتوسطة، ناهيك عـــن الدراســـة الجامعية، نصحه البعض أن يلتحق بدورة عمل "طـــوعي" تقيمهـــا إحدى الجهات العامة في المدينة صيف كل عام، بناءً علـــى عملـــه الطوعي هذا يُمنح كتاب توصية إلى الجامعة يجعلها تقبل بأن يلتحـــق الطالب بأحد فروعها دون النظر إلى مجمـــوع علاماتـــه، الأعمـــال الطوعية المطلوبة لم تكن ذات شأن يصعب القيام به: تلقي محاضرات توعية، تدريبات رياضية وعسكرية، من ثمّ حراسة بعض المرافق غـــير المهمة في المدينة، جولات تفتيشية على المدارس للتأكد من حسن سير عملية تدريس بعض المناهج المتعلقة بالنظام والانضباط، المشـــاركة في

التحضير للمهرجانات والأنشطة الجماهيرية، رفع مستوى الحماس لدى أهل المدينة في تلك المهرجانات، بضعة أسابيع فيها من التسلية والمتعة أكثر ما فيها من العمل الجدي.

تحفّظ والد راغب السعدي على اقتراح ابنه للالتحاق بالعمل الطوعي في بلدية المدينة، الرجل يرى للمسألة وجهاً آخر، الالتحاق بالجامعة بغير وجه حق لن ينتج طالباً متعلماً منتجاً، بل سينتج شخصاً اتكالياً لا مسؤولاً يبحث دائماً عن حلول سهلة ملتوية لمشكلاته، اقترح على ابنه إعادة سنته الدراسية الأخيرة في المدرسة الثانوية ليكون أهلاً للمرحلة الجامعية بحق، ناهيك عن أن فكرة العمل "الطوعي" هذا مستحدثة على المدينة، الأهالي لم يستوعبوا مضامينها بعد.

أعجب راغب بشخصية المساعد أول أبي نزار الذي كان منوطاً به الإشراف على أنشطة الشبان الملتحقين بدورات العمل الطوعي، لديه بنية عضلية متميزة، واثق من نفسه، له سطوته وتأثيره على من حوله، في لقائه الأول مع المتدربين وقبل أن يكلفهم بأي مهمة أفهمهم ضرورة إيمانهم بأهمية ما يقومون به، العمل "الطوعي" لا يقل أهمية أو خطورة عن أي عمل آخر، الرجل هو من يمنح للمهمة أهميتها وليس العكس، أراد أن يقدم لهم برهاناً حياً على ما قصده، توجه برفقة المجموعة إلى أحد أفران الخبز المزدحمة، طلب من المجموعة تنظيم الدور، انطلق الشباب نحو المتجمهرين حول نافذة الشراء يتحدثون إليهم طالبين منهم الاصطفاف بانتظام ليتسنى لكل واحد منهم الحصول على خبزه بالسرعة الممكنة وبالشكل الحضاري الذي يوفر عناء المزاحمة، وقف المساعد أول أبو نزار يتفرج من بعيد، انقضى ما يقارب الخمس عشرة دقيقة علا فيها الصياح، كاد

المتجمهرون أن يدخلوا في عراك مع الشبان المتطفلين، تقدم أبو نـــزار من الجمهرة، اختار رجلاً علا صوته كثيراً وهو يصد محاولات الشبان للتدخل، الرجل كان يفوق المساعد أول طولاً، أمسك الأخير بالرجل من رقبته وأجبره على مواجهته، رفع أبو نزار يده وهوى بهـــا علـــى وجه الرجل بصفعة أوقعت الصمت المطبق في المكان، التفـــت نحـــو جمهرة الناس:

- وقفوا بالدور يا ولاد الحرام... قال أبو نزار بصوت هـــادر متحدٍّ.

امتثل الناس بسرعة فيما يتهامسون، بعضهم فضل الانســـحاب على شراء خبز يومه.

تقريباً كان هذا هو الدرس الوحيد الذي وجهه أبو نزار لمجموعة الشبان، انطلقت المجموعة تفرض أهميتها على أي مهمـــة "طوعيـــة" تُطلب منها.

برع راغب أكثر من غيره فيما يطلب منه بعد أن بـــات يعتـــبر المساعد أول مثلاً أعلى، صار يبالغ في حماسه لتنفيذ المهام الطوعيـــة، عين أبو نزار الثاقبة لم يغب عنها حماس هذا الشاب، بمعرفة الرجـــل الخبير ترك أبو نزار الشاب يتصرف على هواه حتى انتهاء مدة الخدمة الطوعية:

- لا تضيّع وقتك بالجامعة.. واحد متلـــك خلـــق ليكـــون شرطي.. قال أبو نزار لراغب وهو يسلمه كتاب التوصية.

التحق راغب بكلية الهندسة، شعر بالفراغ منـــذ الأيـــام الأولى للدراسة، صعوبة تلقيه للمواد العلمية في الكلية ســـاهم في إحساســـه بصغر شأنه داخل مكان يعج بألوف الطلاب كلّ وحد منهم يسعى

لتثبيت وجوده بطريقة أو بأخرى، سيطرت كلمات أبـــي نزار على تفكيره.

رفض والد راغب فكرة التحاق ابنه بسلك الشرطة رفضاً قاطعاً، الجهاز سيء السمعة عموماً، كذلك أي مستقبل ينتظر رجلاً سيلتحق بسلك الشرطة دون شهادة جامعية تؤهله لارتقاء الرتـــب، ســـيبقى ضمن بوتقة صف الضباط إلى حين انتهاء مدة خدمته ليخـــرج مـــن السلك عجوزاً لا يصلح لشيء، الأهم من ذلك أن التحاقه بالســـلك خطوة إذا أقدم عليها فلا فكاك منها، المسألة ليست بالتصرف الـــذي يتراجع عنه متى أراد، بمجرد التحاقه تصبح حياته ومســـتقبله ملكـــاً للسلك بكل ما في الكلمة من معنى.

لم يطل تفكير راغب بالأمر، نصائح والده لم تغـــير في موقفـــه شيئاً، دفع الوالد زوجته للتحدث مع ابنها مستخدمة تأثير العاطفـــة عليه، رغم كل ذلك عاد راغب إلى المساعد أول أبـــي نزار واضـــعاً نفسه تحت تصرفه، زكاه الأخير ليلتحق بمدرسة الشرطة ليقضي فيها مدة تدريبه، منذ مغادرته لمنزل أهله قرر أن لا يعود إليـــه إلا محققـــاً انتصاراته، قرر أن يثبت لوالديه خطأ وجهة نظرهما، صَدم راغباً الفرز الذي تلقاه بعد تخرجه من مدرسة الشرطة، مكان عمل ناءٍ مهجور، عمل تافه يدعو للضجر، لا موارد مالية جانبية فيه، كذب دوماً على عائلته لم يخبرها أبداً بحقيقة ما يمر فيه، هرب إلى الســـكن في غرفـــة بائسة برفقة شبان لا يعرفهم (تلك هي الفترة التي تعرف فيها راغب إلى نائل الجردي المدعو أبو الريح المشرف على الحمام العمـــومي في السوق)، توسل راغب لأبـــي نزار أن يمد له يد المساعدة، نُقل بعـــد أكثر من سنة انتظار إلى مكان عمل أكثر بؤساً من سابقه، كـــادت

حالته النفسية المتردية أن تودي به إلى الانتحار، عاد إلى أبي نزار مجدداً، كاد أن يرتمي على حذائه متوسلاً، أدرك الأخير أن رجله بات جاهزاً، أخبره أنه سيكلفه بمهمة امتحانيه بناءً على نتائجه فيها سيتحدد مستقبله، لم تكن المهمة مستحيلة بل أبسط مما تصورها الشرطي راغب بكثير، مجرد الحصول على اعترافات من موقوف متهم بالسرقة يرفض الإقرار بفعلته، لم يستغرق الأمر مع راغب سوى بضع ساعات، حصل فيها على المعلومات المطلوبة التي فشل غيره في الحصول عليها طيلة أيام من التحقيق المستمر، غالباً سيحتاج ذلك الموقوف إلى أشهر ليستطيع أن يأكل أو يمشي بمفرده، تكررت المهام المطلوبة من راغب، أثبت في كل مرة كفاءته، جلّ تلك المهام فيها تنازل عن إنسانيته، فهم الشرطي راغب السعدي بلاوعيه – أو ربما بوعيه – أن جهاز الشرطة يُجري معه عملية مقايضة، مقابل كل تنازل يتلقى الترفيع المناسب، عندما تخلى راغب عن إنسانيته بشكل نهائي أُطلق عليه صفة "الملك".

في إحدى مراحل عمله الشُرَطي التقى الرقيب راغب بالنقيب عامر أبو النصر، ألحقه الأخير بفريق عمله، بات ينقله معه أينما نُقل هو وقلة من العناصر المخلصين المشابهين في تركيبتهم للمساعد أول أبي غسان "الملك"، عندما حل العقيد عامر في قسم شرطة مركز المدينة كان يرافقه أكثر من خمسين عنصراً بالإضافة إلى أبي غسان.

رغم رتبته المتواضعة غدا "الملك" مصدر رعب لأهل السوق، الأدهى أنه بات مصدر رعب لكل عناصر الشرطة في القسم، حتى بعض ضباط القسم وخاصة من ذوي الرتب الصغيرة كانوا يعتبرون أبا غسان مصدر شر يستحسن اتقاؤه.

الضابط الوحيد الذي كان أبو غسان يحسب حسابه ويقف متصاغراً بين يديه هو سيده ومصدر قوته العقيد عامر، لم يكن الأخير يحمل الرتبة الأعلى في القسم، لكنه دون أدنى شك هو الضابط الأهم.

العقيد عامر أبو النصر يحمل ذكاءً فطرياً حاداً، فراسة لا تخيب، ذاكرة متقدة لم تخذله يوماً، تحفظ الأسماء والأرقام والتواريخ والوجوه، قادرٌ على التأثير بالآخرين وكأنه يستخدم فنون التنويم المغناطيسي، يمتلك فضائل الاحترام والتأدب في الحديث، وجهه الشمعي لا يشي بانفعالاته، كل تلك السمات ما كانت تخفى عن الدوائر العليا في المدينة، حصنته ضد محاولات كثيرة للإطاحة به.

العقيد عامر كان من القلة التي تدرك كيفية الوصول إلى الأهداف، لم يكن يسمح للترهات أن تغريه، استعراض القوة، التباهي، بْذلُ الأموال الطائلة في مرابع السهر على موائد قمارها ونسائها، كل تلك الرذائل غرق فيها أقرانه فيما كان هو بعيداً عنها، شهدت المدينة الصعود السريع لأولئك المترفين وانحدارهم الأسرع، العقيد عامر كان بعيداً عن كل ذلك، يستحق لقب ضابط "شرطة" عن جدارة.

لم يكن يرتدي الزي الرسمي أبداً، ذوقه الرفيع بدا واضحاً في انتقائه ملابسه، إذا تكرمت عليك الصدفة بتناول الطعام برفقته على مائدة أحد المطاعم الفخمة التي يرتادها لعرفت أن الرجل الجالس قبالتك وهو يحتسي الويسكي من فئة "البلاك ليبل" ويدخن سيجار "الكوهيبا"، ليس بالرجل العادي على الإطلاق.

جميع من في قسم شرطة مركز المدينة يدرك أن لعمله طبيعة خاصة لا علاقة لها بما يجري داخل قسم الشرطة ككل، دماثة وعزلة العقيد خلقت رهبة بين جميع ضباط وأفراد القسم تجاهه، أما بالنسبة لأهل سوق البسطات الذين كانوا يهتمون بكل كبيرة وصغيرة تجري داخل القسم لما لها من انعكاس على حياتهم وأعمالهم، فقد كان العقيد بالنسبة إليهم شخصاً غامضاً قلّ ما يرد ذكره في أحاديثهم.

علاقة عامر أبو النصر بعبد الله المأمون لم تكن وليدة تجاور مبنى قسم شرطة مركز المدينة مع مبنى مديرية الاستملاكات العامة في سوق البسطة.

العلاقة بدأت من كلية الحقوق في جامعة المدينة التي تزامل فيها الرجلان أربع سنوات أنبتت علاقة وطيدة لم تنفك عراها طيلة السنوات الخمس والعشرين المنصرمة، بالطبع يشوب تلك الصداقة تضارب بعض المصالح لكنها بقيت مستمرة حتى ما قبل اندلاع الأحداث في سوق البسطة بمدة وجيزة.

البعض يقولون إن العقيد عامر هو خلف وصول عبد الله إلى المنصب الذي يشغله حالياً، جهل هؤلاء بالحسابات الدقيقة التي تجري في الدوائر المغلقة للمدينة يجعلهم يطلقون التخمينات الخاطئة، للدقة العقيد هو عراب وصول الرجل إلى منصبه عندما فتح له الأبواب المغلقة في قضية صهره عبد المولى السروجي.

خلال السنوات العشر المنصرمة التي كان فيها كلا الرجلين في موقع المسؤولية تبادلا الخدمات، العقيد مصدر معلومات موثوق لما يجري في الغرف السود من المدينة، جنبت معلوماته عبد الله زلات كثيرة، استطاع من خلال تلك المعلومات التمييز بين الصديق والعدو،

في عالم المدينة العلوي كلاهما، الصديق والعدو يتحدثان المفردات نفسها، يحملان الابتسامة نفسها، عموماً هناك في الأعلى الصداقة غير موجودة، التحالفات هي الوصف الأنسب لعلاقات الود، تراجعت علاقة عامر وعبد الله عن مفهوم الصداقة التي كانت سائدة بينهما منذ أيام الدراسة الجامعية تدريجياً لكنها لم تبلغ حد التحالف المجرد، بقيت تلك العلاقة تراوح بين الحدين.

جاء تأجيل تنفيذ المخطط العمراني لمركز المدينة الذي اقترحه عبد الله بناءً على ضغط من صديقه عامر، الأخير استفاد من أرض سوق البسطة بموارد مالية تصل إلى أكثر من ستة ملايين ليرة شهرياً، العقيد يستفيد منها منفرداً، على الأقل هذا ما يظنه عبد الله، بالطبع هذا إذا استثنينا الموارد التي يحصل عليها الأخير من شراكته مع صهره عبد المولى صاحب دكان الأدوات الكهربائية، مهما بلغت تلك الموارد لا يمكن أن ترقى إلى المبالغ التي يحصل عليها العقيد عامر، استنتج عبد الله أن وراء رغبة صديقه عامر تأجيل تنفيذ المخطط العمراني أسباباً أكثر أهمية من المبالغ الشهرية التي يتحصل عليها من سوق البسطة، دون التقليل من أهمية تلك المبالغ، لكن الرجل سيحصل على حصة معتبرة من مساحات المخطط العمراني إذا ما نفذ، لم يستطع أن يعرف عبد الله السبب الحقيقي لطلب التأجيل المتكرر عاماً إثر عام، منفعة الأخير الشخصية على الصعيدين المادي والمعنوي تكمن في إطلاق المشروع، ناهيك عن مصلحة المدينة برمتها، أتى من يهمس له أن أمثال العقيد لا مصلحة لهم بأي تحرك يحمل سمات التطور، أمثاله يزدهر عملهم بين العفن والغبار، عبد الله لم يستوضح من صاحب الرأي مقاصده، اعتبر أن مجرد الاستماع لهذه

الآراء ينضوي على مسؤولية، ابتلع الأخير استياءه من صديقه عامر منتظراً التوقيت المناسب للتخلص من حالة التسلط والهيمنة التي فرضها الأخير على مديريته دون أن يكون قادراً على الوقوف في وجهها، كيف يقف في وجهها وهو يعرف خطورة أن يكون شخص مثل العقيد عامر واقفاً إلى غير جانبه.

بكل الأحوال شكل كلا الرجلين في المدينة حلفاً قوياً لا يستهان به، ظاهرياً على الأقل، أطلق عليهما المهندس عصام الناصر رئيس بلدية المدينة لقب "الجوز" بمعنى الثنائي، "الجوز" والمهندس عصام الناصر على عداوة مستميتة يُقال أن الدم لن يشفع فيها.

الانخراط في سلك الشرطة كان حلماً يراود الطفل عامر مذ بدأ يلعب مع أقرانه "شرطة وحرامية"، أصرّ دوماً على القيام بدور الشرطي، تشاجر مراراً مع أصدقاء طفولته لرفضه تبديل الأدوار، أراد أن يكون دوماً في جانب الأخيار المنتصرين، اختار كلية الحقوق بعد حصوله على الشهادة الثانوية ليتخرج منها متفوقاً ويلتحق بعدها بكلية الشرطة، يتخرج ضابطاً برتبة ملازم أول، كالعادة ألقي به للعمل في أماكن عديمة الأهمية، لم يغب عن بال الملازم أول عامر أبو النصر الأثمان المطلوبة ليشغل المواقع المهمة والحساسة، غريزته أنبأته بالتريث قبل الانخراط في أعمال لها جانب مظلم إذا ما ظهرت للنور يوماً قضي على مستقبله المهني تماماً، ظهور ذلك الجانب في المهمات المطلوبة للترقي وارد الحدوث جداً، يكفي أن يخرج عامر أبو النصر عن المسار المرسوم له قليلاً حتى يجد نفسه عرضة للمساءلة تحت سيف الحق والقانون، ذلك السيف الجاهز لأن يسحب من غمده عندما يراد له دون الحاجة حتى لإزالة الغبار عنه.

- ما بدها تفكير.. إلا إذا حابب تضل عم تنشوى بهـــالفرن..

قال له أحد زملائه بعد أن تلقى أمر نقله إلى موقع حساس.

كان الملازم أول عامر أبو النصر حينها يخدم في مخفر صـــغير في إحدى القرى النائية، المخفر كان عبارة عن غرفتين سقفهما من ألواح التوتياء، نهارهما حريق وليلهما صقيع.

18... على العشاء

- حضري حالك اليوم.. عبد الله المأمون عازمنا عالعشـــا...

قال عامر لزوجته صبا الخطيب وهو على وشك المغادرة.

علاقة صبا الخطيب بزوجها عامر أبو النصر أفضل بكثير مـــن علاقة هزار النجار بزوجها عبد الله المأمون، ارتباطهما وليد علاقـــة حب تعود إلى الأيام التي كان عامر يحمل فيها رتبة نقيب، التقى بصبا في عرس أحد أقربائه، تلك الليلة ربطت أحدهما بالآخر.

كان والد صبا ضابطاً كبيراً في الجيش، بعيداً تماماً عـــن ســـلك الشرطة ومهامه لكنه صاحب كلمة نافذة وعلاقات متعددة في المدينة، رأى في النقيب عامر شاباً طموحاً لماحاً، تجربة وبصيرة الوالد الثاقبـــة أنبأته أن مستقبل هذا الشاب واعد، رغم ذلك اعتبره أقل شأناً من أن يكون زوجاً لابنته صبا، في النهاية تمّ الزواج دون معوقات تـــذكر، حب صبا لعامر انتصر، لم يكن ينغص هذا الزواج سوى الإمكانيات المادية المتواضعة جداً التي كان يعيش بها النقيب عامر آنذاك، والد صبا لم يبخل على صهره بالتوصيات هنا وهناك لتـــدعم إطلاقـــه نحـــو المستقبل، اعتقد النقيب عامر أن توصيات والد زوجته صبا هي العتبة المنتظرة، من يدري ربما لم يغب هذا الجانب عن حساباته عندما بـــدأ ينغمس في حب صبا الخطيب.

دفعت توصيات والد صبا بالنقيب عامر إلى وضع أفضل، لكنه بالتأكيد لم يكن في المستوى الذي يطمح إليه الضابط الشاب، اكتشف أن هذه التوصيات لن تصنع له المستقبل المأمول، في الوقت ذاته بدأ الزمن يجري لغير صالحه، عمه اقترب من سن التقاعد، هذا يعني أن جرعات التوصيات التي يطلقها هنا وهناك لمصلحة زوج ابنته سينتهي مفعولها، من الوارد جداً أن يعود النقيب عامر إلى الخدمة في المخافر ذات السقوف المصنعة من ألواح التوتياء.

وظفت صبا كل تأثيرها على أسرتها من أجل زوجها عامر، بذلت كل توسلاتها لاستعطاف والدها، جلس الأخير يستمع إليها تشكو بصوتها المختنق بالدموع فيما كان حفيده الأول زين بن عامر نائماً بوداعة بين يديه، أطلق والد صبا كل سهامه دفعة واحدة، بما فيها السهام التي يحتفظ بها لمستقبل أبنائه الذكور وكانت النتيجة مرضية.

عامر لم ينسَ لعمه تلك الخدمات، ردها بأحسن منها حالما بدأ رحلة صعوده، خصّ منزل عمه بواحدة من سيارات قسم الشرطة المفروزة لخدمته شخصياً مع سائقها تقوم على تلبية متطلباتهم ليل نهار، مرتباً شهرياً قدره مائة وخمسين ألف ليرة تضعه صبا في يد والدها، كل الخدمات التي تلزم عائلة زوجته لم يتوان العقيد عن تلبيتها.

حافظت صبا على علاقة دافئة مع زوجها، المرأة تمتلك غريزة أنثى قادرة على الالتفاف حول مختلف ظروف الحياة الزوجية، تتقن لعبة شد الحبل ببراعة بحيث لا تسمح لذلك الخيط الذي يربطها بعامر أن يصل إلى مرحلة الشد أبداً، بشكل أو بآخر في علاقتها مع زوجها

كانت هي المنتصرة، عدد خياناته الزوجية لم تتعد أصابع اليد الواحدة حدثت في السنوات الأولى لزواجهما، حسم هو بنفسه هذا الموضوع بشكل نهائي إثر نوبة عذاب ضمير تعرض لها في آخر غزوة قام بها، إذ حدث في طريق عودته إلى المنزل من مناوبته "المفترضة" أن ورد إلى هاتفه المحمول بعد أن قام بتشغيله عدة رسائل من زوجته صبا تنبئه بأنها اتصلت فيه مراراً لتعلمه أن ابنهما زين يتعرض لنوبة ربو حادة وأنها قامت بنقله إلى المشفى، حينها كانت الرتبة والموقع الذي يشغله عامر أبو النصر يتيح له التمتع بسيارة واحدة فقط مع سائقها، بالتالي قامت صبا بإنقاذ حياة ابنه بطريقة رأى فيها الكثير من البطولة والتضحية، لم تستعن بأحد من أهلها لئلا يقع أي لوم على زوجها، تعهد الرجل أمام الله فيما هو ينتظر إنعاش ابنه في المشفى أن لا يعود إلى تلك الغزوات على الإطلاق إن كتب لابنه النجاة، بالفعل نجحت عملية المقايضة بينه وبين ربه، ربح حياة ابنه زين، ربحت صبا إخلاص زوجها دون أن تدري عن حقيقة مجريات المناوبة المفترضة.

حين أصبح العقيد عامر في الصفوف المتقدمة بين أهل المدينة باتت منغصات حياة صبا لا تذكر، بضعة أيام قلق يتعرض لها زوجها عندما يرده خبر المكائد التي يقوم بها ضده الحاسدون لدى السلطات العليا في المدينة، تقضيها المرأة برفقة زوجها تحاول تسليته فيما هو يتلع جرعات كبيرة من ويسكيه المفضل "البلاك ليبل"، طلبات أسرة عامر التي لا تنتهي من مال وخدمات، أفراد أسرته ظلوا على حالهم من التواضع المعيشي مقابل صعود ابنهم، أكثر ما كان يغيظها عندما يُطلب منه التوسط لأحد المعارف أو الأقرباء البعيدين، بذلت المرأة جهودها لمنع وصول تلك الطلبات إلى عامر، بما أن الرجل كان

عطوفاً على أسرته، حريصاً على مراعاة زوجته في الوقت ذاته، أخذ يلبي تلك الطلبات بطرقه الخفية التي هي أبرع ما يقوم فيه، أدركت صبا بعد أن توقفت تماماً الاتصالات والزيارات المنزلية التي كانت تتم لتلك الغايات، أن زوجها فتح لأقربائه قنوات اتصال خلفية بعيداً عن مرآها، ليس من المعقول أن تكف أسرته عنه تماماً، آثرت الصمت على فتح الجبهات وإن بقي الغيظ ينهش داخلها.

- ما بحب أتأخر على موعد؟... قال عامر لزوجته فيما كان يقود سيارته بنفسه.

- شو بعمل إذا كان في عجقة عند الكوافير؟...

دخل عبد لله وزوجته هزار إلى صالة المطعم الفخم الذي دعا إليه عامر يتبعه سائقه مهند الداودي حاملاً زجاجة ويسكي من فئة "البلو ليبل"، خفّ إليه مدير الصالة يستقبله بحفاوة فيما يقوده إلى طاولته المفضلة.

علاقة ودودة تجمع هزار النجار بصبا الخطيب، تقومان بمشاريعهما الخاصة بين فينة وأخرى، تشوب العلاقة بعض الحساسيات الصغيرة بين الحين والآخر ناجمة عن تنافس بين المرأتين استناداً إلى موقع زوجيهما في الحياة العامة للمدينة، عموماً يمكن أن توصف علاقتهما بالناجحة، خاصة أن كلتا السيدتين تدركان مدى عمق علاقة زوجيهما أحدهما بالآخر.

بمجرد أن جلس عامر وصبا قبالة عبد الله وهزار انقسمت الطاولة إلى طاولتين، غرقت السيدتان في أحاديث المجتمع، بينما كان حديث الرجلين يتخذ منحى مختلفاً تماماً.

- شو أخبار عصام الناصر؟.. قال عبد الله.

ضمن سياسة خلط الأوراق السائدة في المدينة، خلق مراكز قوى متحاربة وتحت التأثير العميق للعلاقات الواسعة التي يمتلكها عبد الله المأمون والعقيد عامر أبو النصر، تمكنت مديرية الاستملاكات العامة من انتزاع المشروع العمراني الجديد لمركز المدينة برمته من البلدية، تحديداً من بين يدي المهندس عصام الناصر لتقوم هي بتنفيذه كاملاً، مع الأخذ بعين الاعتبار أن مديرية الاستملاكات العامة ما كانت في يوم من الأيام جهة منفذة لأي مشروع، أساساً هي لا تملك الكادر أو المعدات اللازمة لإنشاء غرفة فكيف ونحن نتحدث عن مشروع عمراني حديث لمركز المدينة؟

لم يصدق المهندس عصام الناصر عينيه فيما كان يقرأ القرار الذي ورده على جهاز الفاكس والقاضي بتكليف مديرية الاستملاكات العامة الإشراف على تنفيذ المشروع، قفز من خلف مكتبه يلوح غاضباً بالورقة المطبوع عليها القرار:

- أنا شو عملت ليدقوني هيك خازوق.. حدا يقلي شو عملت؟!.. صرخ المهندس عصام الناصر.

أخذ يهلوس كالمجنون متفوهاً بما لا يُقال، من حسن حظه أن مدير مكتبه فقط هو من كان حاضراً وإلا لكان خسر منصبه برمشة عين.

طار من بين يدي المهندس عصام الناصر رئيس بلدية المدينة المشروع الأهم ليس فقط لما كان سيحمله إليه تنفيذ مخطط مركز المدينة من العمولات السود لعملية الإنشاء، كذلك هناك العمولات التي كان سيتقاضاها من توزيع عقارات المشروع، عشرات الآلاف من الأمتار المربعة في عشرات الأبراج، عصام الناصر جهز سماء

أحلامه لتمطر عليه ذهباً، "الجوز" سرقا منه مشروعه، ماله، ذهبه، الأهمية التي كانت ستضاف إلى منصبه طيلة مدة تنفيذ وتسليم المشروع.

ابتلع عصام "الخوزاق"، احتفظ بمنصبه، باشر حربه ضد "الجوز".

لّمح عبد الله أثناء العشاء إلى ضرورة التقدم بضع خطوات بمشروع المخطط العمراني، على عادته في الأجوبة الغامضة، وعده عامر أن يدرس الموضوع ويبلغه بالمستجدات، ابتلع الرجل مجموعة من النقاط كان ينوي الإدلاء بها ليؤكد صحة وجهة نظره، ابتلاع آرائه المرة تلو الأخرى كان يصعد لديه حالة من التوتر أخذت تسببها له علاقة الضرورة القائمة مع العقيد.

- صاير عندي حساسية.... قالت هزار وقد مدت يدها تعرضها على صبا بعد أن كشفت طرف ثوبها عن ساعدها مشيرة إلى بقعة صغيرة من جلدها اختلف لونها عما حولها.
- ما رحتي لعند الدكتور؟.... ردت صبا.
- مشان شو؟ بكرا بتروح لحالها...

لم تكن صبا وهزار تعلمان الشيء الكثير عن أعمال زوجيهما، الرجلان رغم الحياة المنفتحة التي كانا يعيشانها برفقة أسرتيهما لا يثقان كثيراً بمقدرة السيدتين على إبقاء فمهما مغلقاً، أجوبتهما تأتي مبهمة على أي استفسار من قبل الزوجتين.

19... بلدية المدينة

لم يُوفر المهندس عصام الناصر رئيس بلدية المدينة جهداً يستطيع من خلاله توجيه سهم "للجوز" إلا أطلقه: السوق بوضعها المزري المستمر منذ عشر سنوات أحد هذه السهام: *ألا تعتبر حالتها الراهنة وصمة عار في جبين المدينة بعد أن كانت حتى عهد قريب مثالاً يحتذى بين المدن في التنظيم والنظافة؟ ما الذي يمنع من مباشرة الحفر لإنشاء البُنى التحتية ريثما تنتهي لجان التطوير من عملها؟ هل هناك جدوى حقيقية من عمل تلك اللجان؟ من هو المتعهد أو المتعهدون الذين سيؤول إليهم تنفيذ المشروع؟....* كل هذه الأسئلة وأكثر أخذ عصام يبثها هنا وهناك، بالفعل تمكن من خلق حالة تشويش حول أداء مديرية الاستملاكات العامة ومديرها العام، تجنب الرجل في حربه ذكر مسألة العمولات السود المرتقبة من المشروع لحساسيتها، خاصة وأنه يقود مشاريع أخرى عديدة في نواحي المدينة، مجرد ذكر العمولات كفيل بأن يفتح عليه أبواباً هو في غنى عنها.

أدرك عبد الله أي فكي كماشة واقع هو بينهما عداوة عصام من جهة وتسلط العقيد من جهة أخرى.

للأمانة ساعد عامر صديقه عبد الله ببث الإشاعات المضادة: *لجان التطوير عملها في تقدم مستمر، اكتشاف ثغرات كثيرة في*

المخطط والدراسات التي أجرتها بلدية المدينة، الوقت الراهن لا يحتمل تنفيذ المخطط العمراني، إذ ليس من مصلحة أحد في شيء قطع أرزاق آلاف العائلات التي تعتاش من موارد عمل أطفالها ورجالها ونسائها في سوق البسطة، الرأفة بهؤلاء الناس ضرورة ملحة تمس أمن المدينة وبناءً عليه يتوجب على بلدية المدينة تأمين مكان بديل مناسب لنقل أعمال هؤلاء الفقراء إليه.

بالطبع ليس من الصعوبة بمكان على أي جهة تقرر مباشرة تنفيذ المشروع أن يصبح هؤلاء الفقراء عاراً على وجه المدينة الحضاري، يجب ترحيلهم وإزالة أعمالهم بأسرع وقت وبأي طريقة، تاركة لصاحب الأرزاق أن يتدبر شؤون عباده.

تمكن عصام من زرع شوكة له في خاصرة سوق البسطة، إذ أمر العقيد عامر أبا غسان أن يفرّغ المساحة المحاذية للشارع العام من البسطات والشاغلين بغرض استخدامها كمرأب مجاني لسيارات العموم ضمن فرضية الحالة العشوائية المعمول بها على أرض السوق، في حين يطلق هو يد مساعد قسم الشرطة لوضع نظام العمل فيه وتقاضي الأجور!

رئيس بلدية المدينة تدخل ليجعل من المرأب استثماراً عاماً يعود دخله بالنفع على صندوق بلدية المدينة، لم يستطع العقيد أن يفعل شيئاً أمام سيف "الصالح العام" الذي رفعه بوجهه عصام، خاصة وأن الأخير استند في مناصرته المزعومة للصالح العام إلى بعض أصدقائه من ضباط الشرطة الذين لا يقلون أهمية عن العقيد عامر، الأخير ألقى بكل ثقله ليحصل أحد معارفه على ذلك الاستثمار المربح، فما كان من رئيس البلدية إلا أن طرح المشروع للمزاد العلني وأشرف بنفسه

على المآل الذي سينتهي إليه ذلك المزاد، فحصل على حصته من موارد السوق وعلى مزيد من عداوة العقيد.

ما كان لعامر أبو النصر أن يقف مكتوف الأيدي، حاول بشتى السبل أن يستعيد السيطرة على أرض المرأب متكلاً على اتصالاته الواسعة، في كل مرة كانت محاولاته تبوء بالفشل، أطلق أبو غسان ليقوم بمضايقة بضعة موظفين كانوا يقومون بركن السيارات وتقاضي البدل المادي للوقوف، وصلت الجرأة بالأخير درجة أوقف فيها موظفي المرأب داخل نظارة قسم شرطة مركز المدينة بذريعة شكوى قدمت له من قبل أحد مالكي السيارات تفيد أن أموالاً قد سُرقت من سيارته فيما كانت مركونة داخل المرأب، لم تمضِ بضع ساعات حتى أمر العقيد مخدومه أن يطلق سراحهم.

استغرب عامر أن يوجه له عبد الله نصيحة بالتخلي عن أمر المرأب نهائياً، بدد الأخير استغراب صديقه مشيراً إلى أحد الهواتف الموضوعة على مكتبه:

- إجابني تلفون.. قال لازم تغض نظر عن موضوع المرأب بشكل نهائي...
- من مين التلفون؟!... رد عامر مستغرباً.

أشار المدير العام عبد الله المأمون بإصبعه نحو الأعلى مكتفياً بالصمت.

الحديث الذي دار بين الرجلين أيقظ لدى العقيد إحساساً بالريبة تجاه صديقه، من الواضح أن لدى الأخير قنوات اتصال مع جهات نافذة في المدينة لم يبح له عنها برغم ما يفترضه من صداقة عميقة تجمعه مع الرجل، من جهته عبد الله تقصد إرسال هذه الإشارة ليُفهم

صديقه أن التسلط الذي يمارسه على أرض سوق البسطة تجاوز الحدود، قام عبد الله بهذه الخطوة تمهيداً لحسم المماطلة التي أرهقه بها صديقه حول بدأ مشروع المخطط العمراني، العقيد غض النظر إلى حين عن موضوع المرأب، أمر أبا غسان بعدم التعرض نهائياً لكل ما يحدث فوق أرض تلك المساحة، الأهم من ذلك أوعز لرجاله الخاصين أن يضعوا صديقه عبد الله تحت المراقبة.

تحرك عصام الناصر مجدداً: ما دامت السوق قد أصبحت واقعاً راهناً ريثما تنجز مديرية الاستملاكات العامة أعمالها المتعلقة بها، ما الذي يمنع بلدية المدينة من إجراء مشروع تنظيم لبسطات السوق؟ قدم الرجل مشروعاً متكاملاً يتضمن إقامة دكاكين صغيرة مصنعة من مواد خفيفة رخيصة وقابلة للإزالة في أي وقت ثمّ عرضها للاستثمار على هؤلاء الناس البسطاء الذين يسترزقون من بسطاتهم العشوائية مقابل مبالغ زهيدة تعود بالنفع مجدداً على "الصالح العام".

كان من الضروري الحصول على موافقة قسم شرطة مركز المدينة فهو السلطة التنفيذية التي ستضمن نجاح هذا المشروع بدءاً من إزالة المخالفات الموجودة على أرض السوق حالياً وانتهاءً بضمان استمرار السوق المؤقتة المقترح، أصحاب البسطات كالمرض السرطاني ما إن يوجدوا في مكان ما حتى يبدؤوا بالانتشار العشوائي فيه، غياب السلطة سيجعلهم يتواجدون جنباً إلى جنب مع الدكاكين المؤقتة، موافقة العقيد عامر مسألة حاسمة في نجاح اقتراح المهندس عصام.

عند هذا الحد أدرك العقيد أن رئيس بلدية المدينة قد أعلن حرباً شخصية موجهة ضده بالإضافة للحرب القائمة أساساً بينهما إثر وقوفه خلف صديقه عبد الله في سحب تنفيذ مشروع مركز المدينة

من بلديته، لم يكن بالإمكان الخروج بهذه الحرب إلى العلن فـ "الصالح العام" كان يقف بين الرجلين بسطوته المهيبة التي لا يستطيع أن يطالها أيٌّ كان.

ارتأى العقيد أن الصواب يقتضي ترك البلدية تنفذ مخططها، لن يسمح للمهندس عصام أن يجره إلى نزاعات صغيرة تستنزف جهوده وعلاقاته من أجل الفتات، رغم ذلك وحتى لا يستسهل عصام الحرب ضده، أصر العقيد على عملية محاصصة بشأن توزيع الدكاكين المؤقتة، توصلت السلطات العليا في المدينة إلى حل يرضي جميع الأطراف، تمّ تخصيص قسم شرطة مركز المدينة بنسبة 25% من الدكاكين المزمع إنشاؤها ليقوم القسم بتوزيعها على المستثمرين تحت إشرافه (تحت إشراف العقيد عامر شخصياً)، ألقى عبد الله المأمون بثقله لتحصل "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية" على نسبة 20% من تلك الدكاكين بحجة دعم موارد الجمعية وأنشطتها التي ترعى الفقراء والمعوزين والمرضى، في حين حصلت جهات متفرقة على نسبة 10%، عصام الناصر حصل على أعلى نسبة لتوزيع الدكاكين البالغة 35%، تمّ الإعلان عن المشروع رسمياً، حدد تاريخ بدء الاكتتاب للعموم وموعد انتهائه، بالطبع هؤلاء العموم حصلوا على 10% الباقية من الدكاكين، اليومان اللذان خصصا للاكتتاب كادا أن يتحولا إلى مجزرة حقيقية لولا تدخل شرطة البلدية ومنعها الاقتتال بين الناس حول أحقية الدور والاعتراضات التي ظهرت على ما اشتبه بأنه عمليات سمسرة تجري بين جموع المنتظرين والموظفين القابعين خلف مكاتبهم داخل مبنى البلدية المكلفين بقبول طلبات أهل المدينة.

بعد أسابيع عدة صدرت قوائم بالأسماء المقبولة طلباتهم من أهل المدينة والتي تغطي ما نسبته 100% من دكاكين السوق، وقّع هؤلاء المحظوظون عقوداً مع البلدية لم يقرؤوا سطراً واحداً منها – بالطبع لن تغير قراءتهم للعقود من واقع الحال شيئاً – العقود كانت تنص على بنود إذعان لا تمنح المستثمر أي حقوق، أهم هذه البنود أنه يمكن للبلدية إنهاء عقده وطرده من الدكان دون إنذار مسبق وإحلال من تشاء بدلاً عنه، هذا لا يعني بحال من الأحوال أن رئيس بلدية المدينة قادر على الإخلال بنسب توزيع حصص الإشغال في السوق، النسب التي تمّ الاتفاق عليها تقارب حد القداسة في أهميتها إنما يحق لكل صاحب نسبة توظيف عقود البلدية لمصلحته وفق ما يراه مناسباً، العقيد عامر تحديداً احتفظ بالعقود التي وزع بموجبها الدكاكين داخل مكتبه، رفض حتى أن يزود البلدية بصورة عنها، جلّ ما تعرفه البلدية هو أرقام الدكاكين العائدة لقسم شرطة مركز المدينة.

بعض التذمر صدر من شاغلي أرض السوق إثر الإعلان عن إقامة متاهة من الدكاكين الصغيرة المعروضة للاستثمار بأسعار بخسة، هذا التذمر لم يلق صداه و لم يترك أثراً يمنع من إقامة سوق مشكّلة من عوارض معدنية مكللة بأقمشة كتيمة للماء ليس هناك فارق كبير بينها وبين غرف أبي الوفا وأبي داغر وغازي القماشية سوى أنها موحدة الشكل واللون، حضارية المظهر إلى حد ما، بالإضافة إلى مدها ببعض الخدمات الضرورية كالكهرباء.

قلق أبي داغر وأبي الوفا وغازي من أن يفقدوا خيمهم لاقى تطمينات مؤكدة من قبل "الملك":

– أنتوا لا تاكلوا همّ.. محسوب حسابكن.... قال "الملك".

- بتعرف معلم.. صدقني السوق هيك أحسن عالأقل مفرودة قدام عيونك متل الكف.. بلاها هالدكاكين.. رد أبو داغر.

هزّ أبو غسان رأسه في رد فعل غامض.

أنشئت السوق المؤقتة الجديدة، استوعبت دكاكينها الصغيرة عدداً من المستثمرين أكثر مما كانت أرض السوق تستوعب أيام فوضى العقيد ومرؤوسه أبي غسان. رغم الاستيعاب الجديد، الأستاذ عبد الغني الشاعر لم يتمكن من الحصول على دكان يبيع فيها كتبه، هو لم يكن ممن ينتمي إلى إحدى الجماعات التي استولت على السوق، عندما ذهب إلى البلدية ليسجل اسمه حسب إعلان الاكتتاب، لم يفكر حتى بالاقتراب من الجمهرة التي كانت تَقتتل فيما بينها للحصول على دور، قرر البحث عن مكان آخر يفرد فيه بسطة كتبه، أثناء مروره بالسوق المؤقتة بعد إنشائها ليستطلع الحال الذي آلت إليه، عرض عليه أحدهم استثمار دكانه مقابل عشرة آلاف ليرة شهرياً يدفعها له، كذلك يترتب عليه دفع بدل الاستثمار للبلدية عشرة آلاف أخرى، إجراء غير قانوني، حسب عقود البلدية لا يحق لمستثمر عرض دكانه للإيجار، البلدية تريد أن تعرف دوماً من هو شاغل الدكان، عادة ما يتم غض الطرف عن هذه التصرفات طالما أن أمن السوق بخير، علق أبو نافذ عندما تناهى إلى سمعه الخبر:

- ليش هو عم يطالع خمستالاف ليرة بالشهر ليدفع عشرين؟!....

راقت الفكرة للأستاذ عبد الغني الشاعر إذ وجد في الدكان متسعاً يسمح له بالمنامة فيها، يستغني بها عن الغرفة المؤجرة التي اتخذها مسكناً بعد أن باع منزله ووزع ثمنه على أولاده، الدكان كانت

متطرفة قليلاً عن متاهة الدكاكين الأخرى، رغم ذلك تفاءل الرجل بالتجديد الذي طرأ على السوق، اشترى ديواناً مستعملاً يصلح لمنامته، الديوان يحوي صندوقاً وضع فيه أشياءه الخاصة القليلة، أحضر كتبه، رفع من سويتها قليلاً بعرض بعض كتب الأدب الرفيع.

ليتمكن من إيفاء العشرين ألف ليرة المترتبة عليه شهرياً عرض للبيع بعض مواد القرطاسية أقلام ودفاتر مما يناسب مزاج السوق، حافظ على كرسيه الواطئ رغم وجود الديوان في صدر الدكان، يجلس عليه في أوقات فراغه الكثيرة ليتابع قراءة كتبه، بكت ابنته عندما رأت المكان الذي بات مسكناً لوالدها، أراد الأبناء أن يتكفلوا ببدل إيجار الغرفة المؤجرة ليعود إليها مجدداً، الأستاذ رفض بشدة، أفهمهم أن سبب قراره شيء آخر تماماً غير العوز المادي، ابتسامته المطمئنة أقنعت أولاده أن يتركوه يفعل ما يشاء.

في مبنى البلدية أخذ المهندس عصام يتأرجح على كرسيه الوثير خلف مكتبه العريض المزدحم بالملفات والأوراق، توقف عن تأرجحه، استند بمرفقيه إلى المكتب:

- لسه ما شاف مني شي هو وصاحبه يلي قاعد ورا مكتبه عم يغب بالأخضر(*).. قال المهندس عصام الناصر موجهاً كلامه لمدير مكتبه الواقف قبالته.

(*) الأخضر تسمية شائعة للدولار الأمريكي.

20... بهاق

هزار زوجة عبد الله كاد أن يُغمى عليها عندما اكتشفت مزيداً من البقع فاتحة اللون تظهر في أنحاء مختلفة من جسدها، رافقت صبا زوجة عامر صديقتها إلى طبيب الجلدية المختص والذي اعتادت مراجعته لمواكبة أحدث التقنيات الطبية التي تعنى بالجمال.

إنه البهاق، صارحها الطبيب، لا شفاء منه تقريباً، قد تكون محظوظة إذا توقف مرضها عن الانتشار، البهاق مرض عبثي لا يمكن تخمين سرعة تطوره والأماكن المتوقعة للإصابة.

هزار اعتبرت أن زوجها هو المسبب لمرضها بعد أن ربط الطبيب البهاق بالأزمات النفسية، هل سيغير هذا المسبب من واقع الحال شيئاً؟.. البهاق بدأ وأيّاً كان سببه فهي وحدها من ستدفع ثمن التشوه المبكر لجمالها.

كل كلمات المواساة التي حاولت أن ترفع صبا بها من معنويات صديقتها فيما كانتا تجلسان في المقعد الخلفي للسيارة التي خصصها العقيد لزوجته لم تجدِ نفعاً في كفكفة دمعة واحدة من تلك التي كانت تذرفها المرأة بغزارة.

هزار ليست المرأة التي تبحث عن إكسير الخلود، تدرك أن شبابها سيذوي يوماً، سيأخذ معه جمالها، تلاشي جمالها بحكم تقدم العمر

مسألة، واحتراقه تحت نير البهاق مسألة أخرى تماماً، أغمضت عينيها متخيلة شكل وجهها عندما ينتشر المرض فيه، أفزعها ما رأت، فاضت عيناها بمزيد من الدموع.

هي تدرك منذ الآن ماذا سيكون رد فعل زوجها: الصمت، لا شيء سواه، سيتعامل مع الأمر وكأنه لم يحدث، كأنه لا يراه، سيظل هذا موقفه فيما يشاهد يوماً بعد يوم البقع الباهتة تلتهم وجهها وأطرافها وجسدها والذي يعتبر بنظر الجميع آية في الجمال حتى هذه اللحظة بالرغم من عدد سنوات عمرها التي تجاوزت الأربعين وثلاثة أولاد أنجبتهم، لو أن عبد الله يبوح أمامها برأيه في مرضها لهان الأمر، ليته يقول لن تكوني جميلة بعد اليوم، أساساً هي لا تذكر أنه قال لها يوماً أنتِ جميلة، سيسترق النظر إليها بصمت، لن تعرف أبداً ما يجول بخاطره، أدركت أن البهاق سينتقص منها أمامه، نظرتها هي إلى نفسها ستتغير، الأدهى من ذلك أن زوجها أصابها بعدوى الصمت، لن تستطيع أن تبوح بتفصيل واحد مما يجول في خاطرها لأحد حتى لو أرادت، حياتها مع عبد الله سلم يهبط بها إلى الأسفل، في كل يوم، في كل موقف، في كل منعطف، تهبط الحياة بها درجة، البهاق سيحطم الدرجات المتبقية دفعة واحدة.

قررت هزار النجار تأجيل نقل الخبر لزوجها ما أمكن، كل تلك الأفكار كانت تراودها فيما صبا لم تتوقف عن الكلام المتعاطف مع صديقتها لدرجة بدأت تذرف الدموع معها، أخذت عهداً موثقاً بأغلظ الإيمان من صبا أن تتكتم على مرضها حتى عن عامر.

في طريق العودة إلى المنزل الذي امتد دهراً عرجت السيدتان على مركز لبيع مواد التجميل المستوردة، كلتاهما كانتا من أفضل

زبائنه على الدوام لشراء المساحيق والمراهم التي يمكنها إخفاء تلك البقع الجلدية الباهتة ما أمكن.

أصرت صبا على دفع فاتورة المركز معتقدة بطيب نية أنها تواسي صديقتها، هزار قبلت المبادرة، في قرارة نفسها آلمها أكثر أنها أصبحت مصدر شفقة يستحق الحسنة.

اتخذت هزار قرارها بالسفر إلى الولايات المتحدة للعلاج هناك، أجرت اتصالات عديدة عبر الإنترنت مع ابنها البكر حازم شارحة له الوضع، طلبت منه إجراء كل الاتصالات اللازمة بمشافي الولايات المتحدة وأطبائها الأشهر في هذا المجال، توسلت إليه أن يتكتم على مرضها أمام والده، وعدها بذل جهده في إجراء اتصالات سريعة وحثيثة، رغم ذلك لم يدخل قلبها شيء من السكينة، أخذت تتوسل إلى الله أن يؤجل ظهور تلك البقع في الأماكن الظاهرة من أطرافها ووجهها ريثما يصل الرد من ابنها، في أحلام يقظتها تفاءلت بأن الرد سيكون إيجابياً، إذا أسعفها الحظ ستذهب للعلاج وتعود قبل أن يلاحظ عبد الله أي تغيير فيها.

خلافاً لوعدها الذي قطعته صبا لصديقتها أخذت تثرثر أثناء الغداء لزوجها عن مرض هزار، بدوره رجلها كان يتناول طعامه ببطء غارقاً في عالم آخر يفكر فيه أن تنفيذ المهندس عصام الناصر لمشروع السوق المؤقت هو نذور خطر لا يمكن تجاهلها، تحرك سريع قد يجنبه تمادي الأخير في تجاوز حدوده، إذا ما تساهل أمام عدوه فهذا يعني بداية النهاية.

- ما زعلت على هزار؟.... قالت صبا لزوجها الذي أحست بانشغاله عنها.

- معافاية... دايمة... رد عامر وهو ينسحب من أمام طاولة الطعام ومن حديث لا يعنيه في شيء.

التحقت صبا بزوجها في غرفة النوم لتستطلع ما يؤرق أفكاره.

- شوية مشاكل روتينية بالشغل.....
- طيب حكيلي شو صاير؟...

كالعادة لم تكن مشكلاته من النوع الذي يمكن أن يرويه العقيد عامر أبو النصر لزوجته، آثر إلقاء كذبة صغيرة يشغل بها تفكير المرأة، عاد يبحر في أفكاره الخاصة فيما زوجته تبحث عن حلول تقترحها لمشكلة غير موجودة أصلاً.

21... "الملك" في المناوبة

- جبلي قهوتي بعدين فوته لعندي... قال أبو غسان للعنصر الذي يقف أمامه فيما كان يرتب هندامه بعد أن استيقظ من قيلولته.

أحب أيام الشهر إلى قلب أبي غسان هي أيام مناوبته، ثمانية أيام في الشهر يصبح فيها هو "الملك" المتوج الوحيد لأرض سوق البسطات تبدأ من لحظة انتهاء الدوام الرسمي ومغادرة العقيد مكتبه حتى صباح اليوم التالي، بطبيعة الحال لا يخلو قسم شرطة مركز المدينة من ضباط مناوبين لهم أعمالهم الإدارية والميدانية لكن في المناطق المحيطة بالسوق بعيداً عن مملكة المساعد أول أبي غسان.

أمر العقيد عامر بتخصيص غرفة لأبي غسان لضرورات العمل، ساء ضباط الرتب الصغيرة أن يحصل صف الضابط على مكتب خاص وسيارة من سيارات القسم فيما يشترك كل اثنين أو ثلاثة منهم بمكتب واحد ويتوجهون نحو بيوتهم بباص صغير يقلهم جماعة ذهاباً وإياباً، اعتراضاتهم لا تغادر مكاتبهم، يتداولونها همساً فيما بينهم، تجاهل أبو غسان تأدية التحية الرسمية للواحد منهم إذا ما التقى به في ممرات القسم صدفة يجعل الضابط يندفع إلى مكتبه حانقاً.

- تفوه عالانضباط شو صار مبهدل.. قال أحد الضباط إثر مصادفته أبي غسان في الممر فيما كان الأخير يوبخ أحد عناصره بصوت مرتفع غير آبه لمرور النجوم الثلاث على كتف الضابط من أمامه.

يتناول "الملك" طعام غدائه في مكتبه، يوصي أبا نافذ أو أبا الخير أو غيرهما من أهل السوق إحضاره من أحد المطاعم، نصف كيلو من اللحم المشوي، سلطة خضار طازجة، صحون مقبلات متنوعة وزجاجة كبيرة من العصير الطبيعي، ينقض عليها أبو غسان، يحشو فمه بلقم كبيرة، بالكاد يمضغها قبل أن يبتلعها، يغرق في النوم على سرير معدني قرب طاولة المكتب لمدة ساعتين، ينهض متمطياً، يطلب قهوته استعداداً للنزول إلى أرض السوق للحصول على المتعة التي لا تضاهيها متعة في الحياة... "**السلطة**".

زوجة أبي غسان المرأة القوية سليطة اللسان حرمت الرجل من متعته هذه، ورد إليها هاتف من مجهول ينبئها بأنشطة زوجها الليلية في فندق الرحاب الخاص أثناء مناوبته، تمكنت المرأة من جعله يتوسل إلى سيده لتخفيض عدد أيام المناوبة إلى يومين في الشهر فقط، أفهم الرجل زوجته أنه لا غنى عن هذين اليومين ولا بحال من الأحوال لأنهما يوما الجباية من السوق، يقضيهما بربع متعته السابقة، اتصالات زوجته لا تتوقف عن الورود لتحقق معه عمّا يفعله.

دخل أبو نافذ إلى مكتب أبي غسان، أمره الأخير بالجلوس:

- شو الأخبار؟.... قال مساعد قسم الشرطة.

بدأ أبو نافذ ثرثرته، يستمع إليه أبو غسان بصبر مسجلاً بعض الملاحظات بين حديث وآخر على دفتر مفتوح أمامه، يسجل أسماء،

أحداثاً، شائعات متداولة، يستوثق الرجل من بعض المعلومات التي نقلها إليه بعض عيونه في السوق ودونها على دفتره، يبدأ النقاش الجدي حول حسابات الأسبوعين المنصرمين:

– شو هاد؟!... قال أبو غسان مدهوشاً من وضاعة المبلغ الذي وضعه أبو نافذ أمامه على المكتب.

قبل إنشاء السوق المؤقتة كانت تصل قيمة المبالغ التي تُجمع من السوق كل أسبوعين إلى أكثر من ثلاثة ملايين ليرة يجمع نصفها من فندق الرحاب الخاص فيما تُجمع بقية المبالغ من دكاكين العبارة، خمسون ألف ليرة من كل دكان، باستثناء دكان عبد المولى السروجي صهر عبد الله المأمون الذي لا يدفع شيئاً، بضعة آلاف من كل بسطة تحجز مساحة على أرض السوق، عملية منظمة لقاء سماح قسم شرطة مركز المدينة للناس بمزاولة أعمالهم، يعمل على جمع المبالغ أشخاص عدة، أبو نافذ، أبو داغر، بعض عناصر أبي غسان المؤتمنين، عملية معقدة في تخفيّها ومداورتها بحيث لا يمكن إثبات وجودها إلا بصعوبة بالغة تقتضي أن يضع رجل مثل أبي نافذ على سبيل المثال رأسه على نصل مقصلة حاد بانتظار أن يهوي عليه نصل أكثر حدة.

يضع أبو غسان المبلغ الذي تقاضاه من مصادره المتعددة في الليلة الفائتة أمام سيده العقيد عامر أبو النصر، يقتطع الأخير منه مائة ألف ليرة ويلقي بها إلى أبي غسان، يدسها الأخير في جيبه شاكراً ولي نعمته ثم ينصرف، يحتسب العقيد عامر أبو النصر المبلغ المتبقي، يقتطع منه مبالغ صغيرة تتراوح بين الخمسين ألف ليرة والمائة وخمسين ألف ليرة، يضع كل منها في ظرف، يحكم إغلاقه، يدون على ظهره "سري/يفتح بالذات"، يدون اسم الضابط الذي سيرسل إليه الظرف،

يخفي المبلغ المتبقي، يستدعي المساعد أول أبا غسان "الملك" مجـــدداً، يأمره بتوزيع المظاريف على ضباط القسم حسب الأسماء المدونة دون لفت نظر، عدد المظاريف لا يتجاوز الأربعة أو الخمسة، المظـــاريف غالباً ما توزع على الأسماء نفسها كل شهر، يراجع العقيد عامر أبـــو النصر قائمة أخرى يحتفظ بها داخل ذاكرته، ينتقي منها اسماً أو اثنين، يضع داخل كل ظرف مبلغاً لا يقل عن مائتي ألـــف لـــيرة، يكـــرر الإجراءات نفسها، يستدعي في هذه المرة سائقه الشخصي، يدفع إليه الظرف أو الظرفين، يبلغه اسم الشخص الذي يتوجب عليه تســـليم الظرف إليه، خارج قسم شرطة مركز المدينة في هذه الحالة، الســـائق ينصرف لمهمته، يحتسب المبلغ المتبقي في النهاية مجدداً، عادة ما يتبقى مبلغ بحدود المليون ونصف المليون ليرة، يقسم المبلـــغ إلى قســـمين متفاوتين في كل مرة، يجري اتصالاً بأحد معارفه طالباً منه إحضار قيمة أحد المبلغين بالدولار الأمريكي، تتكرر هذه العملية مرتين كل شهر.

يغادر العقيد عامر المدينة كل بضعة أشهر في إجازة ترافقه فيهـــا زوجته صبا الخطيب إلى بلد مجاور، يحمل معه المبالغ الـــتي جمعهـــا بالدولار الأمريكي ليودعها في حسابه المصرفي هناك.

أبو غسان يصل إلى جيبه مبالغ أخرى صغيرة، نقدية أو علـــى شكل هدايا، يقتطع أحياناً مبلغاً صغيراً من المبلغ الكبير قبل أن يسلمه لسيده، الأخير يدرك كل ذلك لكن يتجاهله، يحصل أبو غسان على معظم حاجات منزله من المواد التموينية مجاناً من السوق وأحياناً مـــن معارفه خارجه، رغم ذلك تبذر زوجته وأولاده معظم ما يحصل عليه في تفاهات الحياة الاستهلاكية التي يعشقها من يحصل على مال وفير من أبناء الطبقة الفقيرة.

إنشاء السوق المؤقتة بولاءاته المتعددة اختزل تلك المبالغ، من حصل على دكان عن طريق بلدية المدينة أو "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية" لن يدفع خوّة لأحد غير الجهة التي مكنته من الحصول على دكانه، أساساً بات الناس يدفعون بدل استثمار قدره عشرة آلاف ليرة إلى صندوق بلدية المدينة بالشكل النظامي، نسبة 25% من دكاكين السوق المؤقتة التي أشرف العقيد عامر على توزيعها بمعرفته لم يكن يستثمرها إلا أعوانه المتخفون، هؤلاء فقط كانوا يدفعون مبالغ مقطوعة لم يفضل العقيد جعلها مرتفعة ليترك لهم ما يضمن معيشتهم وبالتالي ولاءهم له.

أبو نافذ أخبر أبا غسان أيضاً عن تذمر مستثمري دكاكين العبارة من ضخامة المبالغ التي يدفعونها بعدما شاهدوا تمنع أصحاب الدكاكين المؤقتة عن الدفع، أدرك الأخير أن الخطوة التالية لهذا التذمر قد تكون رفض دفع أي مبلغ.

كتم أبو غسان غيظه، لكنه لم يستطع أن يتقبل الأمر لدرجة أنه فكر بإجراء اتصال بسيده العقيد عامر في الساعة ذاتها وإبلاغه بهذه التطورات، عدل عن فكرته في اللحظة الأخيرة متذكراً توصيات العقيد بعدم الحديث بواسطة الهاتف عن القضايا ذات الخصوصية التي لا تنسجم مع روح العمل الرسمي، إذا اضطر الأمر فلا مانع من ذهاب أبي غسان إلى منزل سيده لاطلاعه على المشكلة الطارئة.

قرر الرجل تأجيل الموضوع برمته حتى صباح اليوم التالي، مستعيناً على نفاذ صبره بالسهرة التي تنتظره في فندق الرحاب الخاص بعد انتهاء أعمال المناوبة.

بعد انصراف أبـــي نافذ وإخفاء المبلغ الذي تقاضـــاه منـــه في مكان مناسب، يستقبل أبو غسان كل من يود مقابلته، زواره يحملون إليه الشكاوى، الدسائس، التوسلات المشفوعة بهدايا من أجل بعـــض الخدمات، في هذه المناوبة بالذات لم يعد بحالة مزاجية تسمح لـــه أن يستقبل أحداً، أمر العنصر بصرف جميع من ينتظره ليبدأ جولته علـــى أرض السوق في حلته الجديدة التي بات يكرهها أكثر من أي شـــيء آخر.

غادر مساعد قسم الشرطة مكتبه ليقوم بالجولة الليلية المعتادة في السوق والتي تنتهي بفندق الرحاب الخاص، غالباً ما يطفـــئ جوالـــه بمجرد صعوده درج الفندق، حاجبه يعرف الكذبة التي يتوجب عليه إخبارها لزوجة "الملك" فيما إذا اتصلت بهاتف المكتب تســـأل عـــن زوجها، كذلك يعرف أين يمكن أن يجده إن لزم الأمر.

يصل "الملك" إلى الدكان الجديد الذي خصّص به أبو الوفا غير بعيد عن موقع خيمته السابقة، يرفع غطاء المدخل، أبو الوفا يغـــط في النوم العميق، يخف إليه أبو داغر.

- أهلين بالملك... قال أبو داغر.
- لساته عم يسف حبوب؟.... رد أبو غسان مشيراً إلى أبـــي الوفا.

يتحرك إلى الدكان التالي (غرفة أبـــي داغر)، يرفع الغطاء، يجد سجية متكورة على نفسها في زاوية الدكان تستمع مع زيرو إلى أغاني جوال الأخير.

يشتكي أبو داغر "للملك" تراجع الأعمال بسبب التنظيم المؤقت الجديد، إيصال الكهرباء إلى السوق وإنارته ليلاً جعل زبائن ســـجية

وزيرو يحجمون عن زيارة الدكان، بعض الدكاكين باتت تفتح ليلاً نهاراً، كثيرون ينامون في دكاكينهم خوفاً عليها من السرقة، الأعين من حولهم تراقب، يزداد تعكر مزاج أبي غسان، ينتقل برفقة أبي داغر إلى الدكان التالي، دكان غازي، تمكن الأصدقاء الثلاثة أن يحافظوا على تجاورهم في التنظيم المؤقت الجديد، غازي يبدأ شكواه هو الآخر، بات لا يستطيع رفع الغطاء عن دكانه في أي وقت على مدار الساعة، يتعرض لتحرشات بعض مستثمري الدكاكين من الوجوه الجديدة التي وفدت إلى السوق، بعضهم يرتدي عباءة تصل إلى الركبتين وتحتها بنطال فضفاض من نفس لون العباءة، غالباً ما يضعون قبعة بيضاء صغيرة على رؤوسهم، حلقوا شواربهم وأطلقوا العنان للحاهم، أتوا إلى السوق ولديهم موقف مسبق من الجميع، تقريباً لا يتحدثون إلا فيما بينهم، من الواضح أنهم يعرفون بعضهم بعضاً معرفة وثيقة، شراسة نظراتهم تضاهي شراسة نظرات أبي داغر، كادت تحرشاتهم أن تصل إلى عراك بالأيدي لولا تدخل أهل الخير، أهل السوق على عادتهم أطلقوا عليهم تسمية موحدة "جماعة أبو دقن"، حتى الآن لم يعرف أحد من أهل السوق أن أصحاب اللحى هؤلاء من موالي "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية".

زبائن غازي ما عادوا يعرفون موقع دكانه في متاهة السوق الجديدة، يطالب أبو غسان غازياً بالحصة نصف الشهرية من زجاجات ويسكي "البلاك ليبل"، الزجاجات تصل إلى منزل سيادة العقيد عامر مع عناصره الموثوقين في الليلة نفسها، غازي يقدم له معتذراً نصف الكمية المتفق عليها، مرة أخرى أوشك الرجل أن يقفل

عائداً باتجاه سيارته ليتوجه إلى منزل سيده ليشرح لـــه مســـتجدات الموقف الطارئة، يغير رأيه مرة أخرى، يقرر أن يســـتكمل الصـــورة والمعلومات عن الوضع الجديد من خلال رأي أبـــي السرور، كعادته يستوثق من غازي أن الويسكي فئة "البلاك ليبل" أصلي وخالٍ مـــن الغش، يغادر دكان غازي مهموماً.

- بدي أحمله على كتافي إذا بيعرف الفـــرق بـــين الأصـــلي والمغشوش.. قال غازي لأبـــي داغر معتقداً أن الويســـكي الذي يقدمه يستأثر به أبو غسان لنفسه، عموماً لا يتجـــرأ غازي على الغش، دوماً يحضر الويسكي الأصلي، أربـــاح غازي الوفيرة من بيع مشـــروباته الرخيصـــة تســـتهلكها زجاجات الويسكي هذه.

يصل أبو غسان إلى فندق الرحاب الخاص محطتـــه الأخـــيرة في الجولة، يجلس إلى المائدة العامرة التي كان أبو السرور يعدها مســـتعيناً بأحد زبائن الفندق والذي يمتلك مطعماً قريباً.

- داقر الشغل يا ملك... قال أبو السرور.

يستفيض أبو السرور في شرح ما بات يعرفه الرجـــل تمـــام المعرفة، الأخير يستمع بصبر، يريد أن يقدم لسيده تقريراً مفصلاً في صباح الغد، المسألة لا تتعلق بشح المال فقط، هناك شيء غـــامض يجري، لا يعرف أبو غسان كنهه، يريد أن يبدو بمظهر العـــارف والمسيطر كالعادة أمام العقيد، يرتشف العـــرق دون أن يتنـــاول الطعام على غير العادة، بدا مهموماً مشغول البال، أخذت الأسئلة والخواطر السود تنهشه، هل يعقل أن يترك سيده العقيد الأمـــور تجري على هذا المنوال؟ لا بد أن الوضع المادي للأخير يسمح لـــه

بالاستغناء عن موارد السوق، توقف إيرادات السوق بالنسبة إليه لمدة تتجاوز شهرين أو ثلاثة على الأكثر يعني دوامات القلة ومكابدة شرور زوجته المتطلبة، صارع ندمه على استسلامه لطلباتها وطلبات أولاده التي لا تنتهي، يبدو أن مشاعره الداخلية ظهرت ملامحها على وجهه بوضوح لدرجة أن أبا السرور توقف عن الكلام، استدعى الأخير وردة لتقضي السهرة برفقتهما منتظراً إشارة من أبي غسان ليخلي لهما الغرفة.

حاولت وردة بشتى فنونها أن تجعل عضو "الملك" ينتصب فلم تفلح، أتى الفرج للرجل عندما تناهى إلى سمعه صوت إطلاق بضع طلقات نارية مجهولة المصدر، الإطلاق تمّ من مكان قريب جداً من السوق، كل من صادف وجوده حول المكان شعر بالفزع، ارتدى أبو غسان ثيابه على عجل وتوجه نحو القسم مسرعاً لاستطلاع حقيقة ما يجري.

- شبه طلع عم يركض؟!.. سألت غنوة عندما شاهدت الرجل يغادر على هذه الحالة.
- على قوله راح يشوف منين طلع صوت الرصاص.. بس خدي مني لقاها حجه.. عملتله حفلة ما طلع معه شي.. باين عليه بلش يخلص كازه.. ردت وردة.

في الصباح الباكر كان مساعد قسم الشرطة ينتظر سيده بعد ليلة أرق طويلة لم يغمض له فيها عين، العقيد استمع له كعادته دون أن يرف له جفن، عدم تمكن أبي غسان من استطلاع ردود أفعال سيده زاد من قلقه، ألقى العقيد عامر مبلغ مائة ألف ليرة إلى مرؤوسه، أبلغه أن يتوقف عن جباية الأموال حتى إشعار

آخر، وقع ما كان الرجل متخوفاً منه لكن بأســـرع ممـــا تخيّـــل بكثير:

- بأي طريقة لازم تعرف مين يلي قوص مبارح بالليل.. قال العقيد قبل أن يصرفه.

22... عصام الناصر يلتقي هيثم الصارم

المهندس عصام الناصر رئيس بلدية المدينة لم يجد صعوبة تذكر في ترتيب موعدٍ بعيدٍ عن العيون مع السيد هيثم الصارم رجل الأعمال المعروف والمالك الأصلي للبناء الذي تقع فيه دكاكين العبارة ومن فوقها فندق الرحاب.

السيد هيثم الصارم اعتبر عملية استملاك البناء الذي يمتلكه اغتصاباً جرى بحقه ثلاث مرات: الأولى حين استملكت أرضه مع البناء المشيّد عليها، الثانية حين لم يتم تنفيذ المشروع العمراني الحديث والثالثة حين تعرض لعملية نصب وقحة بجعله يوقع عقد استثمار لبقايا البناء المتصدع لمدة عشر سنوات، قانون الاستملاك يقضي بالسماح لمالك العقار الاستفادة من عقاره (منزل، بناء أو أرض زراعية) بعد استملاكه إلى حين بدء تنفيذ المشروع الذي اقتضى وقوع عملية الاستملاك، هذا ما خسره السيد هيثم الصارم في عملية الاغتصاب الثالثة.

حينها اتصل به من يبلغه أنه مهتم باستثمار بقايا البناء استغرب أن يكون لتلك الجدران المتصدعة التي توشك الجرافات على إزالتها من يهتم باستثمارها فيما يحيط بها تلال من ركام الأبنية المهدومة، غريزته التجارية توجست من العرض، قرر التريث، شاهد بأم عينه أن

الجرافات تباشر في خلخلة جدران بقايا البناء، اتصل به العارض مجدداً يلح على إجراء عقد استثمار، اعتقد أن طلبه يتعلق بالأرض التي ستخلفها عملية الهدم، قرر خوض المغامرة ليعرف ما وراءها، وقع العقد بسعر بخس جداً، عند توقيع العقد فقط تعرف إلى ساري الغزولي (أبو السرور) مستثمر بقايا البناء، لم يطل به الزمن حتى شاهد كيف توقفت عملية الهدم قبل أن تأتي على بقايا بنائه، ظهر البناءان الحكوميان، عمليات ترميم بسيطة وسريعة أجريت لدكاكين العبارة والطابق الأول فوقها، عبدت المنطقة بالإسفلت، بدأ توافد المستثمرين لدكاكين العبارة، فرشت البسطات، بدأت مزاولة الأعمال التجارية البسيطة، تكاثرت وكان سوق البسطة.

ما أرّق حياته أكثر وجعل طعم المرارة لا يغادر روحه هو فندق الرحاب، ذلك الطابق من البناء تحديداً كان جزءاً لا يتجزأ من مرابع طفولته حين كانت غرف الشركة التجارية التي أسسها جده المرحوم ماجد الصارم تشغل غرف ذلك الممر، الطفل هيثم كان آنذاك يجري بين غرف الممر بنشاط فرحاً بتلك المساحة وبلاطها الأبيض اللامع الذي يمكّنه من أن يعدو سريعاً ثم يتوقف فجأة فيتابع تقدمه منزلقاً بضع خطوات، جده الذي كانت شخصيته تحمل الكثير من صفات اسمه "ماجد الصارم" سمح لحفيده هيثم بما لا يمكن لأحد توقعه من شخصية بتلك الجدية والصرامة، سمح له أن يحضر دراجته الهوائية الصغيرة ذات الثلاث عجلات ليلعب بها في ممر الشركة التي تعد من أوائل الشركات في المدينة بالمفهوم الحديث لمعنى الشركة.

على إثر عملية الاستملاك نقل السيد هيثم مكاتب شركته التجارية الموروثة إلى مبنى فاخر آخر في المدينة معزياً نفسه بأن التطور

سمة من سمات الحياة، أحزنه أن تكون ذكريات طفولته والمكان الذي تعلم فيه أصول العمل والتجارة على يد المرحوم والده هو الضحية لذلك التطور المزعوم، أما أن يتحول هذا المكان إلى مرتع للدعارة فهذه مسألة أخرى تماماً.

السيد هيثم كان يترك سيارته برفقة سائقه بعيداً عن السوق، يتوجه سيراً على الأقدام ليطل على بقايا البناء، يتوقف قبالة لوحة خشبية صغيرة وضعت على يمين مدخل فندق الرحاب العام حيث يجلس موظف الفندق في مدخل البناء قرب الدرج، لم يكلف أحد نفسه عناء إزالة تلك اللوحة، هو وحده يعرف ماذا كتب عليها قبل عشرات السنين في حين لم تترك عوامل الزمن والجو منها الآن سوى بضعة خطوط لا يمكن لأحد أن يفك طلاسمها، إنها اللوحة الدالة على نشاط شركة جده.

شركة ماجد الصارم
تجارة عامة وكمسيون
هاتف 10244

مراراً وتكراراً قام بهذه الزيارة، تفاقم لديه الحنين لدرجة فكر فيها أن يقضي ليلة في فندق الرحاب العام معتقداً أن استلقاءه على أحد تلك الأسرة الموبوءة بالحشرات قد يشفي بعضاً من حنينه وألمه الذي ينهش روحه، راودته نفسه في بعض الأحيان أن يزيل اللوحة وينقلها إلى منزله ليعلقها في صدر أحد الصالونات الفخمة كتحفة أثرية تحمل دلالة لعراقة أسرته وتاريخها، أحجم عن ذلك متخذاً القرار في دخيلة نفسه بأن مكان هذه اللوحة هو هنا على مدخل هذا البناء حيث لا بد أن يعود يوماً هو هيثم الصارم إليه ليزاول نشاط أسرته

التجاري، عندها سيرمم هذه اللوحة ويضيف إليها بيتاً زجاجياً يحميها من عاتيات الزمان مثل البيت الذي رآه يوماً في متحف اللوفر بباريس حيث وضعت بداخله لوحة الموناليزا الشهيرة.

هنا تقضي الأمانة أن نَذكر: بعض الأبواب العالية التي طرقها هيثم الصارم في المدينة يشكو ما آل إليه بقايا بنائه، قدم له أصحاب تلك الأبواب بعض الأعذار مشفوعة بعقد ترضية أبرمه مع إحدى الجهات العامة لاستيراد معدات هندسية، كما تقتضي الأمانة أن نذكر أن نسبة العمولة السوداء التي دفعها السيد هيثم كانت أقل مما يُدفع في الأحوال العادية، قبل الأخير العقد على مضض حتى لا يعتبر رفضه موقفاً ذا دلالات سلبية قد يحتسب ضده في مدينة لا تنسى خصومها، عشر سنوات تكاد أن تنقضي فيما البناء على حاله، المكان برمته لم يطرأ عليه شيء جديد يذكر.

- شو مفكرين ما في غيرهن بالبلد؟!... بكرا بيعرفوا مين عصام الناصر... قال رئيس بلدية المدينة محتداً فيما يداعب مكعبات الثلج بطرف إصبعه في كأس الويسكي الموضوعة أمامه.

لم يكن في الواقع لدى السيد هيثم غريماً محدداً إزاء كل ما حصل، ساعده هذا على تقبل هزيمته ولكن على مضض، أتى المهندس عصام لينكأ جرحه من جديد جاعلاً من عبد الله المأمون ومعه العقيد عامر أبو النصر أعداءً له يقفون في وجه عودته إلى ملكه المغتصب.

تمكن عصام الناصر من جعل السيد هيثم يبلور موقفاً يستند إلى أسس قانونية معقولة، عقد استثمار بقايا البناء الذي وقعه ظاهراً لمصلحة المدعو ساري الغزولي يكاد أن ينقضي أجله، بالتالي يحق

لصاحب الملك من أن يعود للاستفادة من ملكه ريثما تباشر مديرية الاستملاكات العامة تنفيذ مشروعها، وفي سياق متصل، يحق لملاك الأبنية التي أزيلت بالهدم بعد استملاكها توجيه دعوى قضائية ضد مديرية الاستملاكات العامة وبلدية المدينة (التي هو رئيسها) يطالبوهما فيها باستعادة ملكية الأرض كونهما استخدمتا المكان لغير الغاية التي استملك من أجلها أصلاً، يقصد المهندس عصام الناصر هنا السوق المؤقت الذي اقترح هو إنشاءه، كذلك يحق لهؤلاء الملاك أن يطلبوا إعادة تخمين أراضيهم وأبنيتهم، وتبعات تأخير تنفيذ المشروع يجب أن تتحملها مديرية الاستملاكات العامة، لا يمكن لهكذا مقترحات إلا أن تروق لرجل مجروح مثل هيثم الصارم، رئيس البلدية نصحه بالتحرك الجماعي، بمعنى أن يقوم السيد هيثم بإجراء اتصالاته بملاك الأبنية المستملكة في مركز المدينة ليضعهم في صورة الموقف ثم الاتفاق على موقف موحد يتوجهون به نحو القضاء، ليس من الصعوبة على رئيس بلدية المدينة أن يزود "صديقه" الطارئ السيد هيثم بأسماء ملاك ما يقارب المائة بناء التي تمّ استملاكها وإزالتها معتمداً على أرشيف البلدية، هؤلاء الملاك تتجاوز أعدادهم المئات قبل عشر سنوات إذا أخذنا بعين الاعتبار أن البناء الواحد موزع على ملكيات متعددة، الآن لا بد أن أعدادهم قد جاوزت بضعة آلاف إذا ما أخذنا بعين الاعتبار رحيل العديد منهم عن الحياة وانتقال إرثهم إلى الأولاد وربما الأحفاد.

أفهم المهندس عصام "صديقه" أن تحرك هذه الأعداد من أهل المدينة سيلفت نظر السلطات العليا إلى عدالة ومشروعية قضيتهم، في حين كان رأي السيد هيثم أن بطء التنفيذ والترهل صفات ملازمة

للمشاريع العامة في المدينة منذ عشرات السنين والسلطات تعلم عنه ولا تحرك ساكناً، كما أنه من المؤكد أن مديرية الاستملاكات العامة لن تقف مكتوفة الأيدي إزاء تحركهم هذا، لكن المهندس عصام طمأن "صديقه" أن كل ما يمكن أن تتقدم به مديرية الاستملاكات العامة من دفوع على تسويفها في تنفيذ المشروع أو رفض إعادة التخمين يملك هو ما يرد عليهم به، وعده بأن يزوده بالردود القانونية الناجعة خطوة بخطوة، استغرب السيد هيثم في سره قابلية القوانين لأن تحوي في طياتها كل هذه التناقضات بحيث يحارب القطاع العام نفسه بنفسه مستخدماً القانون، ندم لأنه لم يحضر معه محاميه الشخصي، قرر اصطحابه في اللقاءات القادمة.

في لقاءات كهذه تتشكل الأحلاف والصداقات بسرعة، لا يضير أحداً أن تكون مؤقتة تزول بزوال أسباب بزوغها المفاجئ، المهندس عصام رسم الطريق واضحاً أمام "صديقه"، المسألة بغاية البساطة، الخطوة الأولى هي توجيه طلب إخلاء عن طريق دوائر التنفيذ في القضاء لشاغلي بقايا البناء القديم وذلك استناداً إلى انتهاء أجل عقد الاستثمار المبرم بينه وبين المدعو ساري الغزولي (أبو السرور)، تلك الخطوة يجب أن تتزامن مع اتصالات مكثفة ببقية الملاكين ليقدموا اعتراضاتهم إلى أكثر من جهة في المدينة وعلى رأسها القضاء، المهم أن يتم ذلك كله بحركة موحدة تلفت النظر لا تترك أي مجال لواحدة من المراوغات التي قد يلجأ إليها عبد الله المأمون ومعه صديقه العقيد عامر أبو النصر.

تعهد عصام الناصر بأن يوعز لبعض أصدقائه في أجهزة الإعلام على مختلف أنواعها ليسلطوا الضوء على هذه الحركة الميمونة.

ولشدة الحماس والتفاؤل بالنصر في هذا اللقاء، أبـــدى رئـــيس بلدية المدينة استعداده لعب دور الوسيط بين السيد هيـــثم وبعـــض معارفه الذين ربما يودون الحصول على بقايا البناء بعد إخراج شاغليه الحاليين منه، على أن يكون عقد الاستثمار عادلاً ومجزياً وبالشـــروط التي يراها السيد هيثم مناسبة، أراد المهندس عصام بـــذلك أن يقـــدم بادرة توثق صداقته الطارئة مع السيد هيثم الصارم، هذا الأخير شـــعر بالخوف من العرض المقدم، رفع كأسه يشرب نخب "صديقه" راسمـــاً ابتسامة مجاملة عريضة على وجهه.

عرض الاستثمار المتسرع الذي قدمه المهندس عصام زلة لا يجوز لشخص ذكي مثله الوقوع بها، السيد هيثم أدرك أن من يجلس قبالته غراب آخر يريد أن يقتات من جيفة فندق الرحاب وما تحتـــه، مـــا حاجة رجل أعمال بحجم السيد هيثم إلى دليل يؤجر له البناء وهو في موقع له ما له من الأهمية؟! ناهيك عن الحنين الذي يعشش في نفســـه لذلك المكان.

انتهى اللقاء على وعود بلقاءات متكررة ستعقد في الأيام القريبة القادمة لإجراء الترتيبات المتفق عليها ومن ثم المباشرة بالعمل المطلوب لعودة الحقوق إلى أصحابها.

لم يرغب السيد هيثم الصارم بالعودة إلى منزلـــه رغـــم تـــأخر الوقت، صرف سائقه، قاد سيارته بنفسه، تجول في شـــوارع المدينـــة متأملاً ليلها، عرج على الشارع الرئيسي المحاذي للسوق، توقف جانباً يتأمل بقايا البناء، أبراج الإنارة جعلت المكان مضاءً بشـــكل جيـــد، وحده فندق الرحاب وما تحته بدا كئيباً، فقـــد حماســـه لمقترحـــات المهندس عصام، يعلم بأن الرجل يريد توظيفه في حرب لا تعنيه، لـــن

تستسلم مديرية الاستملاكات العامة بسهولة، وقوف رئيس البلدية إلى جانبه لا تعني مقدرته على محاربة الجهات العامة إذا ما اتحدت ضده، في النهاية الاستملاك وأسبابه مصلحة عليا في المدينة، ومع ذلك فإن خيوط أمل واهية جعلته يقرر متابعة ما اتفق عليه مع الرجل.

في الصباح الباكر من اليوم التالي أخذ رئيس بلدية المدينة يعد العدة لحربه:

- جماعتنا يلي وزعنا عليهن دكاكين بالسوق صار وقتهن..

قال المهندس عصام لمدير مكتبه.

أمر رئيس البلدية المدينة مدير مكتبه أن يقوم هؤلاء بنشر شائعات متضاربة حول مستقبل السوق: *سيرفع الاستملاك عن أرض السوق، السوق مستمرة على وضعها الراهن سنوات طويلة بعد أن قامت البلدية بتنظيمها، سيبدأ عما قريب تنفيذ المخطط العمراني الجديد، ستعاد الأراضي إلى ملاكها الأصليين ليتصرفوا بها كما يشاؤون وقريباً سيتم تبليغ شاغلي الدكاكين المؤقتة بالإخلاء،* شائعات أخرى فيها منطق وأخرى لا يقبلها عقل.

شدد الرجل على مدير مكتبه أن يلتقي بكل واحد من "جماعته" على حدة، وجه إليه أن يسرب للشخص الواحد منهم شائعة واحدة فقط بطريقة يُفهم منها أن ما يصل إلى مسامعه حقيقة لا تقبل إلا التصديق ومن ثم تركه ليفعل ما يشاء أو بالأحرى ترك غريزة نشر الشائعة التي تختص بها هذه المدينة تحديداً تفعل سحرها.

23... في السيارة

لم يكن الحديث يحتمل أن يجري في أي مكان سوى سيارة العقيد عامر، هي المكان الذي يثق عبد الله المأمون أنه يستطيع التحدث فيه بحرية دون أن يكون هناك من يتنصت إلى ما سيدور بين الرجلين، ركن سيارته في شارع فرعي معتم من المدينة، جلس منتظراً، ما هي إلا لحظات حتى شاهد سيارة العقيد تقترب، ركن الأخير سيارته، غادر عبد الله سيارته متوجهاً نحوه، بمجرد دخول الأخير إلى السيارة شغل الراديو، عدل صوت الموسيقى الصادر عنه ليصبح متوسط الارتفاع، ابتسم العقيد عامر أبو النصر متفهماً حركة صديقه.

- لا تقلق سيارتي أمان..
- هيك بكون مرتاح أكتر..

بطريقة أو بأخرى فهم العقيد رد صديقه كجواب لا يليق، أوحى له بتزعزع الثقة لأن الكلام ليس له إلا معنى واحداً: عبد الله يخشى أن يكون العقيد نفسه قد وضع في سيارته ما يقوم بتسجيل المحادثة، كعادته أتقن العقيد إخفاء أفكاره ومشاعره خلف ملامح شمعية لا تتبدل.

تحدث عامر عن اللقاء الذي جرى بين المهندس عصام والسيد هيثم، بالطبع لم يعلم بمجريات اللقاء، عيونه رصدت دخول الرجلين

إلى إحدى الشقق الفاخرة التي يستخدمها رئيس البلدية لغاياته الخاصة، مجرد لقاء الرجلين له دلالاته الخطيرة، ليس غائباً عن الرجلين قرب انتهاء أجل عقد استثمار بقايا بناء السيد هيثم، كلاهما يعرفان أبعد ما يمكن أن يصل إليه الرجل، لم يكن يقلقهما احتمال مطالبته باسترجاع بقايا البناء، هذا أمر يمكن للعقيد معالجته بطرقه الخفية، خاصة وأنه المستفيد الأول من استمرار عقد الاستثمار، الأهم معرفتهما الوثيقة بالعداوة التي يكنها لهما رئيس البلدية تجعلهما يدركان أن في الأمر ما هو أكبر من قضية بناء متهالك:

- ما فينا نعرف شو عم يصير بمكتب عصام الناصر؟... قال عبد الله.

لم يكن من السهل اختراق مكتب أو شقة تعود لرئيس بلدية المدينة، الحل الأمثل برأي العقيد هو انتظار الخطوة التي سيثمر عنها ذلك الاجتماع، من خلالها يمكن معرفة ملامح خطوات عصام الناصر القادمة.

عبد الله وجد الفرصة مناسبة ليعاود فتح موضوع بدأ العمل بالمخطط العمراني الجديد لمركز المدينة، خشي أن تكون الخطوة التالية موجهة ضده، قد يكون رئيس بلدية المدينة يعمل على توجيه ضربة قاضية له؛ إعفائه من منصبه مثلاً، ذريعة الأخير أصبحت قوية: عبد الله المأمون انتزع من بلدية المدينة مشروعها و لم يحرك فيه ساكناً طيلة السنوات العشر المنصرمة.

- بس نحنا عم نستفيد من السوق.. بكير نخسرها.. قال عامر.
- أنته عم تستفيد منها.. بالنسبة إلي ما في شي يضمن يعفوني من منصبي بأي لحظة لأني لهلق ما نفذت المشروع.. رد

عبد الله بلهجة حاول أن تكون ودودة قدر ما أمكن، إنها الزلة الثانية في اللقاء نفسه.

المماطلة في تنفيذ المخطط العمراني لمركز المدينة عملية يستفيد منها العقيد بالدرجة الأولى، ليس على الصعيد المادي فقط، تلك المغلفات التي يرسلها إلى أسماء مدرجة في قائمة يحتفظ بها داخل ذاكرته تضمن له تعاون الأصدقاء ورضا من هم أهم من الأصدقاء، في حين عبد الله المأمون منفعته الحقيقية تقوم على تنفيذ المخطط العمراني لمركز المدينة، العقيد أيضاً سيحصل على حصته من المشروع لكنها ستكون ضربة واحدة أخيرة، سيحصل عليها كائناً من كان منفذ المشروع طالما هو في منصبه داخل قسم شرطة مركز المدينة، الأهم من ذلك أن تنظيم وتحديث المنطقة سيفقد قسم شرطة مركز المدينة أهميته، العمران المنظم سيفرض حضارته على أهل المدينة، بينما الفوضى القائمة حالياً تمنح الحياة لقسم الشرطة.

على صعيد آخر، مديرية الاستملاكات العامة لديها أعمالها الأخرى في مختلف مناطق المدينة وستبقى مستمرة، عامر يقدر بالعقل أولاً ومن خلال عيونه ثانياً حجم الأموال التي تصل إلى جيب صديقه عبد الله، الأخير يدرك معظم مخاوف العقيد دون أن يدلي بها، تَمَكُّن الأخير من طمس قسمات وجهه لئلا تفضح مخاوفه أو تحفّظه عن البوح لن يعطل الملكات العقلية الخاصة التي يمتلكها عبد الله.

قرر الرجلان دفع التحضيرات لمباشرة تنفيذ المخطط العمراني لمركز المدينة إلى عتبتها الأخيرة ثم التوقف بانتظار الخطوة القادمة من رئيس بلدية المدينة، أثناء ذلك سيتقصّى العقيد عن نوايا الأخير إثر اجتماعه بالسيد هيثم.

في طريق عودته إلى المنزل قلّب عامر المسألة من مختلف وجوهها، وجد أن أي حصة سيمنحه إياها عبد الله من مساحات المخطط العمراني ستكون خسارة لما هو قائم حالياً مهما بلغت تلك الحصة، جهات كثيرة في المدينة تنتظر حصتها، تتفق تلك الجهات على أن يحصل كل منها على الحصة المناسبة لموقعها وأهميته، لكثرة ما في المدينة من جهات نافذة لن يحصل هو العقيد عامر أبو النصر إلا على النذر اليسير من المشروع، هذا باستثناء تراجع نفوذه إذا ما بات مركز المدينة ينطوي على حالة حضارية، تنفيذ المشروع يناسب أن يكون الضربة الأخيرة له لو كان سيحال إلى التقاعد لا أكثر، اتخذ قراره بضرورة وقف تنفيذ المشروع بأي شكل كان.

عبد الله راودته الأفكار نفسها فيما كان يقود سيارته عائداً إلى منزله، تناولها من وجهة نظره الخاصة، ماطل في تنفيذ المشروع لمدة عشر سنوات، هي المدة التي قضاها في منصبه، كان خلالها صديقه هو المستفيد الوحيد من حالة الجمود في مركز المدينة، من معرفته لذهنية السلطات العليا يدرك أنه بات على مفترق طرق، الأول هو إعفاؤه من منصبه، الثاني هو ترفيعه إلى منصب أهم، الخيار الثاني لن يكون إلا إذا قدم خدمات متميزة تزكيه للتقدم، ليس بالضرورة أن يكون تنفيذ المخطط العمراني أحدها، لا يمتلك الآن المعطيات التي توفرت له حينما وشى بصهره عبد المولى السروجي زوج شقيقته أميمة، تنفيذ المخطط العمراني هو المادة المتوفرة بين يديه للاستمرار، للدقة استرضاء الجهات النافذة سيتم عن طريق منحها حصتها من المشروع، يدرك أن تلك الجهات لا يعنيها كونه رائد مشروع حداثي ينظم مركز المدينة، الحصص التي سيوزعها هي الأساس للارتقاء، كذلك قرر عبد الله أن

يتخذ احتياطاته كي لا يظهر في وسائل الإعلام أو لدى الدوائر المغلقة بطلاً أكثر من اللازم، الظهور بهذه الطريقة محرقة مماثلة تماماً لمحرقة عدم تنفيذه للمشروع، لم يشغل باله كثيراً بصديقه العقيد، الرجل لن يعدم الوسيلة ليجد منافذ أخرى للمنفعة.

كلا الرجلين أدركا أن الدرب الذي سارا عليه سوية منذ أيام الدراسة الجامعية في كلية الحقوق قد وصل إلى مفترق طرق، سيكون من الحكمة أن يتباعدا بأقل الخسائر الممكنة.

24... مؤتمر هيثم الصارم

لم يكن معظم المجتمعين على معرفة بعضهم بـــبعض، عديـــد من الملاك وافاهم الأجل وحضر إلى الاجتماع ورثتـــهم الـــذين جاوز عديد بعضهم العشرات للمالك المتوفى الواحد، فوجئ السيد هيثم بأن يحضر إلى الاجتماع هذا العـــدد، القـــوائم الـــتي زوده بها رئيس البلدية سراً عن طريق مـــدير مكتبـــه كانـــت تحـــوي قرابة الخمسمائة اسم، في حين ما يحـــدث أمامـــه أشـــبه بمـــؤتمر غصت قاعته بأكثر من ألف رجل وبضع عشرات النساء، معظـــم الحضور شارك في الاجتماع وقوفاً لعدم تـــوفر أمـــاكن كافيـــة للجلوس.

لم يجد السيد هيثم الصارم صعوبة في ترتيب هـــذا الاجتمـــاع، رغبة استعادة الأملاك المفقودة أو إعادة تخمينها على الأقل حاضـــرة لدى المتضررين، جاهزة للبروز بقوة في أي فرصة سانحة، أرشـــيف البلدية أمده بالمعلومات اللازمة للاتصال بكل هؤلاء البشر، الإنترنت استكملت المعلومات الناقصة، حرص الرجل على الاتصال بكل فرد من المدعوين بنفسه رافضاً ترك المهمة لقسم السكرتاريا في شـــركته، فالاسم "هيثم الصارم" له وقعه في أذن المتلقي مما قد يحفـــزه علـــى الحضور إن كان متردداً.

ترك السيد هيثم لمحاميه في البداية شرح الغاية من هذا الاجتماع، أوضح الأخير أنه سيعمل على خطوط عدة متوازية، الأول هو إقامة دعوى لفكّ الاستملاك عن العقارات التي كانت الأبنية مشادة عليها بحيث يصبح لكل مالك في البناء حصة سهمية في الأرض تناسب المساحة التي كان يمتلكها في البناء، الثاني إعادة تقييم تلك الأملاك على وجه عادل خاصة وأن عملية بناء المخطط العمراني لم تتم حتى اللحظة الراهنة، الفروقات في الأسعار بين زمن الاستملاك والوقت الراهن لا تخفى على أحد، الخط الثالث هو منح هؤلاء المتضررين أمتاراً بديلة في المخطط الحديث المزمع إنشاؤه بدلاً من الأمتار المستملكة سابقاً، هذا إن نفذ المشروع.

برع المحامي في إيجاد المستندات القانونية التي تؤكد إمكانية عودة الحقوق لأصحابها، ظهر كخطيب مفوّه تبسّط في مفرداته، داعب أحلام المجتمعين بتعويضات وفيرة قد يحصلون عليها إن هم تضامنوا معاً وتحركوا سريعاً، أجاب عن استفسارات الحضور موضحاً ما التبس عليهم فهمه.

عندما أتى دور السيد هيثم للحديث لم يكن هناك ما يُقال سوى أن الأخير أكد ترؤسه الحملة بذات شخصه ولمح إلى أن هناك من يدعم جهودهم ومطالبهم داخل دوائر السلطة في المدينة.

انفضّ الاجتماع بعد أن اتفق الجميع على توكيل محامي السيد هيثم الصارم للقيام بكل الإجراءات اللازمة لبدء التحرك وفق القوانين المعمول بها وتحت سقف القانون.

التحضيرات التي كانت تجري لإقامة هذا الاجتماع تبلغها العقيد عامر أولاً بأول، نقل عنها صورة مختصرة لعبد الله، قرر أن يكون

متحفّظاً أكثر على معلوماته أمام "صديقه"، مجريات الاجتماع الذي امتد قرابة الثلاث ساعات كانت تصل إلى العقيد عامر أبو النصر في مكتبه بقسم الشرطة فور حدوثها تقريباً، أما التسجيل الكامل بالصوت والصورة وأسماء الحضور ومداخلاتهم فقد وصلت إليه بعد انتهاء الاجتماع بحوالي الساعتين.

وبّخ العقيد رجله لتأخره في نقل المعلومات إليه، صرفه لجمع المعلومات اللازمة عن كل واحد من أولئك الحضور بمساعدة أرشيف قسم الشرطة أو بالبحث الميداني واضعاً تحت تصرفه مجموعة من العناصر الذين ينتمون إلى دائرة الثقة الضيقة للعقيد.

بعد أن شاهد الأخير التسجيل الخاص بالاجتماع، أدرك أيَّ نذور خطر تلوح في الأفق، خبرته وغريزته كرجل أمن أنبأتاه أن وأد الفتنة في مهدها هي الطريقة المثلى لمعالجة هكذا أمور، بكل الأحوال كان بحاجة إلى ضوء أخضر من السلطات العليا في المدينة قبل أي تحرك، هو يعرف أن هذا الضوء لن يمنح له بسهولة فإيجاد المبررات وبلورتها قبل إرسالها إلى الأعلى ضرورة ملحة، يجب أن تكون أسباب التحرك قادرة على أن تؤمن الغطاء المناسب للجميع صغيراً كان أم كبيراً، كذلك يعرف أن صناعة الغطاء المطلوب مهمته لوحده فلا أحد سيقدم له الحماية إذا انكشفت هذه العملية رغم الموافقة الضمنية للسلطات العليا عليها، أساساً لا أحد يرغب بالمعرفة، بإمكانه أن يصنع من المبررات والأغطية ما يريد شريطة أن يبقى الفاعل مجهولاً، إن حدث أي فشل هو وحده من سيدفع الثمن، تلميح السيد هيثم إلى دعم بعض دوائر السلطة في المدينة لهذا التحرك الإصلاحي كان له دلالته الواضحة بأن رئيس البلدية سيكون هو الداعم لهذا الإصلاح

المزعوم خطوة بخطوة، أصلاً ما كان لهذا المؤتمر أن يتم لـــولا دعـــم البلدية بكاملها له.

أسئلة شتى غالبت صفاء تفكيره، راودته لحظة ضعف، فكّر أن يترك الموضوع برمته والبقاء متفرجاً ككثيرين غيره، سرعان ما عدل عن الفكرة، إن لم يتحرك هو سيتحرك غيره من ضـــباط أقســـام الشرطة الأخرى في المدينة أو من ضباط قسمه نفســـه، هـــذا إن لم يكونوا قد باشروا تحركهم أصلاً، ليس هو وحده من أوفد رجالـــه لحضور وتسجيل المؤتمر، إذا سبقه غيره بحركة أثبتت فعاليتها سيفقد امتيازاته لدى سلطات المدينة العليا، أساساً وهذا هو الأهم لن يكون هو نفسه العقيد عامر أبو النصر إن ترك المواجهة ووقف متفرجاً من بعيد.

بعد المؤتمر مباشرة، استقبل المهندس عصام الناصـــر في مكتبـــه ببلدية المدينة وبالعلن بعض أهم رجال الأعمـــال الـــذين حضـــروا الاجتماع وعلى رأسهم السيد هيثم الصارم ومحاميه، قدم لهم المهندس عصام التطمينات المناسبة بأن مطالب مـــؤتمرهم ســـيتم نقلـــها إلى السلطات العليا والمختصة في المدينة وهو شخصياً يـــدعم تحـــركهم ويرى فيه وجه حق، كبادرة حسن نية طلب الرجل من السيد هيـــثم أن يزوده بأسماء أكثر الناس فقراً ممن حضروا المؤتمر ليتم إجراء عقود استثمار معهم تخصصهم بدكاكين من السوق المؤقتة ريثمـــا ينـــهي محاميه إجراءاته وتعود الحقوق إلى أصحابها:

- ليش الشغلة مطولة؟!.. أنا فهمت أنه تحركنـــا رح يكـــون سريع.. قال السيد هيثم وقد تصاعد لديه الشـــك والقلـــق الموجودان لديه أصلاً.

- لا تشك لحظة وحده أنه ما رح نتحرك بسرعة.. لكن شو بيضرك أنه ميت عيلة على باب الله تصير تدعيلك؟.. ميت اسم بمعرفتك وترتيبك.. رد المهندس عصام بلهجة خبيثة.

التقط الإشارة السيد هيثم، راقه أن يشكل زعامة بين الملاك السابقين للسوق، المؤتمر كان انطلاقة زعامته ومائة دكان يوزعها بمعرفته سيكون توثيقاً لهذه الزعامة التي قد تكون مستقبلاً المدخل إلى منصب رسمي رفيع المستوى، لم يتأخر الرجل في تزويد رئيس البلدية بالأسماء المائة، بالطبع لم يراعِ مسألة الفقر التي تحدث عنها المهندس عصام كثيراً، لكن مبادرته آتت ثمارها، لم يتوانَ أحد من الملاك عن توكيل محاميه، بات الرجل مرجعية استشارية لهؤلاء يُسأل في كثير من القضايا حول قضية الاستملاك وغيرها.

محامي السيد هيثم لم يتأخر باتخاذ إجراءاته بعد أن تلقى التوكيلات القانونية من المجتمعين في المؤتمر، وبدأ يعد إنذاراته المدبجة بعبارات قانونية من العيار الثقيل الذي لا يستطيع سوى الخبير القانوني أن يفهمها، إنذارات تطلب من شاغلي أرض السوق إخلاءه، الإجراء يشمل مستثمري بقايا بناء موكله ومستثمري الدكاكين الجديدة المؤقتة، إنذارات مستثمري الدكاكين المؤقتة لا مفعول حقيقي لها على الأرض لأن المسألة تتعلق ببلدية المدينة أساساً، حركة دعائية لا أكثر، المهندس عصام همس في إذن السيد هيثم يطلب منه أن يوعز لمحاميه بتوجيه إنذار كذلك إلى بلدية المدينة التي هو رئيسها!

الإنذارات جاءت مشفوعة بأختام وتواقيع وطوابع تجعل من يراها يعتقد أن هناك سكيناً قد باتت مسلطة على رقبته تنتظر أقل إيماءة لتفعل فعلها، وصلت صور عن الإنذارات تلك إلى جهات عدة

في المدينة وعلى كل المستويات، المكان الأهم الذي وصلت إليه هـو سوق البسطة نفسه تداولها الناس هناك بدءاً من قسم الشرطة ومديرية الاستملاكات العامة وانتهاءً بالحمام العمومي الذي يديره أبو الريح:

- جيبولي منهن قد ما بتقدروا خلي زبايني يمسـحوا قفـاهن بهالوراق.. حاكم المحارم صارت غالية.. قال أبو الريح وهو الذي اكتفى بقراءة الترويسة فقط:

"إنذار عن طريق الكاتب بالعدل".. لم يفهم المقصود، استغرب كل هذه الضجة حول تلك الأوراق، ما الذي يعنيه من أمرها طالما أن المساعد أول أبا غسان "الملك" يقف وراءه ويدعمه، في كلام أبـي الريح وجهة نظر، التنظيم الجديد للسوق بدكاكينه المؤقتة لم يقـرب الحمام العمومي الذي هو مشرف عليه، طال التغيير المؤقـت جميـع نواحي السوق تقريباً إلا حمامه وبقايا البناء القديم.

توجه الناس إلى أبـي نافذ، من غيره قادر على شرح مضمون هذه الإنذارات؟

- شو أبو نافذ فهمّنا شو عم يصير؟... قال أبو الخير.
- جايه الجرافه... رد أبو نافذ باقتضاب.

من لم يفهم المقصود من إجابة أبـي نافذ أدرك أن أمراً جلـلاً سيحل على الرؤوس، كان كافياً أن تنظر إلى الوجوه لتـدرك مـن الكمد الذي اكتسح ملامحها مقدار القلق من الآتي، انكفأ النـاس إلى أعمالهم بصمت، انزوى البعض ليتحدث هامساً إلى هاتفه المحمـول، رفع المثقلون بالهموم دعواتهم إلى مدبر العباد لينظر في حالهم، إشارات أخرى كثيرة لا تخفى على أكثر الناس تفاؤلاً لتجعله يدرك من خلالها أن السوق لن تبقى على ما هي عليه ولن تعود إلى ما كانت سـابقاً،

أما ما هو آتٍ فيصعب التكهن به، ما بات مؤكداً أن التغيير لاح في الأفق، هذا رأيُ الكثيرين.

قرأ العقيد عامر الإنذار، توجه نحو نافذة مكتبه المطلة على سوق البسطة، ستائرها مسدله دوماً، أطل على المكان من شق رفيع انفرجت عنه ستائر النافذة، شبك يديه خلف ظهره، رأى حركة الناس في الأسفل، جموع لا تهدأ، الرجل الذي ما عرف التردد يوماً أصبح في حيرة من أمره، صديقه عبد الله المأمون كان محقاً، آن الأوان لتنفيذ المخطط العمراني الجديد لمركز المدينة، بات يدرك إن هو انحنى للعاصفة لن تكون له قيامة من بعدها، أغمض عينيه، شاهد أرض السوق تحترق، الله وحده يعرف إلى أين ستمتد النار.

25... اللقاء الأخير

استأذن عبد المولى السروجي نسيبه وشريكه عبد الله المأمون بالسماح له بزيارته في منزله أثناء فترة الغداء للضرورة القصوى، اصطحب معه زوجته أميمة شقيقة عبد الله، يكون أكثر ارتياحاً بوجودها معه أثناء لقائه بنسيبه، نقل له مجريات أحداث السوق لهذا النهار، قدم له نسخة الإنذار التي تسلمها من مُحضر المحكمة، اطلع عليها عبد الله وكأنه يراها للمرة الأولى، أضاف عبد المولى أن الشائعات التي تسري في السوق تلهب خوف وقلق الناس، الحال لن تبقى على ما هي عليه، التغييرات القادمة كثيرة.

استمع عبد الله المأمون بروّية لكل ما باح به زوج شقيقته، طمأنه بثقة:

- اطمن يا عبد المولى أنته بالذات لا يمكن أتخلى عنك... قال عبد الله.

لم يكن من الوارد على الإطلاق أن يشرح الرجل لنسيبه أي تفاصيل عن حقيقة ما يجري، تلقى عبد المولى تطمينات مختصرة كانت كافية لتهدئته، انسحب بعدها عبد الله باتجاه غرفة نومه لقضاء قيلولته، ليس من طبع الرجل أن يتخلى عن روتين حياته من أجل أسباب غير ذات أهمية، زيارة شقيقته أميمة وزوجها ليست أحدها،

تبعت هزار رجلها إلى غرفة النوم تسأله إن كان هناك ما يلزمه قبل مباشرته قيلولته، عادة درجت عليها منذ اليوم الأول لزواجها، أبلغها أن تستعد لتناول العشاء في منزل العقيد عامر أبو النصر هذه الليلة.

عبد المولى بات أكثر أريحية في حديثه مع هزار بعد أن غادر المدير العام الجلسة، يتحدث إليها شبه مطرق، لا يرفع نظره إليها إلا فيما ندر، عموماً يتجنب النظر إلى أي امرأة وخاصة إذا كانت سافرة، أخذ يسرد لها تفاصيل كثيرة عما يحدث لم يكن يجرؤ أن يرويها أمام زوجها خوفاً من أن يثقل عليه، رواها أمام المرأة متأملاً أن تنقلها هي لزوجها ليكون لديه صورة أوضح عما يجري علّه يتعامل مع الأمر باهتمام أكبر.

هزار بدورها كانت تعلم عن شراكة زوجها مع عبد المولى – بالطبع تلقت المعلومة من أميمة وليس من زوجها نفسه – استمعت للرجل متصنعة الاهتمام من باب المجاملة، شاركت أميمة انفعالاتها عند بعض مفاصل روايته، في حقيقة الأمر كانت أفكارها تدور في فلك آخر، تعاطفت مع قلق عبد المولى، علماً بأنها لم تجد مبرراً لقلقه طالما أن زوجها طمأنه، اعتادت أن تكون أمور عبد الله ومن يرضى عنه بخير على الدوام، لم تفصح عمّا تفكر به، توسلت أميمة لها بأن تذكّر شقيقها بأهمية الأمر.

لم تكن هزار ترغب برؤية صبا مجدداً هذه الفترة، بعد زيارتهما المشتركة لطبيب التجميل لن يكون الحديث المرتقب لهذا اللقاء سوى بُهاقها الذي تحاول تناسيه.

ورم واحمرار عينيها من البكاء كان واضحاً لعبد الله عند استيقاظه من قيلولته:

- شبك؟.. ليش بكيانة؟!
- ولا شي عنّوا الولاد على بالي مشـــتاقتلهن كـــتير... ردت هزار كاذبة.

لم يقنع جوابها عبد الله، لم يلح، آثر الصمت، بضعة أشهر لم تكد تمضي على عودتها من زيارة ولديها في الولايـــات المتحـــدة، إذ كانت تذهب إليهما لمدة شهر كل ستة أشهر وتأخذ برفقتـــها من تشاء من أهلها أو من يرغب من أهل عبد الله المأمون، الأخير لم يتوانَ عن دفع فواتير رحلات حافلـــة بالترفيـــه والمشـــتريات، عبد الله المأمون غالباً ما كان يعرج على زيارة ولديه منتهزاً فرصة سفره خارج المدينة في إحدى مهمات العمل التي يقـــوم بهـــا، لم يصادف أن رافق زوجته في زياراتها سوى مرة أو مـــرتين علـــى الأكثر.

يقع منزل العقيد عامر في ضاحية قريبة من المدينة اقتصر سكانها على الطبقة المخملية، كانت أكثر ضواحي المدينة تنظيماً، امتاز منزله عن منزل عبد الله بغرفة صغيرة استحدثت على مدخله ليجلس فيهـــا مرافقوه والسائقون من عناصر الشرطة، أمر بأن تبنى غرفة الحراســـة داخل حديقة المنزل بحيث تبقى خفية عن الأعين، تشدد الرجل مـــع عناصر حمايته الخاصة ليتصرفوا دوماً بتهذيب ويحسنوا التعامـــل مـــع الجوار، عاقب منهم كل من تجاوز حدوده دون رحمة، المنـــزل مـــن الداخل جهز بمعرفة شركة إنشاءات مختصة بالديكور الداخلي، قلـــة أثاثه تجعل الزائر يحس برحابة المكان.

صبا فضلت إحضار العشاء من مطبخ أحد فنادق الخمس نجوم التي تتعامل معها عادة، عموماً كانت لا تفضل استقبال الضيوف في

منزلها ليس من بخلٍ، إنما ترى ارتياد المطاعم فيه راحة أكبر لها ولضيوفها.

العقيد وصديقه انزويا في أحد أركان الصالون الفسيح مع كأسي الويسكي من فئة "البلاك ليبل" فيما وضعت الخادمة على طاولة صغيرة بينهما بعض صحون المقبلات من اللحوم الباردة المدخنة والأجبان الفرنسية.

الحديث عن الإنذارات والتوقعات لم يكن إلا بداية للحديث الأهم ألا وهو الحصة التي من الممكن أن يحصل عامر عليها من مشروع المخطط العمراني، لم يفصح الأخير بشكل مباشر عما يود السؤال عنه، المدير العام التقط أفكار صديقه، عبد الله حاول أن يتبسط في حديثه، أعلم عامر أنه يتوجب عليه إرضاء جهات كثيرة في المدينة، أخذ يشرح له أن تلك الجهات أساس وجوده واستمراره، الأخير فهم كلام الرجل مداورة غير مبررة يشرح فيها حالة يعرفها هو تمام المعرفة، أدرك أن هدف كل تلك الشروحات هو التمهيد لحصة متدنية من الأمتار المربعة سيقدمها عبد الله له، استاء أن تؤول الأمور فيما بينهما إلى هذه الحال، كعادته اكتفى بمتابعة الحديث باهتمام دون أن يفصح عمّا يدور في تفكيره، وعد المدير العام "صديقه" إيجاد طريقة يعوضه فيها عن الحصة المتدنية المرتقبة، ساء الأخير أكثر أن يكون محط إحسان عبد الله المأمون، في محاولة أخيرة لرأب الصدع الذي بدأ منذ لقائهما الأخير في السيارة، سأل العقيد عامر عن شركات البناء التي ينوي منحها تعهدات تنفيذ المشروع، باب آخر للمنفعة عمولاته السود التي ستمنح في الغرف المظلمة لن تقل عن مئات الملايين إذا أخذنا بعين الاعتبار أن تكلفة تنفيذ المشروع قد تبلغ الثلاثة مليارات،

إذا ما دخل العقيد على هذا الخط سيحصل على مبلغ مجـــز يشـــكل تعويضاً لابأس به، صدم الأخير لجواب المدير العام، أبلغه الرجل أنـــه سيترك تلك التعهدات لمناقصات حرة نزيهة، الشركات الرابحة فيهـــا ستحصل على عقود الإنشاء دون أي معوقات، مســـألة العمـــولات متروكة للزمن في حال رغبت الشركات بتقديمها كهدية، لكنها لـــن تكون شرطاً مسبقاً للحصول على العقود.

دقّ عبد الله المسمار الأخير في نعش علاقته بعامر مـــن خـــلال كذبته التي لا يمكن أن تنطلي على أحد، كيف وأن العقيد عامر أبـــو النصر هو من يتفوه أمامه بهذه الترهات؟

من جهته عبد الله استاء أن يستضيفه عامر لمساءلته في مشـــروع يخص مديريته، الضريبة التي يتوجب عليه دفعها لقاء وقوف الأخير إلى جانبه لسحب المشروع من بلدية المدينة لينفذ علـــى يـــد مديريـــة الاستملاكات العامة دفعه، عشر سنوات من المماطلة كان العقيد يجني خلالها الملايين من فوضى السوق ويستأثر بها لنفسه، وضع عبـــد الله نفسه خلالها تحت خطر المساءلة بتهمة التسويف والمماطلة، بات على شفير الهاوية المتمثلة بإلقائه خارج مديرية الاستملاكات العامة يتعفن بانتظار تقاعده الوظيفي، صحيح أنه خلال تلك الســـنوات العشـــر وضع خطته المحكمة ليصبح شريكاً مع أي مستثمر ينوي الاستثمار في أبنية المشروع شاء ذلك أم أبى بحكم وضع المواقع الاســـتراتيجية في الأبنية المزمع إنشاؤها تحت سيطرته، لكن في النهاية لا بد للمشـــروع أن ينطلق حتى ينفذ خطته ويحصل على ثمارها، إنه قرار سلطات أكبر منه ومن "صديقه" العقيد، إذ لا يمكن أن يبقى مركز المدينة على هذه الحال إلى الأبد.

هزار بدت متحفّظة في حديثها مع صبا أكثر من اللازم هذا المساء، الأخيرة التي حملت نفسها طيبة أصيلة تفهمت حالة صديقتها فأخذت تثرثر بمفردها في أحاديث المجتمع المفضلة لديها محاولة التسرية عن ضيفتها.

هزار التي بدت ساهمة طيلة الوقت فاجأت صبا وهي تقول:

- بدي روح أتعالج بأمريكا عند ولادي... بات واضحاً لصبا أن من تجلس قبالتها تستمع كانت في عالم آخر تماماً غير ذلك الذي كانت تتحدث هي عنه.
- مو غلط هي أحسن شغلة بتعمليها...

استرقت صبا نظرة إلى الزاوية التي يجلس فيها الرجلان وهمست لصديقتها:

- ألتيله لجوزك شو صاير معك؟

هزت هزار رأسها نافية.

- ورح يخليكي تطلعي لعندهن وأنتي ما صرلك كم شهر راجعة من عندهن؟

لم تكن مسألة إقناع عبد الله بالأمر الصعب فإن تتركه زوجته لشؤونه في الحياة لم يكن ليضيره بشيء، لمعت في بال صبا فكرة مفاجئة:

- شو رأيك سافر معك؟

غادر عبد الله وزوجته منزل عامر في وقت متأخر من الليل، اتصل الأخير بأبي غسان، أمره بالتوجه إلى القسم لملاقاته هناك.

عند وصولهما إلى المنزل، توجه عبد الله إلى غرفة مكتبه مباشرة، خرج منها بعد بضع دقائق يحمل حقيبته الدبلوماسية، أبلغها أن لديه

اجتماعاً طارئاً، غادر المنزل قبل أن تصحو هزار من دهشتها، لـــيس من عادة زوجها العمل في وقت كهذا، لم يرد لبالها أن يكون لـــدى زوجها موعد غرامي على سبيل المثال، كسر روتين حياته لا بـــد أن يكون له سبب أكثر أهمية بكثير من ترّهات الغرام.

كلا الرجلين كان لديه خطط لا تحتمل التأجيل.

26... تعليمات جديدة

- أي شي بيصير بالسوق ما ألكن دخل فيه نهائياً، حتى الجولات بتلغيها... قال العقيد.

لم يفهم أبو غسان المغزى من تعليمات سيده الجديدة:

- سيدي الناس ما بتنترك على راحتها.. هدول غير بالعصايه ما بيمشوا... قال أبو غسان.
- عميل متل ما عم قلك... رد العقيد بحزمه الذي لا يحتمل النقاش.

انكسرت نظرة أبي غسان أمام نظرة سيده والتي كانت كافية لتنفيذ رغبته بحذافيرها.

لم تكن مسألة كهذه تروق "للملك" بأي حال من الأحوال، السوق زاخرة بالمشاكل الدائمة واليومية، مكمن قوة الأخير قائم على حلها بطرقه المتعددة، إذا ترك الحبل على الغارب كما يطلب سيده، لن تمر مدة قصيرة إلا ويفقد السيطرة تماماً على هؤلاء البشر الذين ما اعتادوا الانصياع إلا للخوف.

عاد أبو غسان إلى مكتبه مبلبل الذهن مشوش الأفكار، استدعاؤه إلى القسم من قبل سيده في هذا الوقت المتأخر من الليل ليبلغه تعليماته لا يبشر بالخير، أوامره بالتوقف عن جباية الأموال

كارثة بحد ذاتها، بالنسبة إليه على الأقل، غيابه عن السوق قد يُفسر من قبل الناس هناك بغير معناه الصحيح، الوقوف متفرجاً على مشاجرة ما ستفقده هيبته، أيقن أن للشائعات المنتشرة بين أهل السوق علاقة بالأوامر الغريبة للعقيد، تتبدل تلك الشائعات مع تبدل ساعات النهار، هو نفسه المساعد أول أبو غسان "الملك" لا يعلم الصحيح من الكاذب منها، راودته نفسه للحظة بجباية دفعة أو دفعتين من أموال السوق والفرار بها خارج المدينة، الفرار من سيده في قسم الشرطة، الفرار من زوجته وأولاده، الاختفاء للأبد، شعر أنه بالغ في مشاعره، ثاب إلى رشده، قرر الانتظار بضعة أيام ريثما تنجلي الأمور، في زاوية عميقة من عقله بدأت تتشكل قناعة لديه بأن أمور سيده ليست على ما يرام، إن كان مركبه سيغرق، الأولى به أن ينجو بنفسه.

غفا أبو غسان على سريره المعدني داخل مكتبه في قسم شرطة مركز المدينة مع تباشير الفجر، راوده حلم مزعج، شاهد العقيد يعهد بسلطاته وصلاحياته إلى مساعد آخر من مساعدي القسم عازلاً إياه عن مهامه الملكية، شاهد نفسه يرتمي على حذاء العقيد يبكي مقسماً على حبه وولائه، شاهد زوجته تنصرف عنه، اختلطت كل تلك الرؤى بعضها ببعض، تكررت، شاهد نفسه يسير في السوق بين صفين من الناس، أخذ كل منهم يبصق عليه بدوره، تجمعوا أخيراً حوله، أخذوا يبصقون باستمرار، صحى من غفوته، العرق ينضح من وجهه، ثيابه كذلك بللها العرق، اكتشف أن غفوته لم تتجاوز الساعة، ما زال الوقت مبكراً، تقلب في فراشه، راجع كل تصرفاته في الأيام.. الشهور الماضية، اجتر كلماته وعباراته علّه يجد بينها الخطأ الذي ارتكبه، أيقن أن هناك من نقل إلى سيده نبأ الألوف التي كان

يقتطعها سراً لنفسه من الدفعات نصف الشهرية، تراجع عن تلك الفكرة، ما كان يقوم به لا يمكن كشفه، لم يجد سبباً لموقف سيده منه سوى سهراته في فندق الرحاب الخاص، تراجع عن الفكرة مجدداً، عشر سنوات تغاضى خلالها العقيد عن تلك السهرات، لم يستجد ما يجعله يستاء منها، جدد أفكاره بجرعة أمل، ما يفكر فيه ليس سوى أوهام، سيده لا يمكن أن ينكر له حبه وولاءه وخدماته الخاصة، هو متأكد أنه لم يخطئ في علاقته معه يوماً، أخذت تتقاذفه أمواج الأمل والخيبة والخوف والحزن والعتب واللوم وتعذيب الضمير ومشاعر أخرى متضاربة ما عرفها يوماً.

العقيد عامر راجع قائمة أسماء أعوانه في السوق ممن زرعهم كمستثمرين للدكاكين المؤقتة، قائمة حفظها في ذهنه، اعتاد أن لا يضع على الورق إلا الحد الأدنى من المعلومات التي تفرضها ضرورة العمل، اتصل بأحد أعوان دائرة الثقة الضيقة، أعطاه عنواناً أمره بالتوجه إليه، شقة متطرفة عن المدينة إلى حد ما، استحضر العقيد في ذهنه كل الموروث المتراكم لطرق وأدوات عمل سلك الشرطة في الأزمات، اتخذ قرار خوض المعركة حتى نهايتها.

غاب "الملك" وعناصره عن السوق لأول مرة منذ بزوغها، الخوف المتراكم عبر السنوات المنصرمة داخل النفوس جعل الناس تتصرف كما اعتادت، تلك القوانين غير المكتوبة، غير المرئية، قادت مسيرة حياتهم اليومية، لكن إلى حين.

27... توزيع الاستثمارات

في تلك الليلة عقب زيارته للعقيد في منزله، توجه عبد الله المأمون بعد مغادرة منزله حاملاً حقيبته الدبلوماسية إلى المبنى الذي يضم مكاتب "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية" حيث كان الشيخ محي الدين المأمون ينتظره هناك بناءً على رسالة نصية أرسلها له أثناء وجوده في منزل العقيد، طال اجتماعهما حتى الساعة السابعة صباحاً، لم يتسنَّ للأخير خلالها أن يصلي صلاة الصبح في المسجد الكبير للحي على قربه، ترك إمامة المصلين الذين اعتادوا على وجوده في الصلوات الخمس لأحد أتباعه، أولئك الذين يصرّ عليهم بضرورة قضاء صلاة الصبح والعشاء في حرم المسجد.

طلب عبد الله من شقيقه التلميح بذكاء أثناء خطبه للمشاريع الجديدة التي تقام في المدينة والثناء عليها دون مقاربة اسمه، الشيخ لفت نظر أخيه إلى أن خطب الجمعة تأتيه مطبوعة وما عليه إلا قراءتها على الملأ:

- بعرف.. شوية خروج عن النص ما بيأذوا حدا.. وعلى مسؤوليتي... قال عبد الله.
- أكيد مو جايبني لهون قبل طلوع الضو مشان تقلي هالحكي..

طلب عبد الله من محي الدين إعداد قائمة تضم أسماء أفراد عائلة المأمون رجالاً ونساءً ومن له صلة بهم قرابة أو معرفة، همّ الأخير يريد إطلاق وابل من الأسئلة والاستفسارات، استمهله شقيقه بإشارة من يده:

- خلينا نأجل الأسئلة شوي.. قال عبد الله.

أخذ محي الدين يكتب على ورقة أمامه الأسماء تباعاً، الرجل أكثر معرفة بالعائلة من توأمه بحكم ملازمته للمرحوم والده سنوات طويلة في العمل أولاً ولاهتمامه بصلة الرحم ثانياً، عبد الله أخذ يستوضح عن الأسماء التي لا يعرفها، صلة القرابة على وجه الدقة، عمره، عمله، تقييم محي الدين لشخصيته وسلوكه إذا كان مطلعاً على هذه التفاصيل، يطلب منه شطب بعض الأسماء التي كتبها في القائمة، انتهى إعداد القائمة عند الساعة السابعة صباحاً تقريباً، تصفح عبد الله الأسماء مجدداً، تجاوز عدد الأسماء فيها المائة اسم، شطب بقلمه على اسمَي زوجَي شقيقتيه الكبيرتين:

- ليش شطبت اسمهن؟!.. قال محي الدين.

لم يجب عبد الله على السؤال، مذ رفض الرجلان وضع إرث زوجتيهما تحت وصاية شقيقه محي الدين فقد الرجل ثقته بهما، بات يفضل تجنب التعامل معهما.

وضع عبد الله علامات صغيرة بجانب خمسة أسماء من القائمة بقلمه، الأسماء الخمسة متباعدة في علاقتها الأسرية بعضها عن بعض، كذلك هي الأبعد في صلة القربى عن أبناء آل المأمون، ضمت الأسماء الخمسة على سبيل المثال ابن عم من أحد فروع العائلة، قريباً لإحدى زوجات محي الدين وهكذا، نقل عبد الله الأسماء الخمسة إلى ورقة

صغيرة، قدمها إلى شقيقه، حدد له كيفية لقاء كل واحد من الأسماء الخمسة على انفراد حسب أهميته في العائلة آخذاً بالاعتبار كذلك وضعه المادي، هناك من يتوجب زيارته في منزله، آخر يتوجب على محي الدين أن يلتقيه في مكتبه داخل مبنى الجمعية، هناك من يجب أن يدعوه إلى فيلته الفاخرة لكن بعيداً عن عيون زوجاته الثلاث.

طلب عبد الله من شقيقه أن يقنع كل فرد من الأسماء الخمسة المكتوبة على الورقة الصغيرة التي قدمها له أن يحضر مجموعة أوراق ثبوتية (سجل عدلي نظيف، براءات ذمة مالية من جهات متعددة، إثباتات شخصية ومواطنة، سندات إقامة، تعهدات متعددة لدى الكاتب بالعدل....)، كذلك قدم له عقد بيع يتوجب على كل واحد منهم أن يوقعه، عقد البيع صاغه بنفسه معتمداً على خبرته القانونية كدارس للحقوق وعلى خبرته الإدارية كمدير عام، ينص العقد على بيع قطعي لعقار "يفترض" أن صاحب العلاقة يمتلكه، في حقيقة الأمر صاحب العلاقة لا يدري مكان العقار ولا يعرف عنه شيئاً ولا يمتلكه أصلاً، العقار مشار إليه في العقد بأرقام وحروف مجردة، مُغفل فيه اسم الشاري، تاريخ البيع، أحجية حقيقية الشيخ محي الدين لم يدرك ما وراءها:

- لو تشوفهن أنته و..... قال محي الدين.
- أنا لازم أبقى برات الصورة.. رد عبد الله مقاطعاً.

أراد الرجل أن يختفي خلف جبة شقيقه الشيخ، وشدد عليه أن لا يذكر اسمه لمصلحة الجميع.

- شو هالحزيرة يا عبد الله.. مين رح يوقع على هيك عقد.. بدك الناس تبيع شي ما عندها ياه ولا بتعرف عنه شي؟!..

قال محي الدين مستنكراً.

- بتثق فيني ولا لأ؟.. كان هذا الرد من عبد الله كافياً ليصمت محي الدين عن الإدلاء بأي سؤال آخر قد يخطر على باله.

أقنعه عبد الله أن يمارس سطوة وهيبة رجل الدين على الأسماء المذكورة في القائمة، فوق ذلك قدم مدير عام مديرية الاستملاكات العامة مبلغ مليون ليرة هدية لكل اسم يُحضر الأوراق المطلوبة ويوقع عقد البيع القطعي.

طلب منه أن لا يوصي أحداً بالتكتم على الموضوع لأنه من المعلوم أن توصية كهذه ستأتي بمفعول عكسي وتلفت النظر أكثر من اللزوم، من أراد أن يتحدث فليتحدث، طلب منه مماطلة من يطلب مبلغاً أكبر من المليون المقترحة وعدم إغلاق باب العلاقة معه، كذلك طلب منه أن يستخدم الأموال الموجودة في رصيد "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية" لدفع الملايين المطلوبة ريثما يؤمن له المال اللازم.

نهض عبد الله ينوي العودة إلى منزله للاستحمام وحلاقة ذقنه قبل أن يتوجه إلى مبنى مديرية الاستملاكات العامة، اتفق مع شقيقه على موعد لقاء قريب يفترض أن يكون الأخير قد أنجز قبله ما طلبه منه عبد الله، قبل أن يخطو الأخير خارج المكتب، توقف للحظة، أغلق الباب وعاد للجلوس مجدداً، سأله هامساً عن مدى ثقته بالرجال الذين منحهم عقود الاستثمار للدكاكين المؤقتة التي خصصت بها الجمعية على أرض السوق، الشيخ محي الدين ابتسم ابتسامة عريضة:

- ما لازم تسألني هيك سؤال.. للموت إذا بدك...

28... قبل بدء الأحداث

تصل أخبار السوق تباعاً إلى المهندس عصام الناصر، أثار اهتمامه الحال التي آلت إليها الأمور هناك إثر غياب عناصر قسم شرطة مركز المدينة عن تفقد الأوضاع وضبط المخالفات، أصبحت الفوضى شبه عارمة تهدد أمن السوق، من يدري قد تنتقل إلى أسواق المدينة الأخرى، لم يكن من المنطقي بالنسبة للمهندس عصام الوقوف مكتوف الأيدي أمام ما يهدد أمن المدينة، الأهم من ذلك هو انتهاز فرصة إمكانية التحرك مجدداً، فرصة يوقع فيها غريماه عبد الله وعامر في مأزق جديد.

في السوق أصبحت الشائعات التي بثها سابقاً أعوان رئيس البلدية تتحول إلى حقيقة لا مجال فيها للشك، باتت حقائق ملموسة لدى أهل السوق، مشكلتها التناقض، كل واحد من أهل السوق أخذ يتبنى ويدافع عن الحقيقة التي تناسبه، حتى أن بعضهم صاغ حقائقه الخاصة وأخذ يروج لها، لو أن الوضع انتهى عند هذا الحد لهان الأمر، أخذت بعض الجدالات تنتهي بمشاجرات اشتبك فيها المتخاصمون بأيديهم، قام البعض بتحطيم دكاكين الآخرين وإلقاء بضائعهم على الأرض.

تكتل قدامى أهل السوق كأبي داغر وغازي وأبي الريح في صف واحد، افتقدوا الحضور الطاغي "للملك" لما كان يوفره من

انضباط مريح للجميع، صحيح أنه كان يتجاوز الحد في قسوته وجشعه في كثير من الأحيان، لكنهم تآلفوا معه وأنسوا إليه، باتوا يتماشون مع طريقته في تسيير الأمور، خاصة وأن الكثيرين منهم وفدوا إلى السوق بعد أن نظم أبو غسان العمل فيه على طريقته، أولئك لا يعرفون طريقة أخرى تمكنهم من مزاولة أعمالهم غير طريقة "الملك".

تكتل آخر هم أولئك الذين حصلوا على دكاكينهم عن طريق "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية"، "جماعة أبو دقن" على حد تعبير أهل السوق، يعتقد أفراد هذا التكتل أن أرض السوق بأكملها حق مطلق لهم، أرادوا أن يفرضوا طريقتهم في العمل، أخذوا يصبحون أكثر جرأة على الناس يوماً بعد يوم، أبو داغر وغازي تسلحا بِعِصيٍّ غليظة علقوها في صدر دكانيهما بطريقة استعراضية توحي بجاهزيتهما لصد أي اعتداء عليهما، أبو نافذ اقترح على أهل السوق إدخال أبي الخير كوسيط يمكن أن يكون مقبولاً لدى هؤلاء علّه يخفف من غلوائهم، الأخير أحجم عن التدخل في مسألة يدرك عدم جدواها.

التكتلان الأخيران هما أعوان العقيد وأعوان رئيس البلدية، كل على حدة، كلا التكتلين وقفا موقف المتفرج مما يجري، ينقلان ما يشاهدانه إلى سيديهما، يبثان الشائعات التي يطلب منهما نشرها.

أمام كل تلك الفوضى وقف مستثمرو دكاكين العبارة متفرجين، لم يكونوا بمنأى عن القلق:

– يعني أنته ما عم تشوفه لأبو غسان؟... قال أبو الخير لأبي نافذ.

- هو ما عم يخليني شوفه... رد أبو نافذ.
- أخي أنا بدي أدفع أجرة المطعم.. ما بيناسبني أقعد فيه بدون ما أدفع الأجرة.. عقّب أبو الخير.
- يا جماعة حكي أبو الخير مزبوط.. دفع الشهرية بيثبت حقنا بالدكان.. أما هيك مين ما أجى حامل كم ورقة مختومه وقلك هي الدكان إلي.. ما فيك تقله لأ.. والإنذارات يلي إجت أكبر دليل.. قال أبو نافذ موجهاً كلامه لشاغلي الدكاكين المتجمهرين على مدخل العبارة.

توجهت العيون نحو عبد المولى السروجي لما يخمنه المجتمعون عن خصوصية وضعه في السوق، علماً بأنها المرة الأولى التي كان يشارك فيها الرجل مستثمري دكاكين العبارة اجتماعاتهم، لم يكن التجمهر اجتماعاً بالمعنى الحرفي للكلمة، تجمعوا أساساً ليشاهدوا مشاجرة بين بعض مستثمري الدكاكين المؤقتة من تلك التي لا يمر يوم إلا وبات يحدث اثنتان أو ثلاث منها.

عبد المولى توجه إلى دكانه متهرباً من العيون التي تعلقت به علّه يملك جواباً شافياً لما يحدث، لم يفت المتجمعون مشاهدة الرجل يتصل بالهاتف وإمارات القلق بادية تماماً على وجهه.

فندق الرحاب الخاص تحديداً هو الوحيد الذي بقي بمنأى عما يحصل، استغرب أهل السوق تجاهل أفراد تكتل الجمعية لما يجري فيه، اللعنات التي كان يطلقها أفراد الجمعية عندما كانوا يلمحون إحدى فتيات الفندق تهبط الدرج برفقة كسار لم ترقَ إلى مستوى التحرشات التي كانوا يفتعلونها ضد أبي داغر وغازي على سبيل المثال، تراجعت أعمال فندق الرحاب الخاص لكنه بقي بعيداً عن

الغليان الحاصل في السوق، كأن هذا الطابق من بقايا البنـــاء القـــديم معلق إلى السماء بحبال غير مرئية، كأنه لم ينبت أساســاً مـــن أرض السوق.

للمرة الأولى منذ قدومه إلى السوق خرج الأستاذ عبـــد الغـــني الشاعر عن صمته، حاول التوسط في أحد الشجارات بين فتى يـــافع يبيع الأقراص المدمجة لآخر إنتاجات المطربين الجدد في المدينة وأحـــد أفراد الجمعية عندما سمع الأخير الفتى يطلق شتيمة تطال الذات الإلهية، علماً بأن الفتى لم يطلق تلك الشتيمة ضد الملتحي إنما سمعها الأخـــير مصادفة، انقض عضو الجمعية على الفتى يوسعه ضرباً، صادف مرور الأستاذ عبد الغني الشاعر عائداً من الحمام العمومي، حاول الرجـــل تهدئة روع عضو الجمعية، انتقل الأخير إليه يضربه بدلاً عن الفـــتى، المفاجأة جعلت الأستاذ عبد الغني الشاعر يتلقى الضـــرب واللعنـــات دون أدنى مقاومة، أساساً الرجل في مرحلة متقدمة مـــن العمـــر لا تسمح له بإبداء أي مقاومة، أنقذه المارة من براثن الملتحي، نصـــحه البعض بالتوجه إلى قسم شرطة مركز المدينة لتقديم شكوى في حـــين نصحه البعض الآخر بنسيان الأمر لأن الشكوى ستحمل إليه ضـــغينة "جماعة أبو دقن" بأكملها، قد لا تستطيع الشرطة إنقـــاذه في المـــرة القادمة، أكثر النصائح التي تلقاها الأستاذ عبد الغني الشـــاعر ذكـــاءً أطلقها أبو نافذ من باب السخرية:

- يا أستاذ لازم ما تبيع بمكتبتك غير الكتب يلـــي بيقروهـــا هنن.. ساعتها ما بيقربوا عليك.

عندما اختلى الأستاذ عبد الغني الشاعر بنفسه في دكانه، أسدل الشادر، لم يستطع أن يمنع عيونه من البكاء، لم يكن سبب بكائه ألمـــه

من الصفعات التي تلقاها أو حزناً على كرامته المهدورة فقط، الأستاذ عبد الغني الشاعر جاء غريباً إلى أرض السوق وبقي غريباً فيه طيلة السنوات المنصرمة، رغم ذلك أحب السوق وأهله، بقي على مسافة منهم يراقب، ربما هذا خطأه، لكن بكل الأحوال راعه أن تصل الحال إلى ما آلت إليه، الرجل ما كان يدري أن ما يحدث الآن ما هو إلا البداية.

أدرك المهندس عصام أن غياب سلطة قسم شرطة مركز المدينة عن السوق له دلالته، لم يتمكن من معرفة المقصود منه تماماً، لا يعقل أن يكون العقيد قد انكفأ على نفسه وتراجع أمام التحركات التي قام بها هو من تنظيم العمل في السوق أو دفع السيد هيثم الصارم إلى الواجهة، ليس العقيد عامر أبو النصر من يتراجع أو ينكسر بسهولة فهو يعرفه حق المعرفة.

بعد طول انقطاع ظهرت في السوق دورية شرطة برئاسة مساعد أول لم يتعرف أهل السوق إلى أحدٍ من عناصرها، وجه عناصر الدورية ملاحظات صارمة لمستثمري الدكاكين الجديدة بضرورة الالتزام بالعمل ضمن مساحة الدكان، عدم بروز بضائعهم إلى الممرات التي هي من حق المشاة فقط وبضعة أوامر أخرى لا تعني شيئاً ذا أهمية بعد أن وصلت الفوضى إلى الحالة التي هي عليها الآن.

- معلم بعد أمرك بالعادة المعلم أبو غسان بيطلع دوريات عالسوق.. حضرتكن مين باعتكن؟.. قال أبو داغر لرئيس الدورية بأقصى لهجة تهذيب استطاع أن يتلفظ بها سؤاله.
- مين هاد أبو غسان؟.. من هلق ورايح شرطة البلدية يعني نحنا يلي رح نطلع دوريات.. رد المساعد أول يريد إفهام

المتجمهرين حوله الجهة التي يتبع لها بوضوح.

طار الخبر إلى أذن العقيد عامر الذي صرّ على أسنانه حتى كاد الدم أن يُفجر عروق صدغيه.

- بتاخد عناصرك وبتروح بتشوف شو القصة.. خبرني قبل ما تتصرف.. قال العقيد محاولاً الاحتفاظ بهدوئه المعتاد لأبي غسان الواقف قبالته على أهبة الاستعداد.

غرق المهندس رئيس بلدية المدينة في كرسيه الدوار خلف مكتبه منتشياً بما يحدث.

- منيحة فركة الأذن... قال المهندس عصام لمدير مكتبه الواقف قبالته.

يدرك الرجل تمام الإدراك أن السوق يقع ضمن منطقة صلاحيات قسم شرطة مركز المدينة، لا صلاحية لقسم شرطة البلدية أو غيره بأن يتصرف هناك، أكثر من ذلك عندما أرسل دورية شرطته إلى السوق، أفهم الرجل مدير مكتبه نقاطاً عدة ينقلها إلى عناصر دورية الشرطة المرسلة بأنه يتوجب عليهم التقيّد بها: عدم اصطحاب أسلحتهم معهم، دفع الجدال مع عناصر شرطة مركز المدينة عندما يحضرون إلى حافة الهاوية دون الوقوع فيها، عدم التورط بأي نوع من الاشتباك معهم عدا الاشتباك الكلامي وقد تمّ له ما أراد بالضبط.

أبو غسان خفق قلبه بين ضلوعه إلى درجة أنه كاد ينفجر من الفرح بينما كان يستمع إلى أوامر سيده، إن صح القول هو لم يستمع جيداً إلى ما قاله، خلال ثوانٍ معدودة وقبل أن يغادر مكتب سيده كان قد رسم خطة في باله تعيد له ألق "الملك" إلى السوق وبين أهله.

نزل "الملك" مع عدد كبير من عناصره مدججين بأسلحتهم بطريقة استعراضية، زرعت ذعراً حقيقيا في قلوب من شاهدهم، نال كل من تلكأ في إفساح الطريق لهم ركلة أو صفعة أو شتيمة على أقل تقدير، أحاطت دورية قسم شرطة مركز المدينة أفراد الدورية الوافدة من قسم شرطة البلدية كأنهم لصوص قدموا إلى السوق من عالم آخر.

تناوش الفريقان الكلام فيما كان الاحتقان بينهما حاضراً منذ البداية، أمر أبو غسان دورية قسم شرطة بلدية المدينة بالانصراف قبل أن يتخذ إجراءاته، كلامه ونبرته حملت إهانة صريحة ومباشرة لعناصر الدورية الوافدة، الأخيرة تعنتت في موقفها إلى درجة بات من المستحيل التفاهم معها:

- نحنا معنا أوامر لضبط مخالفات السوق من معلمنا رئيس البلدية... قال قائد الدورية الوافدة.
- ونحنا إلنا رب واحد اسمه العقيد عامر أبو الناصر مالنا شايفين حدا غيره... صاح أبو غسان ثم التفت إلى عناصره يأمرهم باعتقال أفراد الدورية الوافدة، لم يكن هناك مناص من تصويب الأسلحة وتلقيمها في وجه عناصر شرطة بلدية المدينة.

قائد الدورية الوافدة أدرك أنه بلغ الحافة للهاوية المطلوبة التي أبلغه عنها مدير مكتب المهندس عصام، أمر عناصره بالانسحاب، توجهوا نحو سياراتهم بهدوء مثير للريبة وكأنهم لم يتلقوا إهانة للتو، الصمت الذي وقع لحظة تلقيم عناصر "الملك" لأسلحتهم ما عرفته أكثر ليالي شتاء السوق حلكة، عاد المئات من المتفرجين الذين كانوا متحلقين حول المجموعتين إلى أعمالهم، بضع همسات كانت تسري

هنا وهناك، بقيت السوق على هذه الحال بقية النهار كله، مزيد من مؤشرات الشر المرتقب تتراكم في نفوس أهل السوق يوماً إثر يوم.

للمرة الأولى أحس العقيد بالعجز عن فهم حركة المهندس عصام، عندما علم بتفاصيل المواجهة طار صوابه من الحماقة التي انجر إليها أبو غسان:

- ولك أنته حمار ما بتفهم؟!.. كيف بتخرطشوا سلاحكن على دورية شرطة متلكن متلها؟!.. قال العقيد متلفظاً بوصفٍ ناب للمرة الأولى.
- سيدي..... حاول أن يرد أبو غسان
- انقلع على مكتبك ما بتطلع منه.. حتى على بيتك ما بتروح.. عم تفهم؟

بعد خروج المساعد أول من مكتبه مباشرة ورد للعقيد عامر اتصال هاتفي من أحد أعوانه في السوق يخبره أن مرؤوسه أبا غسان جعل منه "رباً" على مسمع الجميع، رجال رئيس البلدية تحديداً سمعوه يطلق عليه هذا الوصف وبالعلن، قبل أن يصل أبو غسان إلى مكتبه، وللمرة الأولى شاهد ضباط وصف ضباط وعناصر قسم شرطة مركز المدينة الرجل الأكثر هيبة وغموضاً يتخلى عن تحفظه ورزانته، العقيد عامر أبو النصر أخذ يجري في ممرات القسم حتى أدرك أبو غسان وهو على وشك دخول مكتبه، انقض عليه يبرحه ضرباً بأطرافه الأربعة، تحت وقع المفاجأة أبو غسان وقع أرضاً منطوياً على نفسه يتلقى الركلات والشتائم من سيده، عبارات لم يتوقع أحد سماعها من رجل كالعقيد عامر أبو النصر:

- أنا "ربكن" يا ابن الحرام؟!... أنته بدك تخرب بيتي؟؟!!

كلما حاول أبو غسان أن يتفوه بكلمة أو توسل يتجدد حنق سيده ويكيل له من الضرب والشتائم أكثر، وقف جميع من في قسم الشرطة يتفرج مذهولاً، أدرك التعب العقيد، أمر الأخير أبا غسان بالوقوف قبالته فيما تكاد أنفاسه أن تنقطع من شدة الغضب والانفعال والجهد الذي بذله في ضرب مرؤوسه، بالكاد استطاع الأخير أن يقف على قدميه، الدم يسيل غزيراً من أنفه وفمه، يبكي كالأطفال، تقدم منه العقيد عامر أبو النصر، نزع بحركة خاطفة الرتب الشرطيّة عن كتفيه، أمر عناصره بتقييد يدي أبي غسان إلى خلف ظهره وسوقه إلى السجن الخاص بجهاز الشرطة ريثما تتم إحالته على القضاء المختص، أبو غسان أدرك أنه بلغ النهاية، عرف أن تقبيل حذاء سيده في هذه اللحظة لن يجدي نفعاً، خرجت دورية الشرطة من القسم ترافق أبا غسان، اثنان من العناصر كانا يساعدانه على السير، شاهد أهل السوق "الملك" بالكاد يستطيع أن يمشي، يبكي، ينزف، ثيابه ممزقة، ذليلاً لا يجرؤ على رفع ناظريه، لم يتفوه أحدهم بكلمة، فقط أبو الريح وقف في زاوية بعيدة عيناه تنساب منها الدموع، البعض اعتبر أن كل ما يجري إن هو إلا من علامات اقتراب الساعة، منذ ذلك اليوم لم يسمع أحد عن أبي غسان، لم يذكره أحد كأنه لم يمر على السوق يوماً!!

ألقى عامر بنفسه على أقرب كرسي صادفه عندما دخل مكتبه، مازالت نيران صدره تتقد غيظاً وحنقاً، لم يجد تفسيراً منطقياً لإرسال المهندس عصام دورية شرطة لتعمل خارج دائرة صلاحياتها، هو يعرف أن الأخير عالم بالقوانين مثله تماماً، لا يمكن لرجل مثله أن يرتكب مثل هذا الخطأ بالمجان مهما تكن غاياته، بالتأكيد حماقة أبي

غسان قدمت له أكثر مما يطمح بكثير، تمالك نفسه، قرر الاتصال بسلطات المدينة ليشكو لها تصرف المهندس عصام الناصر، أن يبادر هو أولاً خيرٌ من أن ينتظر.

لم يتأخر الاتصال الهاتفي الذي ينتظره رئيس البلدية كثيراً:

- سيدي أي خطأ ارتكبناه ما بيساوي شي قدام تصرف دورية العقيد عامر أو الحكي يلي قالته على مسمع الناس كلها... قال المهندس عصام للرجل الذي يحدثه على الطرف الآخر من الهاتف بتصاغر مصطنع.

جنت حركة عصام ثمارها، بث كل دسيسة ممكنة عن العقيد وأهمها أن الرجل بات "رباً" لدى رجاله.

في اليوم التالي استدعي عامر أبو النصر للمساءلة، نجا من المأزق، مع ذلك لم يكن سعيداً، بالتأكيد تراجعت حظوته هناك، نوع العمل الذي يمارسه يشبه الحساب المصرفي، رصيده فيه يبقى قليلاً مهما زاد عليه من إنجازات، الإنجازات تأدية واجب لا أكثر، في حين الأخطاء تحرق الرصيد بلمح البصر، خرج من لقائه مغموماً، لم يشأ أن يذهب إلى المنزل أو المكتب، ليس لديه رغبة في التحدث لأحد، صرف سائقه، هام على وجهه يقود سيارته بنفسه بعيداً عن مركز المدينة وازدحامها.

عندما سمع عبد الله المأمون عن هذه المستجدات أدرك بمعرفته عن آليات العمل في المدينة – دوائر السلطة منها تحديداً – أن العقيد سيتأثر موقعه بهذه الأحداث، لن تمر الأمور بسلام، لم يحزن أن يكون "صديقه" في موقف كهذا، كلما طال الضعف صلاحيات الرجل تصبح فرصته أكبر لإنجاز مشروعه بمعوقات أقل.

29... فتح باب الاكتتاب على المخطط العمراني لمركز المدينة

باشر الشيخ محي الدين المأمون مهمته التي كلفه بها توأمه عبد الله المأمون، زار من يتوجب زيارته، استدعى من يتوجب حضوره إلى مكتبه في مبنى الجمعية، بعد مداولات وتفكير أجراه كلّ من عرض عليه الموضوع قام أربعة من الأسماء الخمسة بتقديم الأوراق وتوقيع عقد البيع وقبض مبلغ مليون ليرة.

- الخامس ليش ما وقع؟!... سأل عبد الله فيما يتصفح الملفات الأربعة الجاهزة بأوراقها وعقودها الموقعة.
- محاميه قله أنه ما في مسؤولية عليه مبدئياً.. بس من الواضح أنه ورا هالقصة في عملية احتيال.. رد محي الدين.

وضع المدير العام عبد الله المأمون نقطة بقلم أحمر إلى جانب الاسم الذي رفض التوقيع، قدم لتوأمه قائمة صغيرة تضم ستة أسماء هذه المرة، طلب منه مجدداً الاستعانة بصندوق الجمعية لدفع الملايين المترتبة على إجراء هذه الدفعة من العقود، أوضح محي الدين أن ميزانية الجمعية لا تحتمل دفع المال لجميع الأسماء الواردة في القائمة، الأهم من ذلك الخوف من أن يتعرض لموقف ينكشف فيه فقدان تلك المبالغ الضخمة من صندوق الجمعية، أبلغه شقيقه أنه سيتصرف في الوقت

المناسب بشأن سدّ المال إلى صندوق الجمعية، من باب الاحتياط وعد عبد الله أخاه بتجهيز أوراق ليعرضها على مجلس إدارة الجمعية، تقدم هذه الأوراق عرضاً لمشروع استثماري واعد في المدينة، طلب من توأمه الضغط على أعضاء مجلس الإدارة للموافقة عليه، انطلق الشيخ محي الدين المأمون في مهمته مجدداً.

تجاوبت الغالبية العظمى من أفراد الأسرة مع العرض المقدم، معظمهم استشار وسأل، كان الجواب دائماً نفسه، مشابه في مضمونه لكلام المحامي الذي استشاره أحد الأقارب في المجموعة الأولى، لم يغب عن بالهم احتمال علاقة عبد الله بما يجري، بالعكس شجعهم وجود الرجل على التوقيع، رجل في منصبه لا بد أن التعاون معه يحمل منافع كثيرة، من تمنع خوفاً لسبب أو لآخر تعهد له الشيخ الجليل محي الدين واضعاً يده على مصحفه الشريف أن ما يقوم به ليس فيه مخالفة لشرع الله، بطريقة ما كان صادقاً، لكثرة تبحره في علوم الدين يسهل على الرجل إيجاد المنافذ دوماً لأكثر الحالات تعقيداً، انتشر الخبر رويداً رويدا بين أفراد الأسرة لكن دون ضجيج يذكر، باتت العملية أسهل، تقدمت بسلاسة أكبر مع كثرة عدد الموقعين، التعجب والأسئلة والاستشارات ولى وقتها.

في كل مرة يجد فيها عبد الله أن القيل والقال تجاوز حداً معيناً بين أفراد القائمة يطلب من شقيقه التريث باتصالاته بضعة أيام، يعاود محي الدين نشاطه بناءً على إشارة من المدير العام، بعض من كان على علاقة بآل المأمون ونسيته القائمة اتصل يعرض خدماته، من طلب مبالغ أكبر من المليون ليرة وتمت مماطلته سابقاً عاود محي الدين الاتصال به لتسوية العملية بمبلغ إضافي معقول، أثناء ذلك كانت

شقيقات ونساء الشيخ محي الدين يسألن عما يجري، بعضهن طالبن بإشراكهن في العملية:

– قضاء الحاجات له أوقات... هذا جواب محي الدين الدائم.

أخيراً جاء دورهن، أوعز عبد الله بإعطاء كل واحدة منهن مبلغ مليوني ليرة لقاء خدماتها.

ميزانية الجمعية المالية قامت بالجزء الأكبر من العملية، أعضاء مجلس الإدارة نالوا حصتهم من المشروع الاستثماري الموعود، سرعة تعاونهم وحماسهم فاجأ الشيخ محي الدين نفسه، طلب عبد الله من شقيقه إطلاق عملية جمع تبرعات بحجة ازدياد عدد العائلات التي تقوم الجمعية على رعايتها، رتب محي الدين لاحتفال ديني منتهزاً اقتراب إحدى المناسبات، كالعادة ستليه مأدبة طعام، فرصة مناسبة لإطلاق الحملة بشكل ينضوي على الزخم المناسب.

قبل ثمان وأربعين ساعة من موعد افتتاح باب الاكتتاب لعموم أهل المدينة على الشراء في مشروع المخطط العمراني الجديد لمركز المدينة استدعى المدير العام لمديرية الاستملاكات العامة إلى مكتبه الأعضاء الثلاثة المؤتمنين والمعتمدين من قبله في اللجنة المكلفة بتلقي طلبات أهل المدينة، طلب منهم الاتصال بعائلاتهم وإبلاغها أنهم كلفوا بمهمة عمل مفاجئة خارج المدينة لمدة ثلاثة أيام تبدأ منذ اللحظة، امتثل أعضاء اللجنة لأوامر مديرهم التي لا تناقش مستغربين، أمرهم بالتخلي عن هواتفهم النقالة، أُرسل الأعضاء الثلاثة برفقة سائقه مهند الداودي إلى أحد شقق "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية" التي خصصت لتنفيذ المهمة، على باب البناء الذي تقع فيه الشقة المستأجرة كان بانتظارهم ثلاث سيارات، رجال الجمعية

قابعون داخلها، بمجرد وصول السائق مهند الداودي برفقة أعضاء اللجنة ترجل بعض رجال الجمعية، رافقوا مهند الداودي وصحبه إلى داخل الشقة فيما ظلّ البقية يحومون حول المكان قريباً من سياراتهم، بعد ساعتين تقريباً التحق بهم المدير العام، وضع أمامهم قرابة الستمائة إضبارة، نحو 20% تخصه شخصياً، 10% تخص "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية"، قريباً من 70% تعود إلى جهات متعددة في المدينة، جهات نافذة وذات خصوصية، النذر اليسير منها يخص بعض أصدقائه السريين في بلدية المدينة، ما تبقى للعقيد عامر يتجاوز 2% بقليل.

الأضابير هي طلبات اكتتاب مكتملة الأوراق تغطي ما نسبته 90% من المساحات الطابقية التي سيتم إنشاؤها في المخطط العمراني الجديد لمركز المدينة.

طلب المدير العام من أعضاء لجنته تدقيق واستكمال المعلومات الناقصة في الطلبات الموضوعة أمامهم، لم يغادر أعضاء اللجنة الشقة خلال يومين يرافقهم عبد الله المأمون، بقي الرجال الأربعة يعملون دون توقف، زودت ثلاجة المطبخ بكمية وافرة من الطعام والعصائر وعبوات المياه المعدنية، لجأ الواحد منهم للنوم كلما تعب لمدة لا تتجاوز الساعة، باستثناء المدير العام الذي لم يرف له جفن فيما يتابع ما يقوم به أعضاء لجنته، مهند الداودي ورجال الجمعية جلسوا داخل الشقة قرب بابها على كراسي تفتقر إلى الراحة ليمنعوا النوم من أن يتسلل إليهم.

وجدت عدة أخطاء في الأضابير، على سبيل المثال نفس الرقم العقاري لموقع ما حجز مرتين في إضبارتين مختلفتين، حلّ المدير العام

الإشكال بمعرفته على عجل، استبدل الموقع المطلوب بموقع آخر مكافئ له في المخطط وبما لا يزعج صاحب الإضبارة، أخطاء بسيطة في التنسيق الذي أشرف عليه بنفسه بين مختلف الجهات تحدث أحياناً.

قبل بزوغ فجر اليوم الثالث انتهت اللجنة من أعمالها، في تمام السادسة صباحاً نُقلت اللجنة إلى مبنى مديرية الاستملاكات العامة بواسطة سيارات الجمعية، حركة السوق في مثل هذا الوقت شبه معدومة، الأضابير حملها ثلاثة من رجال الجمعية، توجه عبد الله إلى منزله يحمل جميع عقود البيع القطعي للأضابير التي تمّ تدقيقها خلال اليومين المنصرمين، رافقه سائقه الشخصي مهند الداودي، كل تلك التحركات بأدق تفاصيلها لم تغب عن مسامع العقيد، ما جرى داخل الشقة المستأجرة استنتجه الرجل بفطنته، اعتماد عبد الله على رجال الجمعية بدل الاعتماد على خاصته من عناصر الشرطة حمل المزيد من الدلالات السلبية على العلاقة فيما بينهما، من جهة أخرى لم يغب عن بال عبد الله أن "صديقه" عامر قد وضعه تحت المراقبة وإلا ما المبرر لطلبه المؤازرة من رجال الجمعية؟

في مبنى مديرية الاستملاكات العامة باشرت اللجنة أعمالها في تمام الساعة السابعة صباحاً، قبل بدأ الدوام الرسمي بقرابة الساعة، أعطت أرقاماً تسلسلية للأضابير، وضعت عليها الأختام الرسمية لتصبح معتمدة من قبل المديرية أصولاً، التوصيات لرجال الجمعية كانت تقضي بالتوقف بعيداً عن المبنيين الحكوميين، لا يريد المدير العام أي مظاهر استفزازية.

وضع عبد الله في خزنة منزله السرية عقود البيع القطعي التي تخصه، مازال اسم الشاري فيها مغفلاً، وضع عقود صديقه في حقيبة

خاصة ليسلمها له بنفسه، بقية العقود وضع كل مجموعة منها في ظرف حسب الجهة التي تعود إليها، أرسل من هاتفه المحمول رسالة نصية مبهمة تقريباً إلى كل جهة من تلك الجهات يطلب إليهم فيها إرسال موفد موثوق لاستلام العقود بعد نهاية الدوام الرسمي لهذا اليوم، بدأ استعداداته ليتوجه إلى عمله الوظيفي.

في نفس الساعة – السابعة صباحاً – بدأ أهل المدينة يتوافدون لحجز دورهم أمام مدخل المراجعين لمديرية الاستملاكات العامة، يتبادلون المعلومات الشحيحة التي يعرفونها عن مشروع مركز المدينة، فتح الباب لهم في الساعة التاسعة صباحاً كما هو معتاد، سمح بدخول خمسة مراجعين في كل دفعة، لم يستغرق دخول وخروج المراجعين وقتاً طويلاً، تلقى كل واحد منهم ورقة مطبوعة تفيد بالأوراق المطلوب جمعها من الجهات العامة في المدينة ليحق للواحد منهم التقدم بطلب الاكتتاب على شراء ما يسمح به القانون من أمتار مربعة في المشروع، بعض المراجعين لم يكلف نفسه عناء الانتظار لدخول مديرية الاستملاكات العامة، اكتفى بتصوير الورقة التي خرج بها من سبقه إلى الدخول أو نقل المعلومات منها، بعضهم فضل طي رغبته بالاكتتاب بعد مشاهدة تلك الورقة، أدركوا أنهم أمام رحلة مضنية بين أبنية حكومية مشتتة في أنحاء المدينة، ساعات طويلة من الانتظار للوصول إلى كوة في جدار بالكاد تتسع إلى دخول وخروج الأوراق منها، موظف يقبع خلف الكوة فاقد الروح استهلكته حياة المدينة.

عند انتهاء الدوام الرسمي لذلك اليوم كانت لجنة قبول طلبات الاكتتاب قد انتهت من تسجيل الأضابير التي تغطي 90% من مساحات المشروع، صدّرت الإيصالات اللازمة الموجهة إلى المصرف

المختص ليتلقى بموجبها الدفعة الأولى المستحقة لقاء إتمام عملية الاكتتاب، سلمت اللجنة تلك الإيصالات إلى المدير العام في مكتبه، طلب من اللجنة مرافقة سائقه إلى الشقة التي قضوا فيها اليومين الأخيرين مجدداً، تمّ ضم الإيصالات المصرفية التي تسلمها من اللجنة إلى عقود البيع بما يتوافق مع اسم المكتتب في العقد، استقبل الموفدين من قبل الجهات التي أرسل لها هذا الصباح رسائله النصية، بالطبع استقبل كلاً منهم على حدة، سلم كل واحد منهم الظرف الذي يخص الجهة التي أرسلته، التحق بالأعضاء الثلاثة للجنته بعد ساعتين تقريباً، تحدث بطريقة ودية ما اعتاد أحد من موظفي مديرية الاستملاكات العامة سماعها، شكرهم خلال حديثه عمّا بذلوه من جهد خلال اليومين الماضيين، شدد على ضرورة الكتمان، لمح إلى أن تسرب أي معلومة عما جرى ستكون له نتائج لا تحمد عقباها، في نهاية حديثه نادى على سائقه مهند الذي ينتظر أمام باب المنزل، دخل الرجل حاملاً ثلاثة أكياس بلاستيكية سود متشابهة وضعها أمام أعضاء اللجنة، نهض المدير العام يريد الانصراف، صافح أعضاء اللجنة الثلاثة منبهاً على ضرورة عدم تغيبهم عن الدوام خلال الفترة المقبلة لأي سبب كان، غادر برفقة سائقه، مهند الداودي قبل أن يلتحق بسيده طلب منهم إغلاق باب الشقة عندما يغادرون، فتح الموظفون الثلاثة أكياسهم، قدروا المبلغ الموجود داخل كل كيس بعشرة ملايين ليرة لكل واحد منهم، مبلغ كاف لشراء منزل معقول في المناطق المتوسطة من المدينة، رغم تعبهم الشديد، عادت إليهم الطاقة مجدداً عند رؤيتهم المال، لم يغادروا المكان قبل أن يحصي كل واحد منهم محتويات كيسه، كانوا محقين، حصل كل واحد منهم على عشرة

ملايين ليرة لقاء قرابة ثلاث ليال من السهر المتواصل.

ورد إشعار على البريد الإلكتروني للشيخ محي الدين المأمون من المصرف الذي يتعامل معه خارج البلاد يفيد بأنه تمّ تحويل مبلغ قدره مليون دولار إلى حسابه، التحويل تمّ بناءً على أمر من السيد عبد الله المأمون.

خرجت بعض الأصوات المعترضة من قائمة عبد الله بعدما أُعلن عن بدأ الاكتتاب على المخطط العمراني الجديد لمركز المدينة، تلك الأصوات أدركت أنها هي وحدها من كانت ضحية لعملية الاحتيال التي قام بها محي الدين وشقيقه، تكفل الشيخ بإسكات تلك الأصوات بالحسنى مطلقاً الوعود الكاذبة، نجح في مساعيه الخيرة مع البعض وفشل مع البعض الآخر، استمرّ هؤلاء في إطلاق اعتراضاتهم، أرسل إليهم عبد الله بضعاً من مئات ألوف الليرات مع محي الدين أسكتتهم، القلة المتبقية من المعترضين المعاندين في موقفهم تركهم المدير العام عبد الله المأمون ينبحون.

اتصل عبد الله "بصديقه" عامر يريد ترتيب لقاء يسلمه خلاله العقود التي تخصه، سرعان ما انتهى حديث المجاملات على الهاتف، سأل العقيد عن عدد العقود التي خُصَّ بها، حاول عبد الله تأجيل الجواب إلى حين اللقاء، أصرّ "صديقه" على معرفة الرقم، الصمت المطبق كان جواب العقيد على الرقم الذي سمعه، حاول "الصديق" عبد الله تبرير سبب عدم تمكنه من منحه عدد العقود التي كان قد اتفق عليها معه منذ سنوات: التغييرات في خارطة سلطات المدينة فرضت وجودها، هو نفسه لم يحصل على الرقم المجزي الذي كان ينوي تخصيص نفسه به، وعود الاسترضاء التي أطلقها عبد الله

"لصديقه" ما كانت لتغير من موقف الأخير شيئاً، زادت في تـــدهور الموقف، العقيد ليس بالرجل الذي يقتات الأوهام، اعتذر الأخير عن قبول ترتيب لقاء دون إبداء أي مبررات، رد فعله كان متوقعاً، رغـــم الخطط البديلة التي أعدها عبد الله مسبقاً لمتابعـــة عملـــه الـــوظيفي ومخططاته دون وجود "صديقه" إلى جانبه لم يستطع أن يتحكم بالقلق الذي ساوره، هناك فارق كبير بين أن يكف العقيد عـــن أن يكـــون "صديقه" وبين أن يتحول إلى "عدوه".

عامر اتخذ قراره، لن يقبل بهذه الحصة المتدنية من العقود، بطريقة أو بأخرى يجب على عبد الله أن يخصصه بما طلـــب وإلا فليـــذهب المخطط العمراني الجديد لمركز المدينة إلى الجحيم.

السيد هيثم الصارم سقط على كرسيه في حالة ذهول عندما علم أنه لن يحصل على متر واحد ذي أهمية في مركز المدينة الجديد وهـــو الذي كان يمتلك بناءً بأكمله بقاياه ما زالـــت موجـــودة، اتصـــل "بصديقه" رئيس البلدية يستطلع الأمر، الأخير أكد عليـــه بضـــرورة إكمال ما بدأاه من دعاوى قضائية وإنذارات، كلام يعرف أنه لـــن يفضي إلى شيء.

السيد هيثم الصارم أحس أن ملكه يغتصب للمرة الرابعة، هـــذه المرة تقع المسؤولية على عاتقه لوحده، القانون لا يحمي المغفلين، اتصل ببعض أولئك الذين أمّن لهم عقود اســـتثمار للـــدكاكين المؤقتـــة في السوق، اجتمع مع من يعرفه منهم حقّ المعرفة، ألقى عليهم محاضـــرة تحضهم على التمسك بدكاكينهم إذا ما أتى مـــن يطلـــب منـــهم تسليمها، أياً يكن من يطلب منهم مغادرة السوق يجب أن يرفضـــوا حتى لو اضطرهم الأمر للدفاع عن حقوقهم ببذل الدم.

30... سفر هزار النجار

ما لم يقبل به ابن هزار البكر حازم المأمون هو حجب خبر مرض أمه عن والده، عبد الله حظي باحترام شديد من قبل جميع أبنائه، الرجل أدار حياتهم بأدق تفاصيلها ليقودهم نحو النجاح المرتقب، تميز بجميع الخصال التي يحبها أي ابن في والده رغم أن الجدار الجليدي الذي عانت منه زوجته هزار عانى منه أبناؤه أيضاً لكن بدرجة أقل.

عبد الله كان يفتقر إلى الحميمية في علاقاته، الرسمية التي يتعامل بها طبيعة يبدو أنها ولدت معه، ما إن يبلغ الطفل سن دخول المدرسة حتى يبدأ الوالد بالتعامل معه على أنه بلغ مبلغ الرجال، هذه طريقته ليصنع من ولده الرجل الذي يريد، ابنته ميس شذت عن القاعدة إلى حد ما، حظيت بسنوات إضافية من الدلال.

- أنا لهلق ما عرفت ليش ما بدك تخبري البابا؟!... قال حازم في اتصال جرى بينه وبين أمه عبر الإنترنت.

أن تشرح هزار لابنها سبب إخفائها مرضها عن زوجها يعني أن تبوح بمكنونات سنوات طويلة اعتادت فيها حبس كل مشاعرها داخل نفسها منذ اليوم الذي توجهت فيه لأمها شاكية وردّها الأخيرة على أعقابها خائبة.

حولت مجرى الحديث لتعرف إن كان حازم قد أجرى اتصالاته مع الأطباء لشرح حالتها، بالطبع المشافي والأطباء في الولايات المتحدة كانت دوماً جاهزة لمن يملك المال لتمنحه الأمل باجتراح المعجزات، عاود حازم السؤال عن سبب إخفائها المعلومة عن والده، استعملت هزار سرّ العلاقة بين الأم وابنها لإقناعه بترك الموضوع طي الكتمان ريثما يستشرفون مستقبل مرضها في الولايات المتحدة، عندها سيخبرون رب الأسرة بالصورة كاملة.

ميس ابنة هزار بكت عندما رأت تلك البقع الباهتة، شجعت والدتها على السفر للعلاج وأبدت استعدادها لمرافقتها.

على باب المنزل قبل أن تنصرف ميس من دار أهلها التفت نحو أمها قائلة:

- سألتِ الدكتور إذا هادا المرض بيعدي أو إذا كان وراثي؟

هرب السؤال من فم ميس دون أن تدري ما يمكن أن تكون نتيجته على أمها التي باتت أكثر حساسية وأضعف تحملاً، أغلقت هزار الباب خلف ابنتها، أخذت تجري نحو غرفة نومها لتنهار على سريرها باكية.

عبد الله لم يستفسر كثيراً عن أسباب طلب زوجته زيارة ولديها مجدداً في الولايات المتحدة، غياب زوجته في هذه الظروف له إيجابيات أكيدة، المرحلة القادمة تحتاج إلى تفرغه الكامل.

أخبرت هزار زوجها أن صبا عرضت عليها مرافقتها في سفرها المرتقب، أبدت عدم رغبتها بهذا العرض إنما هي تنبئه ليتصرف مع "صديقه"، هي تعرف تماماً مدى حرصه على العلاقة.

عبد الله وجد في الحالة فرصة يسبر من خلالها المدى الذي ينوي عامر الذهاب إليه في التوتر الذي شاب العلاقة مؤخراً، طلب من زوجته الاتصال بصديقتها وسؤالها عن مدى جديتها في عرضها السفر معها إلى الولايات المتحدة:

- لأ.. أنا بدي سافر لوحدي... خرجت الكلمات بحدة غير معتادة.

فاجأته لهجة الإجابة، نظر إلى زوجته ملياً دون أن يجيب بشيء، انسحب إلى غرفته مفضلاً الصمت.

هذا آخر ما كانت هزار تحتاج إليه في هذه الفترة، انقباض في العلاقة بينها وبين زوجها، أحست للحظات بالكراهية تجاه زوجها وصديقتها صبا والعالم بأسره.

عامر من ناحيته رفض مقترح زوجته لمرافقة زوجة "صديقه" عبد الله إلى الولايات المتحدة، ترك زوجته تحاول إقناعه فيما هو غارق في أفكاره يحاول أن يجد رابطاً بين سفر هزار والأعمال التي يقوم بها زوجها حالياً:

- ما جاوبتني.. لساتك مو موافق على سفرتي مع هزار...

حسم عامر الأمر بوعده ترتيب رحلة سياحية لها ولأولادها يشارك هو فيها.

لم يرضِ رفضه رحلة الولايات المتحدة صبا، امتثلت المرأة لقرار زوجها، خطر لها أن يكون هناك بعض الجفاء بين الصديقين إذ لاحظت مرور أكثر من ثلاثة أشهر لم يتم خلالها ترتيب لقاء عائلي، اقترحت عليه زيارة منزل عبد الله لتوديع هزار، العقيد رفض متعللاً بانشغاله بأمور هامة تخص العمل، تأكد حدس صبا، هناك ما يسوء،

لم تسأل، تعرف أن زوجها لن يخبرها طالما أنه لم يبح لها بشيء طيلة المدة المنصرمة.

ترتيبات السفر لم تكن لتتجاوز حجز بطاقة طائرة في الدرجة الأولى، حرص عبد الله على تجديد تأشيرة دخول الولايات المتحدة على جوازات سفر أسرته كلما قاربت مدة صلاحيتها على الانتهاء، لم تنم هزار ليلة سفرها، قضت الليل ساهرة تنقل نظرها بين سقف غرفة النوم والساعة الإلكترونية التي تومض كل ثانية مشيرة إلى مرور الوقت، عبد الله كان يغط في نوم عميق.

ودعت هزار زوجها قبل ذهابه إلى العمل، إذ جرت العادة أن يقوم السائق مهند بإيصال أو استقبال المرأة في المطار:

- شايفك مصغرة الشنتاية كتير هالمرة.. قال عبد الله مشيراً إلى حقيبة سفر هزار.
- وبزيادة كلها عشر تيام وراجعة..

كلام عبد الله لزوجته أتى من باب سد فراغ الصمت في اللحظات الأخيرة قبل مغادرته وتجنباً لكلمات مجاملة تدور حول الأشواق ما اعتاد أن يدلي بمثلها.

غادر الرجل إلى عمله فيما توجهت هزار إلى الخزنة الحديدية القابعة في إحدى زوايا غرفة النوم، أخرجت منها كل ما يخصها وهو ليس بالشيء القليل: حليّاً ذهبيةً، سندات تمليك، بطاقات اعتماد بنكية متعددة، وضعت كل ذلك في حقيبة يدها واتصلت بابنتها ميس.

في المطار جلست المرأتان في قاعة التشريفات التي فتحت خصيصاً لزوجة مدير عام مديرية الاستملاكات العامة.

- أنا ما عاد أرجع... قالت هزار لابنتها.

خلال الستين دقيقة المتبقية لإقلاع الطائرة، باحت هزار لابنتها بكل مشاعرها الحبيسة في داخلها، ميس نفسها لم تنجُ من عتب أمها، إنها ابنة أبيها، لم تستطع أن تكون صديقة أمها، الابنة ساقت الأعذار، على رأسها زواجها المبكر، بالنسبة لهزار كل ذلك بات من الماضي حتى قبل أن تقلع طائرتها، عانقت المرأة ابنتها متفهمة، اتفقتا على أن تقوم ميس بزيارتها في الولايات المتحدة كلما سنحت لها الفرصة، طلبت هزار من ابنتها عدم اطلاع زوجها عبد الله على مخططاتها ريثما تقوم بترتيب أمورها مع ابنيها هناك، وعدت أن تقوم هي بإخباره عن قرارها بما لا يجرح مشاعره أو يسيء إليه.

أسدلت هزار الغطاء فوق زجاج نافذة الطائرة بمجرد جلوسها إلى كرسيها وأسدلت معه غطاء على خمسة وأربعين عاماً في مدينة ما عادت تحمل عنها ذكرى طيبة رغم كل ما حصلت عليه منها.

عندما علمت صبا بسفر هزار دون وداعها استاءت كثيراً:

- عالأقل تتصل تودعني.. بعمري ما عاد أحكي معها.. قالت لزوجها العقيد.

31... ترتيبات جديدة

أعلنت مديرية الاستملاكات العامة عن مناقصة لإبرام عقود مع المتعهدين لتنفيذ المخطط العمراني لمركز المدينة، مشروع تبلغ تكلفته مليارات الليرات، غالباً ما سيتم تقاسمه بالتراضي بين أصحاب شركات البناء، تشرف الغرف المظلمة على عملية التوزيع، عبد الله بعد أن تراجعت علاقته بالعقيد سيبقى بعيداً عما يدور في تلك الغرف، ما يعني أن الحصة التي ستؤول إليه من العمولة السوداء لعقود التنفيذ ستكون أقل مما يتوقع.

كل الإجراءات التي قام بها المدير العام حتى الآن من فتح باب الاكتتاب على بيع مساحات المخطط العمراني، إعلان عدة مناقصات لتنفيذ المشروع، مجرد إجراءات ورقية، في هذه المدينة يمكن إلغاؤها بأكملها في اللحظة الأخيرة دون مبررات أو أعذار، لذلك تترك سلطات المدينة مدراءها يتصرفون وفق صلاحياتهم وتحت سقف القوانين، إذا تبين في المستقبل لدى تلك السلطات ما يجعلها تقرر إيقاف المشروع أو إعادة كل إجراءاته فإنها لا تتوانى لحظة واحدة عن القيام بذلك، كل من اكتتب أو تعهد لا يستطيع أن يغير شيئاً في الواقع الجديد المفروض، القوانين جاهزة في أدراج المكاتب لتصد أي محاولة اعتراض، المدير العام عبد الله المأمون يدرك كل ذلك.

بالرغم من هذا قرر الرجل متابعة مشروعه فيما كان يبحث عن منافذ أخرى لغياب العقيد عن تغطية مشروعه بالدعم المطلوب.

رفع الرجل كتاباً إلى سلطات المدينة يطلب فيه الإذن بمباشرة تنفيذ مشروع المخطط العمراني، ما يعني إزالة الدكاكين المؤقتة وهدم بقايا البناء القديم، المباشرة بأعمال الحفر لإرساء الأساسات وهكذا، الإجراءات الورقية انتهت، باتت مديرية الاستملاكات العامة أمام حافة العمل الميداني على أرض الواقع.

في الأحوال المماثلة موافقة قسم الشرطة المختص ضرورية لتمنح سلطات المدينة موافقتها، هو الجهة التي تمتلك بيانات المجتمع، مزاجه العام، ردود أفعاله المحتملة، معرفة الجهات المنتفعة والجهات المتضررة من تنفيذ المشروع، لن يغادر الناس موقع استرزاقهم بسهولة، مَنْ غير الشرطة قادرة على فرض مصالح المدينة عليهم؟ سلطات المدينة ترتأي أن جهاز الشرطة هو الجهة التي تمتلك الإدراك العميق لمصالح المجتمع والمدينة بشكل عام.

أُحيل طلب مدير عام مديرية الاستملاكات العامة إلى قسم الشرطة المختص، قسم شرطة مركز المدينة في هذه الحالة، أدرك عبد الله أن مشروعه دخل عنق الزجاجة، رهانه على العقود التي خصّ الجهات النافذة في المدينة بات على المحك، أجرى اتصالاته بهؤلاء المنتفعين، تلقى وعوداً مبشرة، علق في الحوجلة العلوية للساعة الرملية، مشروعه حبيس تلك الحوجلة، حبات الرمل فيها تدفع بعضها بعضاً تنتظر بفارغ الصبر سحب المانع بين الحوجلتين لتندفع نحو الحوجلة السفلى، أرض الواقع، السوق، مركز المدينة، حبات الرمل متشوقة لتستقر على تلك الأرض أبنية وطرقات وحدائق، عبد الله المأمون

أصبح حبيس انتظار موافقة قسم شرطة مركز المدينة، حبيساً لـــدى "صديقه" العقيد رغم المدى الرحب الذي يعيش فيه.

بعد طول انتظار ووعود لم تثمر عن شيء، لم يجد عبد الله بـــداً من الرضوخ، هو من انقاد منذ البداية إلى تسلط عامر، أساساً لم يكن لديه خيارٌ آخر، لم يشعر بالندم، الرجل بعد سنوات عشر قضاها في منصبه أصبح متأكداً أنه لا غنى عـــن العقيـــد أو أمثالـــه للصـــعود والاستمرار، ما فعله بعبد المولى زوج شقيقته أميمة بناءً على حدســـه في ذلك الوقت، أصبح الآن على يقين منه، لو عاد الزمن به إلى الوراء لفعل فعلته عن كامل وعيه وإدراكه، وإلا كان الأجدر له أن يبقـــى تحت جناح والده يمارس فتات العمل التجاري.

حاول مجدداً الاتصال "بصديقه" لحل هذا الخـــلاف، العقيـــد تجاهل اتصالاته، صادف ذات مرة وصولهما معاً إلى مرأب السيارات المشترك بين قسم الشرطة ومديرية الاستملاكات العامة، أتى العقيد على حركة مفتعلة توضح إعراضه عن "صديقه" متحاشـــياً إلقـــاء السلام عليه، الأخير لمح سائقه مهند الداودي يطرق متلافياً مشاهدة سيده في موقف محرج، أدرك عبد الله أن النزعة العســـكرية لـــدى العقيد قد تغلبت على النزعة الدبلوماسية، لا مجال للشك، إنه إعلان حرب.

في ضوء هذا التباعد الذي وقع بين الرجلين، أدرك عبـــد الله أن مشروعه لن يخرج من عنق الزجاجة، الأسوأ أن يكون هناك ما يُعد له في الخفاء لإزاحته عن منصبه، قلّب المسألة من مختلف وجوههـــا، لم يجد لمأزقه مخرجاً سوى المهندس عصام الناصر رئيس بلدية المدينـــة، طريق اللاعودة إلى عامر، لم يكن يفضل حرق مراكبه علـــى هـــذه

الطريقة، أقدم على طريقه الجديد غير مطمئن، إنه مفترق طرق لا بد منه، أحدهما صاعد والآخر هابط.

في نفس الشقة التي التقى فيها رئيس البلدية بالسيد هيثم الصارم، استقبل عبد الله المأمون بوجه بشوش وابتسامة عريضة، من الطبيعي أن يفهم منها رجل بذكاء المدير العام أنها ابتسامة الانتصار الذي لا جدال فيه.

صرّ العقيد على أسنانه فيما يستمع لمحدثه على الهاتف ينبئه بآخر التطورات.

المهندس عصام أثنى على القرار الصحيح الذي أتخذه عبد الله بضم جهود مديرية الاستملاكات العامة إلى جهود بلدية المدينة لإنجاز مشروع المخطط العمراني، المدير العام تمسك بتحفظه، أراد رسم الخطوط العريضة للعلاقة مع بلدية المدينة، الرجل لم يتخل عن "صديقه" العقيد إلا لقناعته بأن الأوان قد حان ليتخلص من التسلط الذي كان يفرضه ذلك "الصديق" على مشاريع مديريته، بالتالي لن يقبل تسلط رئيس بلدية المدينة، كيف يقبله وهما ندان يتساويان في القيمة والأهمية لدى سلطات المدينة، أراد حلفاً متكافئاً يحقق مصالح الطرفين:

- أنا شو رح استفيد إذا دعمت مشروعك؟!.. أنته بعت المشروع قبل ما تعلن عنه... قال المهندس عصام دون مواربة.
- حصة من تعهدات التنفيذ... رد عبد الله.

المهندس عصام يعرف مأزق الرجل القابع أمامه، يعرف ماله وما عليه، حتى الورقة الأخيرة التي يحتفظ بها المدير العام، ورقة "جمعية المرحوم العلامة محي الدين المأمون الخيرية" يعرف عنها الكثير، أو على

الأقل هذا ما يعتقده، رئيس البلدية لم يكن مصيباً تماماً، الرجل ما زال لديه أوراق للمناورة، قليلة لكنها موجودة.

قدم رئيس البلدية عرضاً واضحاً للمدير العام: لقاء استخدام كل ثقله لدى سلطات المدينة لإخراج مشروع المخطط العمراني من ظلمات قسم الشرطة إلى نور الواقع، يحصل المهندس عصام على نصف عقود الاكتتاب التي احتفظ بها عبد الله لنفسه، عقود مناقصات تنفيذ المشروع يشرف عليها المهندس عصام بمفرده، بمعنى حجب كل العمولات السود لتلك العقود عن المدير العام، يدعم رئيس البلدية احتفاظ عبد الله المأمون بمنصبه كمدير عام لمديرية الاستملاكات العامة.

لم يكتف الرجل بوضع شروط مجحفة بحق المدير العام القابع قبالته، إنما وضع نفسه في مكانة تعلو مكانة الأخير، إجراءات عقابية هي الوصف الأمثل لهذا العرض.

استعان عبد الله بكل سعة الصدر التي يمتلكها، طلب مهلة للتفكير، غادر الشقة، جلس عصام يتلذذ بارتشاف الويسكي، لن يكون خاسراً مجدداً بعدما انفرط عقد "الجوز".

في مكتب الشيخ محي الدين المأمون داخل مبنى الجمعية، جلس عبد الله يغلي غيظاً، لن يقبل بحال من الأحوال انحدار أيامه، أحس بالحقد على "صديقه" العقيد، المهندس عصام الناصر، كل السلطات والجهات النافذة، جميع ما كان يحيط به في هذه المطحنة التي تسمى مدينة، محي الدين حاول مواساته:

- إذا أنته بكل العز يلي عايشه عم تحكي هيك.. شو تركت حكي للناس يلي بدك تقلعهن من السوق؟!

كلام الشيخ نزل على سمعه كالرصاص المصهور، خـــرج عـــن طوره صائحاً:

– ليش من أيمتى كنا ناخد الحثالة بعين الاعتبار؟

أدرك محي الدين مدى غضب شقيقه، اقتـــرح عليـــه التحـــرك لمساعدته، إلقاء حجر في مستنقع المدينة الآسن لا بد أن يحمل بعـــض المنفعة.

عاد عبد الله إلى منزله، للمرة الأولى أحس بالفراغ الذي خلفـــه غياب زوجته هزار، نظر إلى ساعته، قرر على غير العادة إجراء اتصال عبر الإنترنت بأسرته في الولايات المتحدة، اتصل بهاتف زوجته هزار المحمول، لم يأتيه رد رغم ظهورها كمتصلة بالشبكة، افتـــرض أنهـــا خارج المنزل غير قادرة على الرد، شعر بعدم الرغبة في النوم، يعـــرف أن منزله لا يحوي حبوباً منومة، لم يسبق له أن استعان بهـــا، وردت رسالة على هاتفه المحمول، أنهى تحضير نفسه للنوم، فـــتح الرســـالة الواردة، المرسلة هزار، محتوى الرسالة مقتضـــب: زوجتـــه تطلـــب الطلاق.

32... ليالي القلق

العاشرة صباحاً، حركة السوق ما زالت في تصاعد، خرجت سجية من دكان أبي داغر متسربلة بالسواد لتبدأ جولة التسول المعتادة، اقترب منها أحد أعضاء الجمعية، بحركة خاطفة نزع عنها حجابها صارخاً:

- هادا الحجاب شرف ما بتستاهليله يا كافرة
- الله يكسر إيديك يا ابن الحرام.. ردت سجية على المعتدي عليها.

زيرو لمح جماعة الملتحين، يتصنعون متابعة أعمالهم، في حقيقة الأمر كانوا يتابعون ما يجري متحفزين، جرى بخفة باتجاه الحمام العمومي حيث كان أبو داغر يقضي حاجته.

خلع الرجل حذاءه، بدأ ينهال بالضرب على سجية، خرج غازي من خيمته وفي عيونه بقايا نوم، شاهد سجية تتحاشى ضربات الرجل مطلقة شتائمها فيما الرجل ينعتها بالكفر ويطلق عليها اللعنات، غازي عاود الدخول إلى دكانه، التقط عصاه المعلقة، خرج ليدافع عن سجية، فوجئ بعدة رجال من الملتحين ينتظرونه بعصيهم، لم يتراجع، هاجمهم بضراوة، دخل المعركة إلى جانب غازي بعض الشبان ممن مضى على وجودهم في السوق زمن طويل ويدينون

ببعض الخدمات لأبـــي داغر، وردة في فنـــدق الرحـــاب الخـــاص استيقظت على أصوات المتشاجرين، أطلت من نافذة غرفتها شاهدت الدماء تضرج الوجوه، سارعت إلى إيقاظ كسار ومن ثم الفتيات، لم يتأخر وصول أبـــي داغر، دخل المعركة مستخدماً سكينه، أبو الخير وابنه خير الدين حاولا فصل الفريقين، تلقيا نصيبهما مـــن الضـــرب خاصة من "جماعة أبو دقن"، كسار لم يتوان عن توجيـــه ضـــربات ذراعه الصاعقة إلى وجوه الملتحين، أبو الوفا ظلّ يتأمل الفراغ كـــأن كل الجنون الذي يحدث أمام ناظريه غير موجود، أصحاب الدكاكين من رجال العقيد عامر ورجال رئيس البلدية وقفوا متفرجين، البعض منهم يتحدث على هاتفه المحمول، انتهت المعركة من تلقاء نفســـها، ساعدت كل مجموعة جرحاها على تضـــميد جـــراحهم، بعـــض الإصابات كان لا بد من التوجه بها إلى المستشفيات، جماعة الملتحين توجهوا بجرحاهم إلى مستوصف الجمعية، عاد الجميع إلى أعمالهم في جو مشحون بنظرات الوعيد والتحدي.

الأستاذ عبد الغني الشاعر وقف بعيداً يتفرج، تلقى الدرس جيداً في المرة السابقة، بعد أن انفض المتشاجرون، عاد إلى دكانه، جلـــس على كرسيه الواطئ، فتح كتابه على ساقيه، أخذ يقرأ بصوت يزداد ارتفاعاً فيما ينوس بجسده إلى الأمام والخلف، توقف أمام الطاولـــة التي عرض عليها الكتب والأدوات القرطاسية امرأة تـــود الشـــراء، الأستاذ لم يلتفت إليها تابع قراءته بصوت أعلـــى، تابعـــت المـــرأة طريقها، لم يعد مستغرباً كثيراً أن تشاهد في المدينة علامات أمراض كالفصام، أخذ الناس يتعاملون معها بحيادية مطلقة، يتنبـــؤون بـــأن الآتي أدهى وأعظم.

ثابر العقيد على لقاء أعوانه في الشقة المتطرفة عن المدينة، تناقل الكثيرون في قسم الشرطة الأقاويل عن تخاذله، تراجعه، سحب الثقة منه، هيبة صمته التي يتمتع بها جعلت كل تلك الأحاديث تدور همساً خلف الأبواب المغلقة في قسم شرطة مركز المدينة، أصبح الرجل في مرحلة يحتاج فيها لدراسة خطواته جيداً، لن يسمح بأن يُحسب أحد عليه مجدداً، مرحلة العمل على طريقة أبي غسان ولّت إلى غير رجعة.

رئيس بلدية المدينة، فهم رسالة استعراض القوة التي أرسلها عبد الله المأمون من شجار السوق المفتعل، قرر الانتظار، لا شيء لديه يخسره بعكس غريمه، يعلم أن الزمن لا يجري لصالحه، ما حدث في السوق اليوم إن هو إلا ضربة يائس لا أكثر.

عبد الله خطّ على ورقة أمامه بضع نقاط حول ما حدث في السوق، اتصل هاتفياً بالسلطات العليا، طُلب منه الانتظار في مكتبه ريثما تتم معاودة الاتصال به، جلس ينتظر، يتصاعد قلقه مع مرور الوقت، تدور به الظنون، انتهى وقت الدوام الرسمي، انصرف الموظفون، أرخى الليل سدوله، تلاشت حركة السوق تقريباً، مازال يجلس في مكتبه قرب جهاز الهاتف لا يجرؤ على مبارحة مكانه، لم يتجرأ على معاودة الاتصال، كاد يفقد الأمل، المدير العام قرر الانتظار لو اضطره الأمر إلى البقاء في مكتبه عدة أيام متواصلة، أخيراً رن جرس الهاتف، لم يدعه يكمل الرنة الأولى، تلقى تعليمات باختصار الحديث ومن ثم أمراً بالانتظار، انتظر قرابة النصف ساعة فيما يضغط سماعة الهاتف إلى أذنه بشدة، سمع أخيراً الصوت يرحب به بود، تبسط ذلك الصوت معه في الحديث، طلب منه أخيراً معرفة سبب اتصاله.

شرح المدير العام بإيجاز أن السوق بوضعه الحالي سيبقى مرتعاً للتوتر والاضطرابات، تنفيذ المخطط العمراني هو الحل المناسب للكثير من مشاكل المدينة، حاول أن يوضح ما يرمي إليه، أتاه الصوت يعلمه بتفهم وجهة نظره، طلب منه متابعة إجراءاته التي يقوم بها وانتظار تحديد الموعد لمباشرة العمل، كاد عبد الله أن يقفز من فرحه، بددت تلك المكالمة الهاتفية كل غمّه، بما فيه رسالة زوجته ليلة البارحة التي تطلب فيها الطلاق.

نُشر الإنذار الثاني والأخير الموجه إلى أهل السوق يمنحهم مدة أسبوع للإخلاء، يشمل ذلك الدكاكين المؤقتة وشاغلي بقايا البناء القديم، المفاجأة الكبرى كانت أن الإنذار هذه المرة كان صادراً عن مديرية الاستملاكات العام وليس من السيد هيثم الصارم وأتباعه، صحف المدينة نشرت نسخة منه، ألصقت عدة نسخ على جدران بقايا البناء القديم، عُلق في لوحة إعلانات مديرية الاستملاكات العامة الموجودة قرب مدخل المديرية.

تجمهر الناس حول المُحضر الذي كان يقوم بلصق الإعلان:

- وين منروح يعني؟!
- يروحوا يخروها مالنا طالعين.
- العمى ما في بقلبهن رحمة.
- سمعنا من هالحكي كتير.
- يا عيب الشوم عليهن..
- تفووو...

بالكاد تمكن المُحضر من الانسحاب من بين جموع الناس سالماً، التعليقات أخذت تزداد حدة، توتر المتجمهرين بدأ بالتصاعد.

استغرب الناس أن يشاهدوا أبا نافذ يجمع أوراقه في صناديق كرتونية عندما ذهبوا إليه ليطلعهم على مدى جدية الإنذار:

- شوفة عينكن عم ضب غراضي.. قال أبو نافذ.
- لوين بدك تروح؟؟!!.. قال أبو الخير.
- على بيتي..
- يعني رح تسلم؟!!...
- لأ.. بس إذا صار وبدهن يستلموا المكتب غصب عني.. بكون جاهز..
- شلون يعني غصب عنك؟!...

أشار أبو نافذ إلى قسم شرطة مركز المدينة بإصبعه وانصرف ينهي ما بدأه.

أبو الخير توجه إلى دكان عبد المولى، ساق إليه توسلات مشفوعة بأغلظ الأيمان ليجيبه إن كان يعرف شيئاً عمّا يحصل، الأخير رغم التطمينات التي تلقاها من نسيبه عبد الله كان خائفاً، حار فيما يجيب الرجل الذي ينظر إليه بعينين مترقبتين.

- لاقيلك غير مطرح تسترزق منه... قال عبد المولى.

أطرق أبو الخير فيما شعر أن الدنيا تدور به على غير هدى، تابع عبد المولى:

- ما بخبي عنك.. أنا بإذن الله عندي بديل بس صدقني خايف متلك وأكتر...
- ليش؟!.. تساءل أبو الخير مستغرباً.
- طول عمره التغيير بيخوف.

قرر أبو الخير وابنه الأبكم إغلاق مطعمهما من الثانية عشرة ليلاً إلى ما بعد صلاة الصبح، ليس من كساد الأعمال فقط إنما اتقاءً للشرور التي باتت عنوان الحياة في السوق، توجه إلى مكتب الثقة العقاري يسأل أبا نافذ أن يقترح عليه مكاناً بديلاً يعمل فيه، ربما يستطيع الرجل بحكم عمله ومعارفه أن يوفر له مطعماً صغيراً يستأجره، وعده أبو نافذ ببذل جهده، تنهد أبو الخير متأسفاً للحال التي آلت إليها الأمور:

- إذا ما منرجع لربنا ودينا لسه بده يصير فينا أكتر من هيك.. قال أبو الخير.
- رجاع مين ماسكك؟!.. شرط كلياتنا نركب نفس القطار؟!.. رد أبو داغر الذي كان يجلس في مكتب الثقة يعد ويتوعد إذا ما كرر جماعة الملتحين تحرشهم به أو بما يخصه.

انضم أبو نافذ إلى أبي الخير في صلواته التي ضاعف الأخير من عدد ركعاتها علّ الله يجد له مخرجاً بعد أن امتنع عمّا كان يفعله مع موظفات مكتبه.

أبو نافذ كان يحمل القلق الأكبر على أعماله، أن يتم تنظيم المنطقة فعلاً وأن تصبح علاقة المواطن مع قسم الشرطة ومديرية الاستملاكات العامة تجري عبر شبكة الإنترنت كما تتحدث وسائل الإعلام فهذا يعني القضاء على أعماله المزدهرة:

- إنترنت شو؟!.. نص الناس يا دوب تعرف تقرا.. من كل عقلك صدقت حكي التلفزيون؟!... قال أحد رؤساء لجان التخمين من مديرية الاستملاكات العامة لأبي نافذ عندما

التقى به في سيارة الأخير ليقبض منه عمولة العملية الأخيرة التي قاما بها سوية.

- على حد علمك.. شو رأي الأستاذ عبد الله بيلي عم يصير؟.. قال أبو نافذ

شرح رئيس لجنة التخمين لأبي نافذ أن المدير العام رجل متريث قلما يعلن عن مواقفه، إن أعلن عنها فهي غالباً ما تكون غير قطعية، تحتمل أكثر من تأويل، وأنه من النوع الذي يراهن على الزمن، يؤجل معاركه قدر الإمكان وإن اضطر لخوضها سعى لأن يجد من يخوضها عنه بالوكالة، كل ما تفوه به رئيس لجنة التخمين لم يحمل في طياته الإجابة الشافية على سؤال أبي نافذ، على العكس زاد من قلقه وحيرته بدل أن يروي ظمأه لمعرفة الآتي.

أبو نافذ ضاعف نشاطه، بات يتحرك كالمكوك - مع استثناء أنه يتحرك بكل الاتجاهات - يجمع الأخبار، التوقعات، الآراء، الشائعات، كل ما يمكن أن يشكل له صورة أوضح عن قادم الأيام، ما أصبح يؤرقه أنه كلما سمع أكثر كلما أصبحت الصورة أمامه ضبابية أكثر، توصل إلى قناعة أن كل ما يجري لا يتعدى وجود مستثمرين جدد قادمين ليشغلوا دكاكين العبارة وأرض السوق وأن المخطط العمراني الحديث الذي سمع عنه من قبل أن يشغل دكانه في العبارة لن ينفذ على الإطلاق، أساساً لا وجود له، ما هو إلا مجسم موضوع ضمن صندوق زجاجي في بهو مديرية الاستملاكات العامة.

أبو الريح واظب على النوم في سريره قريباً من الشق المفضل لديه، لم يصدق أنه سيأتي يوم ويفارق شقه هذا، لن يكون للنوم على أي سرير آخر لذة كالتي يعيشها الآن.

الأكثر ذهولاً من نشر الإنذار كان رئيس بلدية المدينة، فهم معنى أن توجه مديرية الاستملاكات العامة هذا الإنذار، لم يصدق أن ينتصر عبد الله المأمون بهذه البساطة، تلقى تأكيدات بأن أيام الأخير في المنصب باتت معدودة، كاد أن يتصل بالعقيد عامر ليرتب لقاءً معه، تراجع في اللحظة الأخيرة، هل يعقل أن يضع نفسه أمام عدوه في الموقف نفسه الذي كان عبد الله يقبع فيه أمامه عندما التقاه منذ بضعة أسابيع، استدعى مدير مكتبه ليلقنه تعليمات جديدة ينقلها إلى رجاله من مستثمري الدكاكين المؤقتة في السوق.

السيد هيثم الصارم أدرك أن الإنذار ما هو إلا محاولة من مديرية الاستملاكات العامة لتفويت الفرصة عليه مجدداً، اتصل "بصديقه" رئيس البلدية، الأخير لم يرد، كرر اتصالاته في أوقات متفاوتة والنتيجة واحدة، فهم الرجل أن الصداقة الطارئة قد ماتت في مهدها.

العقيد عامر تأمل إنذار مديرية الاستملاكات العامة الموضوع على مكتبه، لم يبتئس كثيراً، سيجعل من الإنذار ذريعة قوية لأن يمسك بخيوط اللعبة مجدداً وبصرامة أكثر مما كان يفعل في السابق، لن يعدم الوسائل الخاصة ليفعل ذلك.

طلب زوجته في المنزل عبر الهاتف، تحدث إليها بروية مستفسراً عن مسائل غير ذات أهمية، في نهاية المكالمة طلب منها بإيجاز ووضوح أن تحدّ من تحركاتها خارج المنزل، نهاها عن الخروج ليلاً، شدد عليها أن لا تتحرك بمفردها، يتوجب عليها دوماً اصطحاب اثنين على الأقل من عناصر الحماية، بعدها اتصل العقيد بالمسؤول عن المفرزة المخصصة لمنزله، أمره باستدعاء كل عناصرها ووضعهم في حالة

استنفار، طلب منه أن ينشر العناصر حول مسكنه، أخيراً شدد عليه أن يحرص على تأمين تحركات زوجته صبا وولديها.

صبا ساورها مزيد من القلق بعد انقضاء مدة لابأس بها شاهدت خلالها زوجها بحال من التوتر لم تعهده فيه على الإطلاق، قررت أن تضع والدها في صورة ما يجري علّه يتقصى لها عن بعض المعلومات حول وضع عامر من خلال معارفه، المرأة تعرف أن بوحها لوالدها سيزعج زوجها لكن قلقها عليه كان أكبر من حرصها المعتاد على مشاعره.

أخذ صمت الليل في السوق يصبح ثقيلاً، شيء مبهم يربض على الصدور يمنعها من التنفس، لم يكن أحد يعلم منبع الإحساس بهذا الثقل، هل هو نابع من نفوس الناس أم أنه حقيقة باتت إحدى صفات الليل هنا، المؤكد أن أهل السوق قد تغيروا، الأحاديث تدور همساً، لم تعد تسمع صيحات أو قهقهة تصدر من زاوية ما، يمزق صمت الليل أصوات أعيرة نارية باتت تُسمع كل ليلة مرات عدة، بعضها من القرب بحيث يعتقد سامعها أن أحداً من أهل السوق هو من يطلقها، قلما تشاهد سيارات تعبر الشارع الرئيسي المحاذي للسوق وإن عبرت بالكاد تشاهدها بسبب السرعة العالية التي تنطلق بها.

الإنذارات التي وزعت على الناس، غياب عناصر شرطة القسم عن السوق مجدداً، ألقت بظلالها على أهل السوق، الشجارات التي كانت تحدث على إثر بعض الخلافات في الرأي، أخذت تحدث لأسباب أقل أهمية بكثير: تجاوز أحد المستثمرين ببضائعه بضعة سنتيمترات على دكان جاره، نظرة غير مقصودة فهمت بطريق الخطأ

على أنها تحدٍ أو ازدراء، تعليق قيل عن طيب نية، كثيرة هي الأسباب التي كانت تؤدي إلى شجارات وصلت حد الدم، كلما زاد عدد أسباب الشجارات قلت أهميتها حتى انحدرت عن حد التفاهة، الاحتقان والنفوس المشحونة بالتوتر والقلق بات واضحاً بمجرد أن تقوم بجولة صغيرة في السوق.

في فندق الرحاب الخاص، أبدت الفتيات خوفهن من أن يهاجم جماعة الملتحين الفندق ليفعلوا بهنّ كما فعلوا بسجية، أبو السرور لسبب لا يعلمه هو نفسه، راوده يقين أن أولئك الرجال لن يقربوا فندقه، رغم ذلك اتخذ احتياطاته، اتصل بعامل حدادة، الأخير دعّم باب الفندق ليصبح أكثر متانة، كذلك اتصل بمن يزوده بمسدس مع الذخيرة اللازمة، لام كسار بشدة على تدخله في الشجار الذي حدث حول سجية، لا يريد إثارة غضب الملتحين، كسار لم يعبأ باستياء معلمه، لم يعد للأخير سطوته السابقة على حارس فندق الرحاب الخاص، الرجل لا يقدم له سوى المأوى، الإكراميات باتت شحيحة أكثر من شح أعمال الفندق، بقاء كسار ملتزماً بعمله كحارس للفندق وعاهراته حتى الآن قائم على الود الذي يحمله للفتيات، يشفق عليهن، يخشى من تطاول الملتحين عليهن.

اكتشف أبو السرور وفتياته الثلاث الطريقة المثلى لتسجية الوقت في لعب الورق بعد أن تراجع عدد زوار الفندق إلى أقل من النصف، الأهم وردة، الفتاة تحمل شخصية طريفة، أخذت تروي طرائف زبائنها بطريقة تمثيلية جعلت دموع أبي السرور وبدور وغنوة تفيض من شدة الضحك، روت لهم حكايات المنزل الذي نشأت فيه، استراق النظر والسمع على مجريات لياليه الحمراء، قلدت أمها وزوج

أمها بتفاصيل شيطانية لا تخطر على بال أحد، كانت الفتاة بحق نجمة ليالي الكساد.

على صعيد العمل بدأ أبو السرور يخطط للارتقاء بأعماله، غياب أبي غسان حرره من قيوده، أخذ يجري اتصالاته ليؤمن بديلاً عن فندقه، هدفه شقة فاخرة في أحد الأحياء الراقية، فتيات صغيرات متعلمات، إذا ابتسم له الحظ فسيستوردهن من خارج البلاد، شقراوات ممشوقات القوام، يتقن اللغات، المساج، الرقص وفنون الإمتاع بما يختلف عن ساقين منفرجتين تنتظران وصول الزبون إلى نشوته ومن ثم انسحابه، أدرك أن أحلامه الكبيرة بحاجة إلى غطاء شخص مهم بمواصفات أكبر بكثير من تلك التي كان يتمتع بها أبو غسان.

انضمت سجية على غير العادة إلى جلسة أبي داغر وغازي وأبي الوفا وكسار أمام باب الدكان:

- صح النوم.. هلق جايه عم تدور على دكانه تشتغل فيها؟.. مالك سمعان شو صاير؟!.. قال أبو داغر لكسار.
- سمعان لكن مو سمعان.. بس إذا بدي جوع لخلي هالسوق يعرف مين كسار.. رد عليه كسار.

غازي هو الوحيد الذي لم يشتكِ فقد كان في عبواته البلاستيكية مضاداً للقلق أقبل الكثير من أهل السوق ليشتريه:

- متل صرمايتي.. يسكروا السوق.. إلا ما لاقيلي مطرح حط خيمة فيه وبيع الناس السم الهاري.. قال غازي.

من حضر الجلسة مثل أبي داغر وسجية لم يكونوا من النوعية التي يقلقها الغد، دون تفكير، بغريزتهم يدركون أن في المدينة متسعاً

لهم، لم تكن أرض السوق بحد ذاتها تعني شيئاً مهماً، المكان لم يمنحهم شيئاً، القليل مما يحصلون عليه سيجدونه في أي بقعة من أسواق المدينة شريطة أن تكون هذه البقعة موطن فقر وفوضى، ما أكثر الفقر في المدينة وما أوسع المساحات التي تحتاحها الفوضى، تجد الفقر مستتراً خلف أوهام الكرامة، ترسم آلة الإعلام صوراً مبهرجة فوق جدرانه السود العالية التي تحيط بحياة أبنائه.

أبو داغر يعرف أن الوجوه والأسماء قد تتبدل، لكن دوماً سيكون هناك غازي وكسار وأبو السرور وأبو الوفا وأبو الخير والآخرون ومما لا شك فيه أنه سيكون هناك "**ملك**".

- وأنته أبو الوفا شو ناوي تعمل؟.. قال أبو داغر.
- ناوي فوت آخد حبه ونام.. رد أبو الوفا.

دخلت سجية دكان أبي داغر، جلس زيرو على الأرض يستمع إلى الأغاني الحزينة التي يبثها جواله استند بظهره إلى سريره:

- انشالله ما بيقبى حجر فوق حجر... قال زيرو إذ يبدو أنه كان يستمع إلى الحديث الدائر قرب الدكان.
- وين بدك تروح؟... سألت سجية.

أبدى زيرو رد فعلٍ لامبالياً، لم يبلغ الشاب العشرين من العمر بعد، تجرع من ذل السوق ما يكفي حياة بأكملها، انتُهك يوماً إثر يوم مذ دفع به والده ليعمل منقباً بين النفايات إلى أن جعل منه أبو داغر مطية لشواذ المدينة، يستغرب أن هناك من يحب السوق وأهله، كان يحسد من يراه قد تآلف مع أيامه وعمله في هذا المكان، كثيرون مثله لم يعرفوا عالماً آخر سوى هذه البقعة من المدينة، للأسف السوق كانت آخر مكان في المدينة يبالي لمن أحبه أو كرهه.

33... البداية

كان أبو داغر لا يزال ساهراً برفقة كسار عندما لمح ناراً تشتعل في أحد أطراف السوق، استغرق بضع لحظات ليستنتج أن تلك النار صادرة عن حريق في أحد الدكاكين، هبّ واقفاً:

- كسار، حريقة.

جرى الرجلان باتجاه الدكان الذي بدأت ناره تتأجج بسرعة بسبب المواد التي صنعت منها الدكاكين المؤقتة، ما كادا يصلا إلى الدكان حتى لمحا ناراً تشتعل في طرف آخر من السوق، حاولا إطفاء النار الأولى، جرى آخرون نحو موقع النار الثانية، بدأ اللهيب ينتشر، لم تمض ثوانٍ حتى شاهدا بقعة أخرى بدأت النار فيها بالاشتعال، أخذ يعلو الصراخ والهرج لإيقاظ النائمين داخل دكاكينهم، أحدهم صار يقفز في كل الاتجاهات صارخاً:

- مين بيعرف رقم المطافي.. مين بيعرف رقم المطافي؟؟...

أخيراً أسعفه رجل بالرقم الثلاثي، اتصل الرجل برقم الطوارئ مبلغاً عن الحريق.

بضع عشرات من جماعة الملتحين كانوا متواجدين في السوق حاولوا إخماد نار دكاكينهم، أخذوا يصرخون كالممسوسين:

- الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر...

النار التي اشتعلت في أربعة أو خمسة مواقع متباعدة في الوقت نفسه تقريباً أخذت تمدّ أذرعها لتتصل فيما بينها، حملت الريح قطع القماش المشتعلة إلى الدكاكين التي ما زالت بمنأى عن النار، هرب بعض المتواجدين في السوق باتجاه الشارع العام، وقفوا على الرصيف المحاذي للسوق يلتقطون أنفاسهم ويتفرجون، منهم من عاود الاتصال برقم الطوارئ، آخرون حاولوا إطفاء النيران، خرج عناصر الشرطة من مبنى القسم، بعضهم توجه نحو المرأب لإخراج سيارات الشرطة منه قبل تطالها النار، منهم من تحمس للمساعدة في إطفاء النار، أخرون قدموا العون لمن طالتهم النار، البعض عاود دخول القسم ليجري اتصالاته.

دخلت سجية دكان أبي الوفا، حاولت إيقاظه، هزته بكل ما أوتيت من قوة، الرجل كان غارقاً في غيبوبته، صرخت مستنجدة.

لم يستغرق احتراق دكان غازي أكثر من بضع دقائق، حاول الرجل إنقاذ زجاجات الويسكي "بلاك ليبل" لاعتقاده بأنه لا بد أن من يأتي يطلبها منه بدلاً من أبي غسان، عندما وجد جدار النار أمنع من أن يسمح له بالتقاطها، تخلى عنها، تبين صوت سجية تصرخ، في دكان أبي الوفا كانت المرأة تحاول سحب أبا الوفا من ذراعه، سقط من فراشه إلى الأرض كالحطام، دخل غازي:

- روحي هربي أنا بطالعه... صرخ غازي.

سجية تراجعت بضع خطوات فيما تلطم وجهها مستنجدة، اتسعت رقعة الحريق بسرعة جنونية. أذرع اللهيب احتضنت بعضها بعضاً معانقة، حاصرت أولئك الذين يحاولون إخمادها، سقط سقف الدكان المشتعل على أبي الوفا وغازي، غازي تخلى عن أبي

الوفا، بدأ الأخير ينتفض في مكانه فيما هو ما زال مسجى على الأرض، غازي دحرج نفسه على الأرض لإطفاء ثيابه المشتعلة، دفع أحد الهاربين سجية لإزاحتها عن طريقه، تعثرت بأسمالها ووقعت، أبو الوفا أخذ يصدر همهمات مكتومة قبل أن يهمد جسده تماماً، أخيراً تبين أن لحبوبه التي يبتلعها فائدة تذكر، غالباً مات الرجل دون ألم، غازي سحب سجية من يدها وأخذ يجري بها عبثاً للخروج من دائرة النار، يهربان من كتلة ملتهبة لترتفع في وجههما أخرى، بالكاد وصلا إلى الشارع العام والنار مشتعلة في ثيابهما، تمكن بعض المتفرجين من مساعدتهما على إطفاء نارهما قبل أن تأتي عليهما.

تراجع المتفرجون إلى الرصيف المقابل للسوق، سياط اللهب طردتهم بعيداً عنها.

بدأت دكاكين العبارة تشتعل من الداخل رغم أن أبوابها مغلقة و لم تصل نار الدكاكين المؤقتة إليها بعد!! زيرو فطن إلى أنه تبادل ابتسامة مسروقة مع خير الدين فيما هو يتوجه إلى مطعم والده، جرى إليه كالمجنون يقفز بين كتل النار، عندما وصل إلى المطعم كان خير الدين محاصراً يصرخ بأصواته المبهمة فيما يحاول عبور لهيب النار المرتفع، أخذ زيرو يصرخ مستنجداً بصوت يصم الآذان:

- ساعدونا.. يا ناس.. يا عالم... مشان الله الحقوني.

ارتفعت حرارة المكان بأكمله، بدأت النار تطال جسد خير الدين وهو يتراجع ليتجنبها، تراجع زيرو عنه، أحضر قطعة حديد طويلة، حاول إبعاد الكتل الملتهبة بها ليفسح طريقاً يمكّن خير الدين من الخروج، طالت النار ثياب الأخير وبدأ جسده يشتعل، شاهد زيرو النار تقترب من جرات الغاز داخل المطعم، هوى خير الدين

متلوياً فيما سياط نار مجنونة سارعت للالتفاف حول جسده، توقف زيرو عن محاولة إنقاذ خير الدين، أخذ يبكي ويصرخ:

- سامحني.. سامحني.. سامحني.

أصوات خير الدين داخل كتلة اللهيب تحولت إلى عويل، صمت العويل تماماً، هرب زيرو من العبارة إلى جهة البناء الحكومي، ما عاد بالإمكان الوصول إلى الشارع، دخل قسم الشرطة يحتمي داخله، انزوى داخل البهو، جلس على الأرض يضرب صدغيه بقبضتي يديه، دموعه تنهمر دون توقف:

- سامحني... سامحني...

وصل كسار بشق الأنفس إلى الدرج المعدني الصاعد إلى فندق الرحاب الخاص، الدرج توهج باللون الأحمر لم يتمكن من لمسه، أخذ يصرخ بأعلى صوته:

- هربوا... هربوا.

التصقت بظهر كسار قطعة قماش مشتعلة كانت الريح تتلاعب بها، أخذ يجري محاولاً إبعاد القطعة عنه بيديه، هوت على رأسه عارضة معدنية من حوامل الدكاكين، سقط أرضاً مغشياً عليه للحظات قبل أن تهوي فوقه كتلة ملتهبة، النار أيقظته من غيبوبته، وقف من جديد وأخذ يجري فيما النار مشتعلة بجسده حتى سقط يتلوى فوق كتلة ملتهبة أخرى زادت في اشتعاله اشتعالاً.

أبو السرور حشر في ثيابه رزم النقود التي يحتفظ بها مخبأة في غرفته، أشبع بطانية صوفية بالماء، لف رأسه وجسده بها، خرج من غرفته، في الممر كانت الفتيات يصرخن مستجيرات، ركض باتجاه باب الفندق فيما يركل الفتيات اللواتي تعلقن به ليساعدهن، فتح باب

الفندق للحظة ثم رده متراجعاً نحو الداخل، ألسنة النار لم تمكنه من إلقاء نظرة على ما يجري في الخارج، شاهد أعمدة اللهيب ترتفع أعلى من سطح البناء، قرر الخروج من باب فندق الرحاب العام، المسافة الفاصلة بين ذاك الباب والمبنيين الحكوميين مجرد فراغ لا يحوي ما هو قابل للاشتعال، جرى باتجاه الباب الفاصل بين الفندقين العام والخاص، حاول فتح الباب المقفل، لم يفلح، عاد إلى غرفته يحضر المفتاح، وردة كانت أكثر الفتيات تماسكاً، أمرت الفتيات بإغراق أغطية الأسرّة بالماء والتلفح بها، أبو السرور في غرفته لم يجد مفتاح باب الممر، وجد المسدس الذي اقتناه مؤخراً، خرج به، أطلق عدة أعيرة نارية على القفل فانفتح الباب، جرى نحو الدرج الهابط باتجاه مدخل فندق الرحاب العام ومن خلفه الفتيات الثلاثة، على إثر الصوت الذي أصدره مسدس أبي السرور بدأ يسمع صوت إطلاق نار غزير في السوق، صوت أزيز الرصاص غطى على صوت حسيس النار، فوجئ الرجل بنزلاء الفندق يتدافعون على الدرج متجمهرين غير قادرين على مغادرة الفندق، صرخ أبو السرور على أحد النزلاء الذي يقف قريباً من باب الفندق المغلق يأمره بفتحه:

- الباب مقفول من برا ما عم يفتح... رد الرجل.

أبو الريح وحده كان يجلس في أعلى الدرج متكئاً بجنبه على الجدار وكأن ما يحدث لا يعنيه، صرخ أبو السرور طالباً إفساح الطريق له ليطلق النار على الباب، قبل أن يصل الرجل إلى أسفل الدرج، فوجئ المتجمهرون بسائل يُسكب من تحت الباب، مدّ أحدهم يده يتلمس السائل مستطلعاً ماهيته، اشتمّ رائحته، صرخ:

- بنزين...

النار لم تمهلهم، اندلعت بالسائل مثل مارد هرب من قمقم حُبس فيه مئات السنين، بدأ المتجمهرون بصعود الدرج بعضهم فوق أجساد بعض، بدور وغنوة ووردة كنّ في أعلى الدرج، أبو الـــريح راقـــب الأجساد الحبيبة إلى قلبه متلحفة بالأغطية المبللة، شعر بالحزن أن يلتقي بها أخيراً على هذه الحال، أول رجلين وصلا قمـــة الـــدرج، دفعـــا الفتيات عن طريقهما ليهربا من وهج النار، سقطت النساء أرضاً، بقية الهاربين داسوا بأقدامهم على أجسادهن، أبو الـــريح صـــدّ الأقـــدام المذعورة عن الفتيات، تلقى عنهن الكثير من الدعســـات، في لحظـــة وجد بدور تحته تصرخ متألمة، دفعته عنها شـــاتمة، اشـــتعلت النـــار بأجساد الرجال الذين يقفون أسفل الدرج قرب باب الفندق، ما عاد ممكناً تمييز صراخ المشتعلين عن صراخ الهاربين، حاول الذين تمكنـــوا من العودة إلى الفندق طلب النجدة من النوافذ، سياط النار منعتهم من الاقتراب، بقايا البناء القديم بدأت بالتداعي، جدران بعـــض غـــرف فندق الرحاب بدأ تتهاوى كاشفةً داخل الغرف، أخذت النار تلتـــهم فرشات الأسرة والأغطية، الحرارة داخل الفندق شـــوت الأجـــزاء المكشوفة من أجساد الموجودين فيه رغم أن النار لم تطلها بعد.

على حدود جدار النار وقف أولاد الأستاذ عبد الغني الشـــاعر ينتظرون بعد أن انتشر خبر الحريق في المدينة بأسرع مما تفعله النار في السوق، لولا أن عناصر الشرطة منعوهم من التقدم لكانوا اقتحمـــوا الجدار بحثاً عن والدهم، عندما تمكن الأخير من النجاة تلقفه أولاده، نزع أحدهم معطفه ووضعه على كتفي الرجل المسن، الموقع المتطرف لدكانه أنجاه من الموت، طالته النار ببعض الحروق، وقف مـــع أولاده خلف جموع المتفرجين، لم يكن يشاهد أمامه غير ظهور بشر رُكّب

فوقها رؤوس، بعيداً فوق تلك الرؤوس كان هناك دخان يتصاعد من تحته نار، بدا وكأن اللهيب يتأجج في الرؤوس المتجمعة أمامه، عبد الغني الشاعر أخذ يبكي، ليس فقط بسبب ألمه من حروقه، هو يعلم كذلك أنه بات متقدماً في السن، رقيق القلب، سخي الدمع، لم يجد حرجاً من أن يبكي، كل ما فيه بكى، العين والقلب والعقل والروح، دموع من أبكاهم الحريق كانت غزيرة لدرجة كافية لإخماد نار حريق مدينة بأكملها، عبد الغني الشاعر يعلم تمام العلم أن الدم والدموع مجرد أوهام، كذبة يُضحك بها على البسطاء ليشتروا بها أرواحهم بثمن بخس، ما أكثر البسطاء في مدينة عبد الغني الشاعر، رغم معرفته كل ذلك... الأستاذ بكى.

أبو داغر خرج من نار السوق إلى الشارع العام، سقط أرضاً دون حراك، النار ما زالت تطاله ألقوا عليه الأغطية ليطفئوه، سجية فقط التي تبينت أن هذا الرجل هو زوجها أبو داغر، أخذت تصرخ فيما تحاول الاقتراب منه، غازي تمكن من سحبه، حتى منتصف الطريق، حمله وأخذ يجري به، غالباً لم يكن غازي يعلم إلى أين يجري به، عموماً لا فرق، أبو داغر خرج من أتون النار لكنه فارق الحياة.

بدأت الانفجارات تصدر من داخل عبارة البناء القديم، واحداً تلو الآخر بسبب اشتعال جرات الغاز في مطعم أبو الخير، راحت جدران فندق الرحاب تتهاوى، قطع معدنية تتناثر في الهواء، أجساد البشر الذين كانوا موجودين بداخله اختلطت بالركام، زجاج مديرية الاستملاكات العامة وقسم شرطة مركز المدينة تحطم على إثر الضغط الذي ولدته الانفجارات.

مع انبلاج الفجر هطل مطر غزير، بدأت النار تخمد، أساساً لم يتبق على أرض السوق ما تقتات النار به لتحيا، وصلت مفارز شرطة إضافية، أحاطت بالمكان، بدأت تدفع الناس بعيداً عن المشهد، بعدها وصلت فرق الإطفاء والدفاع المدني والإسعاف.

حيث يقف عبد الغني الشاعر وأولاده، امتدت يدٌ تكفكف دمع الأستاذ، فوجئ الرجل بالروائية هيفاء الأصيل تقف قربه، رأى على قسمات وجهها تاريخ مدينته بأكمله، فضل الصمت حتى لا تضيع الكلمات في ضوضاء الحريق، هيفاء ضمت عبد الغني، شدته إلى صدرها، ابتعدت عنه، تأملته للحظات ثم عادت تضمه، أشارت هيفاء إلى شابين وصبيتين برفقتها:

- ولادي... قالت هيفاء.

تأبطت السيدة ذراع عبد الغني الشاعر ودفعته بلطف ليسير برفقتها فيما أولادهما يحيطان بهما، أخرجت السيدة من حقيبة تحملها كتاباً مطبوعاً يحمل عنوان "**المراسلات**"، نقل عبد الغني نظره من الكتاب إلى هيفاء متسائلاً:

- رسائلنا أنا وأنته... طبعتها.... قالت هيفاء.

عبد الغني الشاعر أراح رأسه على كتف هيفاء الأصيل، تاركاً تلك المرأة تقوده نحو بيتها.

وصل العقيد عامر أبو النصر محاطاً برجاله، المهندس عصام الناصر رئيس بلدية المدينة، عبد الله المأمون مدير عام مديرية الاستملاكات العامة، رؤوس جهات عامة وخاصة، منهم من هو معني بالحالة، ومنهم من هو غير معني، وسائل إعلام، كاميرات تصوير تلفزيوني، صحفيون، متأخراً وصل السيد هيثم الصارم مالك

ما أصبح ركاماً وقد كان في وقت مضى بناءً حجرياً جميلاً شغلت طابقه الأول شركة تجارية محترمة.

العقيد ورئيس البلدية والمدير عام، دخلوا أرض السوق "معاً" للوقوف على المشهد ميدانياً والتباحث حول ما حدث، رافقتهم حراسة مشددة وكاميرات الإعلام.

الخسائر المبدئية تحدثت عن الماديات في المبنيين الحكوميين، السوق المؤقت ببضائعه أصبح أثراً بعد عين، "أخيراً" الضحايا، تجاوز عدد الموتى المائة من عناصر الشرطة وأهل السوق على اختلاف مشاربهم، جرحى ومصابون بالمئات.

تصريحات المسؤولين للإعلام أجمعت أن الحريق ناتج عن إهمال أهل السوق لقواعد السلامة، وعدوا بفتح تحقيق شفاف حول "الحادث"، عبد الله المأمون صرح أن الوقت قد حان لتنفيذ المخطط العمراني الجديد لمركز المدينة، المهندس عصام الناصر تعهد بأن تقوم بلديته بإنشاء سوق جديد في مكان مناسب لتأمين فرص عمل للمتضررين من الحريق، حراس العقيد عامر أبو النصر حالوا دون وصول وسائل الإعلام إلى سيدهم ليدلي بتصريحاته بناءً على توجيهاته.

أمّ الشيخ محي الدين المأمون المصلين في المسجد الكبير لأداء صلاة الغائب على أرواح من قضوا في الحريق، وقف خلفه في الصف الأول عبد الله المأمون وعصام الناصر في حين وقف عامر أبو النصر بين الرجلين، الصلاة كانت مهيبة، المسجد على اتساعه لم يكن كافياً للأعداد الغفيرة من المصلين، مئات منهم صلوا على الأرصفة المحاذية للمسجد، دموع الشيخ محي الدين المأمون أثناء دعائه للموتى بالمغفرة

والرحمة أبكت عشرات المصلين، كذلك أبكت الكثير ممن تابع النقل الحي والمباشر لهذه الصلاة على إحدى الأقنية التلفزيونية.

نظفت بلدية المدينة خلال أيام ساحة سوق البسطة من بقايا الحريق، استبدل الزجاج المحطم للمبنيين الحكوميين، تم طلاؤهما مجدداً لمحو آثار السواد الذي غطى جدرانهما الخارجية، الساحة باتت أكبر بعد أن أزيل ركام البناء القديم، تسلل بعض الباعة المتجولين يعرضون بضائعهم على المارة، غامر أحدهم بفرد بساط مهترئ على الأرض وضع فوقه بعض المعروضات للبيع، خلال دقائق حضر مساعد أول من قسم شرطة مركز المدينة يرافقه عدد من العناصر، قامت الدورية بمصادرة المعروضات وطرد البائع، المساعد أول أبو ملحم شدد على جموع الناس الذين أحاطوا به يتفرجون أن البيع والشراء على أرض الساحة ممنوع، الفقر دفع البعض للمغامرة مجدداً، تكررت عمليات المصادرة والمنع، أخذ المساعد أول أبو ملحم يفرض هيبته على أولئك الذين يحاولون تجاوز التعليمات القاضية بمنع تحويل الساحة إلى سوق بسطة مجدداً، صدرت عن بعض وسائل الإعلام همسات خجولة تتساءل: ما الذي يمنع من ترك هؤلاء البسطاء يسترزقون طالما أن مشروع المخطط العمراني لمركز المدينة لم تباشر الجهات المعنية تنفيذه بعد؟

العقيد عامر أبو النصر أوحى لرجله المساعد أول أبي ملحم أن يتساهل قليلاً مع الفقراء دون أن يسمح لهم بتجاوز حدودهم، الرجل لا يريد للفوضى أن تعود إلى أرض الساحة مجدداً، بدأ الناس يتزاحمون على بضعة أمتار مربعة يفترشونها ببضائع تناسب فقراء المدينة، كان لا بد لأبي ملحم أن يتدخل لمنع الفوضى وتنظيم العمل.

من بقي حيّاً بعد الحريق من قدامى العاملين على أرض السوق لم يعد أحد منهم للعمل على أرضه مجدداً، أولئك رحلوا إلى غير رجعة، بلعتهم المدينة، كل الوجوه كانت جديدة، الاستثناء الوحيد كان الأستاذ عبد الغني الشاعر، عاد إلى ركنه القديم حيث كانت مكتبته مشادة ضمن بناء مؤلف من خمسة طوابق، في الطابق الأرضي منه تحديداً، ذات يوم كانت هناك مكتبته، كان للمكتبة واجهة على الشارع العام، ذات يوم مضى، ما عاد يذكر تاريخ ذاك اليوم، الأستاذ جلس على كرسي واطئ فاتحاً كتابه على ساقيه يقرأ، أخذ يعرض على بساطه أرقى أنواع الأدب ومنها كتاب "**المراسلات**"، امتنع عن بيع كتب الأبراج والطبخ، ليسد رمقه عرض بعض الأدوات القرطاسية.

عاد الآلاف لعبور أرض السوق يومياً، باعة، مشترون، متسولون، نصّابون، قوادون، عاهرات، رجال، نساء، أطفال، خليط غريب عجيب، الفوضى بدأت تحتاج إلى التنظيم يوماً بعد يوم.

سارت شاحنة قسم شرطة مركز المدينة ببطء فيما عناصر الدورية يحيطون بها، يترأس الدورية المساعد أول أبو ملحم "**الملك**"...

هزار النجار لم تصلها ورقة طلاقها، كل محاولاتها للتواصل مع زوجها فشلت، البهاق انتشر على جلد جسدها بأسرع مما تتصور، لم تفلح وسائل العلاج المتطورة في إيقافه، أخذت تتواصل مع صديقتها صبا عبر الإنترنت، صدمت عندما أخبرتها المرأة أن العلاقة بين "الصديقين" انتهت.

المخطط العمراني الجديد لمركز المدينة ما زال مجسماً حبيس صندوق زجاجي في بهو مديرية الاستملاكات العامة.

في الشقة الخاصة بالمهندس عصام الناصر استقبل الرجل "صديقه" المدير العام عبد الله المأمون، **العميد** عامر أبو النصر تلقى اتصالاً ينبئه بحدوث الاجتماع، بدأ يفكر بطريقة تمكنه من معرفة ما يدور داخل الشقة الخاصة للمهندس عصام الناصر.

ما هذه إلا مجرد البداية لرواية ستطول...

34... حاشية

القاضي بشير المدني إحدى الشخصيات المعروفة بنزاهتها وصرامتها في المدينة، أُقصي عن عمله لسنوات طويلة، كان ما يقوم به قبل إقصائه عزفاً منفرداً يشذ عما تقوم به جوقات المدينة ومنها جوقة وزارة العدل، أحداث سوق البسطة دفعت السلطات لتكليفه بملف القضية مضطرة، وجود شخصية كبشير المدني في واجهة معالجة الأحداث يمنحها مصداقية في جدية نواياها للوقوف على حقيقة ما حدث، إعلامياً على الأقل.

جهات كثيرة تابعت عمل القاضي المذكور عن قرب، تلقى الرجل اتصالات متكررة من دوائر القرار تنقل إليه من خلالها رغبتها في الاطلاع على مجريات التحقيق، تحفظ بشير المدني على المعلومات التي حصل عليها من خلال البحث الميداني، ومن اللقاءات الكثيرة التي أجراها مع العشرات من العاملين في سوق البسطة، نساءً ورجالاً وأطفالاً، العديد من أهل المدينة، بعض من تجاوب معه من الموظفين الرسميين في مختلف الدوائر الحكومية، أجرى لقاءاته سراً وعلناً، دوّن المحاضر بنفسه، استغرق عمله قرابة العام، فوجئ بالكثير مما كان لا يعرفه عن مدينته، أحزنه تحول أهلها عن وسطيتهم المعهودة عبر التاريخ إلى التطرف في الوقوف على أطراف المتناقضات

من تدين وتعصب وفجور، حمله التحقيق إلى مواضع محفوفة بالمخاطر لأهمية الأسماء والجهات التي ذكرت فيها، باختصار على عادته الشخصية ذهب بشير المدني في تحقيقه أبعد مما يتوجب، لم يستمع إلى نصائح كثيرة تطلب منه التريث وضبط حماسه المتقد، رفض الإصغاء معتقداً أنه أمام قضية العصر لما تكشّف له من فضائح وتجاوزات ومخالفات وجرائم بحق ما يعتقد أنهم أسمى ما في الوجود.. **الناس**، أهل مدينته التي يحب، المدينة التاريخية التي تباهى دوماً بانتمائه إليها.

تحت ضغط معالي وزير العدل الذي رأى أن بشير المدني قد استغرق في عمله أكثر مما تستحق القضية بكثير، قدم الأخير مسودة تقريره عن أحداث سوق البسطة قبل عرضه رسمياً على اللجنة العليا التي كلفت بتقصي الحقائق والتي كان وزير العدل نفسه عضواً فيها، تلقى أمراً بعد بضعة أيام يقتضي بالتوجه إلى مكتب معاليه لمقابلته.

دخل بشير المدني مكتب معاليه، وزير العدل كان يتصفح مسودة التقرير، انتظر دعوة للجلوس لم يتلقاها، بادر معاليه بعد عدة دقائق من الانتظار:

- شو هاد يا سيادة القاضي؟!... قال معالي وزير العدل في لهجة تنمّ عن عدم الرضى.

لم يعرف بشير المدني سبب استياء معاليه، آثر الصمت منتظراً، لم يطل انتظاره، بادر الوزير مجدداً:

- معقول يطلع معك الكل مذنب؟!
- نعم سيدي الجميع مذنب دون استثناء... قال القاضي بشير المدني مؤكداً.

نصح معالي وزير العدل الرجل الماثل أمامه بإعادة النظر في تقريره، تمسك القاضي بموقفه المبني على قناعاته القائمة على الأدلة والبراهين، الوزير صرف بشير المدني نادماً على تكليفه بملف القضية، خرج الأخير من المكتب مغتماً، قرر التوجه إلى مكتبه في قصر العدل ليعد النسخة النهائية من تقريره، في المسافة الفاصلة بين مكتب معالي وزير العدل والباب الخارجي للوزارة، أرسل لزوجته رسالة عبر هاتفه النقال، بمجرد ظهوره من الباب الخارجي لوزارة العدل، تماماً تحت القوس الذي حفر عليه تمثال العدالة الشهير تلقى القاضي بشير المدني بضع رصاصات مجهولة نُقل على إثرها إلى المشفى.

أثمرت العمليات الإسعافية التي أجريت لبشير المدني عن إنقاذ حياته، لكنها لم تمكنه من تجنب الدخول في غيبوبة عميقة من المستبعد أن يستيقظ منها في القريب العاجل، حسب رأي الأطباء من المتوقع أن تمتد تلك الغيبوبة لسنوات قد تطول وقد يقضي نحبه قبل أن يستيقظ، قلة متفائلة من الأطباء أكدوا أن صحوة القاضي بشير المدني آتية لا محالة مهما طالت غيبوبته رغم ما ورد في تقرير الطبيب الشرعي ومخبر الأدلة الجنائية أن الرصاصات التي تلقاها الرجل بلغ عددها أربعاً، أدت إلى تلف العديد من الأجهزة الحيوية في جسد الضحية، الجهاز العصبي على وجه الخصوص نال النصيب الأكبر من الضرر، جدير بالذكر أن تلك الرصاصات الأربع أطلقت من أربعة اتجاهات متباعدة، نوعية المقذوفات التي اخترقت جسد الضحية اختلفت باختلاف مصدر الإطلاق، تأكد استخدام أربعة أنواع مختلفة من بنادق القنص اثنتان منها بعيدتا المدى.

زوجة بشير المدني قبل أن تتلقى نبأ إطلاق النار على زوجهـــا، تلقت منه رسالة على هاتفها النقال: *"هذه المدينـــة ليســـت مدينـــة أحلامنا، إنها مكان بالكاد يكفي للعيش"* .

2016/7/2

الثالثة والربع من صباح دمشق